

التنوير الإسلامي والتنوير الغربي

ومقالات أخرى



الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

التنوير الإسلامى والتنوير الغربى

ومقالات أخرى

د. مصطفى حلمى





الطبعة الأولى
٢٠٢٠م

رقم الإيداع القانوني
٢٠٢٠/٢٢٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

من وصايا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله:

«إن يكن رسول الله ﷺ قد مات، فإن الله -عز وجل- قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به»، يعني القرآن.

وقال عندما طُعن في المحراب:

«أوصيكم بكتاب الله، فإنكم لن تضلوا ما اتبعتموه»(١).

●●●

---

(١) القاضي ابن هبيرة (الإفصاح عن معاني الصحاح) جـ١ ص١٧٧ ط رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية قطر- الدوحة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدى، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد،

فقد اتفق علماء الاجتماع والسياسة والمؤرخون من الأمم المختلفة -كما يقرر الشيخ رشيد رضا- على أن العرب ما نهضوا نهضتهم الأخيرة بالمدنيّة والعمران إلا بتأثير الإسلام فى جمع كلمتهم، وإصلاح شؤونهم النفسية والعملية، ولكن اضطرب كثير من الناس فى سبب ضعف المسلمين بعد قوتهم، وذهاب ملكهم وحضارتهم، فنسب بعضهم كل ذلك إلى دينهم، ومن يتكلّم فى ذلك على بصيرة يثبت أن الدين الذى كان سبب الصلاح والإصلاح، لا يمكن أن يكون سبب الفساد والاختلال؛ لأن العلّة الواحدة لا يصدر عنها معلولات متناقضة، فإذا كان لدين المسلمين تأثير فى سوء حال خلفهم، فلا بد أن يكون ذلك من جهة غير الجهة التى صلحت بها حال سلفهم، وما هى إلا البدع والمحدثات التى فرّقت جماعتهم، وزحزحتهم عن الصراط المستقيم [1].

لذلك فإن واجب تحرير مسائل البدع والاتّباع مما ينفع المسلمين فى أمر دينهم وأمر دنياهم، أصبح أمراً ضروريًّا، خاصة وأن الأمة الإسلامية تعرّضت فى العصر الحديث لحملة غزو ثقافى مكثف، كان من أهدافه خلط مفاهيم العقائد الإسلامية ومصطلحاتها الثابتة والمتوارثة، منذ عصر النبى ﷺ والصحابة التابعين ومن تلاهم من علماء الحديث والسنّة، الذين أبلوا بلاءً حسنًا فى التصدى لتأويلات المتكلمين والفلاسفة، وصدّوا انحرافات الشيعة والصوفية والفرق المبتدعة جميعًا [2].

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا فى مقدمة كتاب (الاعتصام للشاطبى) ص٣/ ٤، ط دار المعرفة-بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٢) تحت عنوان «موقف المسلم في هذا العصر قال الشيخ محمد الغزالي (. . .والاستعمار الثقافي ملحّ في محو شرائعنا وشرائعنا، بعينه كتاب مرتدون، أو مبغضون لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والمسلم منذ صلاة الفجر يتحرك في الوضع الذى اختاره القدر له ليعلى كلمة ربه، وإذا كان كفاح العقائد في هذه الأيام قد فرض تحدياً إجبارياً على كل شيء، فإن مناصرة الإسلام لن تشذ عن هذه القاعدة. . . . الإسلام رسالة توجب على معتنقيها أن يجعلوا مجتمعهم أجدر بالحياة، وأقدر على النجاح. وكل ما يعين على ذلك فهو دين، أو كما يقول علماء الأصول: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) محمد الغزالي (مشكلات في طريق الحياة الاسلامية) ص١١، ١٢ ط٢ دار الشروق ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

وكان من آثار الاستعمار الغربي إلى بلادنا على الثقافة أن أحدث خلطًا كبيرًا بين مفردات العقائد الإسلامية وبعض مفردات الثقافة الغازية المتصلة بتراث الغرب الديني الكنسي، أو المذاهب الفلسفية كالماركسية والبرجمانية العملية، والوجودية وغيرها[1].
وكان من دور المستشرقين وتلاميذهم فرض تصورات الغرب على المسلمين باسم التنوير والتطوير والتجديد وملاحقة العصر، منتهزين فرصة أنّ الأجيال الجديدة مفرغة من الثقافة الإسلامية الصحيحة بسبب المنهج التعليمي الذى وضعه القسيس الإنجليزى «دنلوب» وظلت تداعياته مستمرة حتى يومنا هذا!

(١) تحث السيدة مريم جميلة المهتدية للإسلام علماء المسلمين على شجب تلك الفلسفات، فتقول: «أول واجب يواجه علماء المسلمين هو شجب كل الفلسفات الخاطئة التى تحكم العالم فى الوقت الحاضر، تلك هى جدليات سقراط وأفلاطون وأرسطو التى تنكر صلاحية الحقيقة الكاملة الواقعية المبنية على الوحى الإلهى، وتمجد الريبة والشك والهرطقة على أنها من الفضائل تحت شعار البحث العقلى والحرية الفكرية والانتهازية السياسية التى جاء بها ميكافيللى فى كتاب «الأمير» أو ما يُسمّى «بالاستنارة المحررة» لفولتير.. والمبادئ الفرويدية التى تدعو للانطلاق الجنسى على أن ذلك هو ذروة الكمال للفرد والأمة، والنظرية الماركسية التى تنادى بأن يكون الانتعاش الاقتصادى هو الهدف الأول للسياسة العامة، والتى تقول بأن المثل الثقافية لأمّة ما تتبع حالتها المادية، وأن التقدم الروحى والأخلاقى يعتمدان على التقدم المادى، وفوق كل ذلك فإن شبح التقدم المتطور كما وضعه دارون فى «أصل الأنواع» قد طبق بعد ذلك بقليل فى علم الاجتماع بواسطة هربرت سبنسر. فكل هذه الأباطيل يجب أن تشجب تفصيلاً نقطة بعد نقطة، بأسلوب هادئ علمى، وبحجج منطقية مقنعة وفى نفس الوقت مقروءة جذابة، قادرة على تحويل انتباه الجماهير الكبيرة»[1].
ويقول الدكتور عبد العزيز مصطفى كامل: «لقد شهد العالم فى القرون والعقود الأخيرة سيلاً هادرًا من الأفكار والنظريات والأطروحات التى حاول أصحابها فرض القناعة بها طوعًا أو كرهًا، سلمًا أو حربًا، كالأفكار المتعلقة بالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والوجودية وغير ذلك، وقد كان كلّ منها يمثل نظرة مضاهية للهيئة فى توجيه الإنسان وتعيين سبل سعادته ومعارفه وتصوّراته، ولم يكن ممكنًا أبدًا لأمة لها ثقافتها ومعها ثوابتها المستمدة من يقينيات النقل والعقل، أن تترك سماءها مفتوحة لكل غزو طارئ من هنا أو هناك»[2].

(١) كتاب (الإسلام فى النظرية والتطبيق) ص٢٤٦، ٢٤٧، ترجمة: س. حَمَد، مكتبة الفلاح- الكويت ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
(٢) كتاب (معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية) ص١١٢، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م. كتاب (البيان) ط٥- منتدى لندن.

والحديث عن التنوير الوافد من الغرب ذو شجون (وقد أفردتُ له مقالاً خاصًّا)، ولكن في هذه المقدمة أشير إلى تحذير الدكتور سيد دسوقي من دعاة التنوير الغربي من بني جلدتنا . . فقد أورد خلاصة مقال للكاتب السياسي الأمريكي المشهور برجنسكي مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر وعنوانه: «خارج حدود السيطرة»، الذي حلّل فيه الأوضاع في الحضارة الغربية ونفذ بعمق إلى مشكلاتها، وتحدّث عن «مجتمع إباحة الوفرة» . . وهو مجتمع انحط مستواه الأخلاقي وانصب جهد الإنسان فيه على تلبية رغباته وإرضاء شهواته . . وفي مجال المشكلات الروحية ركّز على ما يعانيه أبناء هذه الحضارة من فراغ روحي رهيب نتيجة الاصطدام بطوفان المادية الغالبة عليه . ويرى أن أهم المشكلات وأكثرها استعصاء على الحل، هي المشكلات الروحية والاجتماعية، وهي تهدد النموذج الأمريكي من الأساس . ويقترح أن تقوم على حضارتها . . كما أنه على أمريكا أن تصل إلى قناعة بأن المجتمع الذي لا يمتلك قيمًا وثوابت مطلقة، والذي يقوم على فلسفة تحقيق المتعة الذاتية وإرضاء النزوات، هو مجتمع محكوم عليه بالانهيار والذوبان . . ثم قال الدكتور سيد دسوقي في الختام: «وإنما استهللنا بحديث كتاب النذير الأمريكي برجنسكي حتى يعلم الذين يريدوننا قردةً خاسئين نحذو حذو الحضارة الأمريكية حذو النعل بالنعل، ويتصايحون علينا باسم التنوير . . حتى يعلموا أنهم يدعوننا إلى الخسران المبين، خاصة أنهم يدعوننا إلى تقليد المرض في هذه الحضارة . . أما تتبّع الخير في هذه الحضارة -وإنّ فيها لخيراً كثيراً- فلسنا في حاجة إلى هذا الصياح المنكر لمن سمّوا أنفسهم دعاة التنوير؛ ذلك لأن هذا الأمر أي - تتبّع الخير في حضارات الدنيا- أمر لم يختلف عليه عقلاء الأمة في القديم والحديث»[1].

وحرصًا على إقناع العلمانيين بانحراف أفكارهم تقدّم لهم خلاصة بحوث ندوة أقيمت في لندن وموضوعها [سقوط العلمانية والتحدّي الإسلامي للغرب]. واستغرقت يومين عقد فيهما ست جلسات، وما داموا يعتقدون أن الغرب على صواب، وإن كنّا لا نشاركهم هذا الرأي.

وكان من المشاركين البروفيسور كنتوري الأستاذ بجامعة جورج تاون، وأحد أبرز الخبراء الأمريكيين في شئون الشرق الأوسط، ودرس الفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر، وقد قدم

(١) د. سيد دسوقي حسن (في التنوير الإسلامي «٤»: دراسة قرآنية في فقه التجديد الحضاري) ص٥/٦، ط. نهضة مصر -مارس سنة ١٩٩٨م.

ورقة شرح فيها خطأ الارتباط للمصطلحات الثلاثة : الليبرالية والعلمانية والتقدم؛ لأن تجربة قرنين من الزمان أثبت في حالات عدة أن العلمانية لا تعني بالضرورة التقدم، وقال: إنه آن الأوان أيضًا لإدراك أن خطاب التنوير الغربي المنطلق من العداء للدين لا يصلح للعالم الإسلامي والعربي، الذي يمثّل فيه الدين قيمة عظمى وتسوده قيم أخرى تعلي من شأن الدولة والجماعة والأسرة. وفي رأيه أنه لا العلمانية ولا الليبرالية ولا الماركسية تصلح أساسًا لإنهاض العالم الإسلامي، فكلٌّ منها يصطدم أو يتناقض مع تركيبة المجتمع الإسلامي، الذي لا مفرّ من الاعتراف بأنه يمثّل ثقافة مغايرة تمامًا لتلك السائدة في المجتمع الغربي (1).

وقدّم البروفيسور «جون كين» مدير مركز أبحاث الديمقراطية ورقة عنوانها «إعادة التفكير في العلمانية»، ومما ورد بها أن ظهور الأصولية الدينية في الغرب اتخذ أشكالاً عدة، في مقدمتها: بروز الحديث عن «السياسة المسيحية»، والجدل حول الدين والإجهاض ومطالبة ٨٠٪ من البريطانيين بتدريس الدين في المدارس. هذه المؤشرات وغيرها كثير، تثير تساؤلات عدّة حول مدى نجاح العلمنة في إقصاء الدين عن الحياة، الأمر الذي يستدعي إعادة النظر في المسألة برمّتها، من زاوية مراجعة موقف العلمانية من العلاقة بين الدين والمجتمع (2).

وقد لاحظ الأستاذ قدوسي أن الغزو الثقافي في مرحلته الأخيرة قد أسفر عن اتجاهيْن يحاصران دين الأمة، وهما: العلمانية والحداثة، وأصبح الغرض اقتحام حصوننا في العقيدة والشريعة والقيم الأخلاقية فضلاً عن تزوير التاريخ (3)، واجتمعت كل هذه الأساليب بغرض إفقاد الأمة الإسلامية درع مقاومتها المتمثل في أصالتها وتفردها وخيريتها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: من آية: ١١٠].

(1) فهمي هويدي (المقالات المحظورة) ص٢٤٢، ط دار الشروق ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

(2) نفسه ص٢٤١. وقد عرض أبرز البحوث بكتابه تحت عنوان «عن العلمانية وتجلياتها»، وقدم لها بقوله: «أهم ما في ذلك الحوار أنه دار بين مفكرين وباحثين، وليس من محترفي السياسة؛ لذلك لم تكن مناقشاتهم محكومة بحسابات أو تحيزات مسبقة، أو «عقد» من قبيل تلك التي تبرز على الفور في أي تناول للموضوع بساحاتنا الثقافية العربية، ص٢٣٩.

(3) والمثال المفضوح تصوير الحملة الصليبية الاستعمارية الفرنسية بقيادة نابليون على مصر على أنها جاءت لتأخذ بيد المصريين إلى النهضة!! وجاء الغزو الاستعماري الإنجليزي على مصر بهذه الأكذوبة كذلك، أما الاستعمار الصهيوني لأرض فلسطين فقد ظهر أصل التزوير فيه تحت شعار (أرض بلا شعب وشعب بلا أرض)! أما مأساة استعمار فرنسا للجزائر والمغرب وتونس وسوريا ولبنان فهي تحتاج إلى دراسة مستقلة.

وخلاصة القول؛ جاء الاستعمار الغربي محملاً بغرور التفوّق، ووهم أنه -وحده- صاحب الحضارة في مواجهة سكان البلاد المسلمين المتخلّفين، ومنذ ذلك الحين بدأ تكريس تلك الثنائية التي يمثل (الإسلاميون) أحد طرفيها، و(المثقفون) طرفها الآخر. وازداد هذا التكريس منذ ظهور الصحوة الإسلامية واتضح السعي الجاد لأمّتنا نحو اكتشاف ذاتها واستجلاء قيمها وإنهاض مقوماتها الحضارية[1].

وأمام تلك البدع المستحدثة في عصرنا، التي تفوق بآثارها المدّمرة ما أحدثه المبتدعة في تاريخنا، رأيت من واجبي مستعيناً بالله -عز وجل- القيام بالرد على بعضها بالأدلة والحجج العقلية، في شكل مقالات جمعتها في كتابي هذا؛ ولصلتها الوثيقة بالتهديدات التي تحاصرنا والتي أشار إليها من قبل الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (حصوننا مهددة من داخلها)[2].

هذا ولقد صدق الأستاذ عبد العظيم منصور في قوله: (إن الزمان قد استدار كيوم بعث الله محمداً ﷺ، ووقف العالم ومن فترة بعيدة على مفترق طريق وعرة شائكة.. وما لم يتقدّم المسلمون وهم حملة المنهج الإلهي ويطرحوا جانباً كل اهتماماتهم المادية والمعنوية التي دسّها المخالفون عليهم.. فإن الأوضاع السيئة في العالم ستزداد سوءاً.. وهو يذكّرنا أيضاً بقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لأمين الأمة أبي عبيدة بن

(١) محمد قدوسي، مقال (الإسلاميون خارج النخبة: أمة بين ثقافتين وجمهور يبحث عن جماعة) ص١٠٤ مجلة (المنار الجديد)، رمضان سنة ١٤١٨هـ - يناير سنة ١٩٩٨.

(٢) د. محمد محمد حسين (حصوننا مهددة من داخلها)، المكتب الإسلامي، بيروت/ دمشق ط ٤ ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ومما قاله في مقدمة الكتاب: «ومن الواضح أن هذه الصفحات لا تستقصي نشاط الهدامين، ولا تستوعب كل ميادينهم ولا تحصيها عدداً، ولكنها تقدم نماذج منها تكشف عن أساليبهم في الدس والتزييف والهدم والتخريب، وهي أساليب لا يقتصر شرها على بلد دون بلد، فهي تعم بلاد العرب، بل بلاد المسلمين، بل الشرق كله يسقونه السم على حين نهضته حتى لا تصح له نهضة، وليقودوه إلى الهاوية التي يوشك الغرب كله -شرقيه وغربيه- أن يتردى فيها، وسيعلم القارئ من بعد أن أصبع الصهيونية العالمية الهدامة التي تطمع في أن ترث الأرض وتستعبد كل من عليها لليهود من وراء هذه الدعايات والدعوات (ص١٥/ ١٦). ويقول ص٣٠٩: «الدراسات الإسلامية تسمية أوربية، فهي ترجمة حرفية للأقسام التي أنشأتها الجامعات الأوربية لتضم دراسات تتعلق بالمسلمين في تاريخهم وآدابهم ومجتمعاتهم، بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معاني الدين والعادات والتقاليد والبيئة. هذه الدراسات يقصد بها خدمة المصالح الاستعمارية في تعاملها مع البلاد الإسلامية والمساعدة على التخطيط لها.. ويحذّر من الخلط بين هذه الدراسات (والعلوم الإسلامية)، وهي علوم التفسير والحديث والفقه وما يتصل بها من دراسات مكمّلة لها ومعينة عليها.. ودراسة العلوم الإسلامية تقوم على أوليات لا بد من تحصيلها: حفظ القرآن وإتقان تفسيره.. =

الجراح: «إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزّ بغيره يذلكم الله»(1).

ويقول الدكتور جلال أمين -وهو شاهد على العصر-: «ليس هناك من أمل إلا فى أن يفيق العرب على حقيقة الحضارة الغربية التى لا يزالون مفتونين بتقليدها؛ إذ إن هذا الافتتان بالحضارة الغربية والانهيار النفسى أمام مظاهرها البرّاقة، هو السبب الأساسى لانهزامهم وانكسارهم السياسى والاقتصادى»(2).

هذا، وأدعو ربى -عز وجل- أن يجعل جهدى فى هذا الكتاب خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزنى بالصواب إحسانًا وبالخطأ غفرانًا، وأن يجعل هذا الجهد فى ميزان حسناتى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، اللهم آمين.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

الإسكندرية فى ٢٨ من ذى الحجة

سنة ١٤٤١هـ، ١٨/ ٨/ ٢٠٢٠م

مصطفى بن محمد حلمى

= ودراسة الحديث النبوى الشريف.. ودراسة الفقه.. والعقائد والعبادات والمعاملات.. أما الدراسات الإسلامية التى تبنى على غير هذه الأسس ستكون حتمًا دراسة متحررة؛ لأن صاحبها وهو يزعم أنه متخصص فى الدراسات الإسلامية -سيفتى بعقله الحر من عند نفسه إذا استفتى فى شأن من الشئون الإسلامية التى لم يسبق له دراستها، أو التى درسها دراسة منحرفة غير سوية (ص٣١٣). وللعلم فإن للدكتور محمد حسين كتابًا آخر بعنوان (وكر الهدّامين)، وكان مصادر كتاب الشيخ محمد الصواف (المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام) هذا، وعلى منواله ألف الدكتور محمد عبد الشافى القوصى كتابه بعنوان: «الوثائق تتكلم» (الصفحات السود لمدرسة التغريب والحداثة والتنوير)، ومما قاله فى مقدمته: حزين أنت أيها الوطن! لقد ابتليت بدعاة العلمنة والتنوير والحداثة من أمشاج وبقايا العهد الديكتاتورى الذين إذا ذكر الإسلام اشمأزت قلوبهم، وإذا ذُكرت الماركسية وأخواتها إذا هم يستبشرون! أولئك الذين رتعوا فى أجهزة الإعلام فعربدوا فى ميادين الفكر متطاولين على التراث، ملفقين للتاريخ، مزيفين الواقع مضللين الطريق للمستقبل، وكانت قبلتهم بيروت(1).

(1) عبد العظيم منصور (كلمة الله الأخيرة) ص ٤٣١، ٤٣٢. ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة - ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

(2) د/ جلال أمين (مستقبليات؛ مصر والعرب والعالم فى منتصف القرن ٢١) ص ٨١- كتاب الهلال أبريل ٢٠٠٤.

(1) ص ١٢ من المقدمة ط مدبولى الصغير، ٢٠٠٧م. هذا، ومن ملاحظات الإمام الشاطبي على أهل البدع، أنهم يستعينون فى نصرة دعوتهم بالولاة والسلاطين، قال (ألا ترى أحوال المبتدعة فى زمان التابعين وفيما بعد ذلك؟ تلبسوا بالسلاطين، ولاذوا بأهل الدنيا) نقلاً من كتاب أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق الوليد سيف النصر- ط مكتبة ابن تيمية - القاهرة -ص٣٥- ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه . .

التنوير الإسلامي والتنوير الغربي «مقارنة»

إن البحوث والدراسات والمؤلفات التي تدور حول ما تعانيه الحضارة المعاصرة من أزمات، وما يتوقّع معها من انهيار تبلغ حداً يتعذر إحصاؤه. . . وأصبح الأمل معقوداً على بعض الاتجاهات والنزعات الروحية المستمدّة من الدراسات الإنسانية للموازنة بين كفتى المادية والروحية كنوع من العلاج.

وكان الشيخ محمد الغزالى موفقًا فى تعليل الداء؛ إذ رأى أن الحضارة الحديثة اكتشفت من قوى الكون وأسراره، ولها الآن حصيلة كبيرة فى علوم الذرة والفضاء و(الإلكترونيات) و(الكمبيوتر)، وقد نقلت آثار ذلك إلى تفوّق مدنى وعسكرى فى البحر والجو. ولكن مع هذا السبق البعيد، فإنها لا تزال واقفة عند العصر الحجرى فى ضبط الغرائز، وقبل ذلك فشلت فى التعرّف على رب العالمين، وتأسيس علاقة صحيحة معه تقوم على توقيره وتقدير نعمته والشعور بعظمته والتسبيح بحمده، والتعويل عليه فى الأزمات، والاطمئنان إليه فى المخاوف[1].

وفيما يتصل بالتنوير الذى نتحدث عنه فإننا نتعجب من موقف التنويريين العرب الذين يتجاهلون ظاهرة الأزمات التى تعانى منها هذه الحضارة[2]؛ إذ يصرّون على تقليدها والاستمرار فى السير وراءها تحت شعار (فلسفة التنوير)، النابع من تاريخ ثقافتها الخاصة والذى لم يمنعها من إخفاقها الذريع كما سيتضح لنا من مقالات تالية.

(١) محمد الغزالى (مائة سؤال عن الإسلام) جـ٥، ص١١٥ هدية مجلة الأزهر - جمادى الآخرة ١٤٣٩هـ.

(٢) يقول الدكتور رشدى فكار: «تأزّم الإنسان الذى ارتقى. . إنسان ميكانيكى ينام بحبوب، ويتقوى بحبوب، خبت لديه العواطف وضعفت فيه المشاعر. . . إلخ. هذا المنعطف الخطير. . يقف الإسلام المنقذ للبشرية» د. رشدى فكار فى حوار متواصل حول مشاكل العصر ص٤٦، إعداد خميس البكرى، مكتبة وهبة ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

ولكن من دلالات العناد القول: «إن الغرب على صواب» ولو عُنوا بدراسة المبادئ التي أتى بها الإسلام وكتابه - القرآن الكريم- لعثروا على ما يبحثون عنه ولاطمأنت قلوبهم ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

لقد غفلوا عن آيات القرآن الكريم التي تصفه هو نفسه بالنور، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾ [التغابن: ٨].

وقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد قيل: إن الضمير في (جعلناه) عائد إلى الأمر، وقيل: إلى الكتاب، وقيل: إلى الإيمان، والصواب أنه عائد إلى الروح، أي جعلنا ذلك الروح الذي أوحينا إليك نوراً، فسماه روحًا لما يحصل به من الحياة، وجعله نوراً لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيث وُجدت هذه الحياة بهذا الروح وُجدت الإضاءة والاستنارة، وحيث وُجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل هذا الروح فهو ميّت مظلم[1].

والله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور كما في قوله عز وجل: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [الأنعام: ١٢٢][2].

وقال الله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾ [التغابن: ٨].

---

(١) الشيخ عبد الجليل عيسى (المصحف الميسر)، ط٥ - دار الشروق ١٣٩٦هـ.

(٢) ابن القيم (الوابل الصيب من الكلم الطيب) ص٧٨، دار الريّان للتراث بالقاهرة ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

و(النور) هو القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، كما ورد بتفسير الشيخ عبد الجليل عيسى[١].

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: «أي يعطيكم علمًا وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل»[٢].

ويقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، أي من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل. فهذه أعظم نعمة أنعم على العباد والطائعين تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا[٣].

هذا وقد جمع الله تعالى بين الظلمات والنور أيضاً في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [سورة الأنعام: ١].

يقول العلامة السعدي: (هذا إخبار عن حمده والثناء عليه، لصفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال عمومًا، وكل هذه المذكورات خصوصاً. فحمد نفسه على خلقه السموات والأرض - الدالة على كمال قدرته- وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسيّ من ذلك كالليل والنهار، والشمس والقمر، والمعنوي، كظلمات الجهل- والشك والشرك- والمعصية- والغفلة- ونور العلم والإيمان، واليقين،

(١) الشيخ عبد الجليل عيسى (المصحف الميسر) ط٥ سنة ١٣٩١هـ، دار الشروق.
(٢) الشيخ عبد الرحمن السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص٨٠٥، مكتبة الصفا بالأزهر ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
(٣) نفسه ص٦٤٠.

والطاعة . فهذا كله، يدل دلالة قاطعة على أنه تعالى، هو المستحق للعبادة، وإخلاص الدّين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) به سواه . يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساووا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه . . .

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادها، وتنوّع طرقها . ووحّد النور، لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة، لا تعدّد لها وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به كما قال تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[1].

ونستطيع أن نقرّر بناء على ما تقدّم، أن عصر التنزيل الإلهي بالقرآن الكريم، إذن هو عصر التنوير الحق؛ إذ أضاء الوحي العالم بنوره الساطع ونشره الصحابة، ومن تبعهم بإحسان منذ القرون الأولى، حيثما حملوا عقيدة التوحيد وهي الأصل والجوهر لدين الإسلام «والدين إنما هو كتاب الله -عز وجل- وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة القوية المعروفة، يصدق بعضها بعضًا، حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين، ومن بعدهم من الأئمة المعروفين المقتدى بهم المتمسكين بالسنّة والمتعلّقين بالآثار، ولا يعرفون ببدعة ولا يُطعن فيهم بكذب ولا يُرمون بخلاف»[2].

ومن المتّفق عليه بين المهتمّين بالحضارات وتاريخها أن لكلّ أمّة تاريخها الخاص الذي يسجّل تجاربها التي تنفرد بها ولا تشاركها فيها حضارة أخرى . ولئن كان محور تاريخ حضارة الغرب يدور حول المنجزات العلمية لاسيما منذ عصر النهضة والتحرّر من سلطان رجال الكنيسة، فإن تفسير تاريخ حضارتنا مغاير تمامًا لهذا التصوّر، وإذا صحّ قول كيلنج: «إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»، فإنه أكثر ما يكون صحيحاً عندما نعرف أن ذروة التقدم والازدهار لحضارتنا الإسلامية يمثلها عصر التنزيل، عصر الرسول ﷺ وصحابته، ومن سار على منهجهم، وهو المقياس الذي ينبغي أن نقيس به المراحل التاريخية لحضارة الإسلام، سواء عند ازدهارها أو عند تدهورها .

يقول الصحفي السويسري المهتدي للإسلام روجيه دوباسكويه: «نبعت النظرة العالمية

(١) عبد الرحمن السّعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص٢٢٨ ط مكتبة الصفا -ميدان الأزهر ١٤٥٢ هـ- ٢٠٠٤م.
(٢) ابن القيم (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) ص٣٠٥، دار عمر بن الخطاب -بروكلي- الإسكندرية بدون تاريخ.

للثقافة الإسلامية مباشرة من التنزيل أى من الحقيقة الخالدة السامية، وليس من تأملات أو اجتهادات الفلاسفة والمفكرين. . . فيجب وصف حضارة الإسلام بأنها إلهية»[1].

ولكن الأصوب الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان: ٣٠]، ويصف الحضارة الإسلامية أيضًا بأنها «حضارة التوحيد»؛ إذ كشفت عن قدرة غير عادية فى استيعاب ودمج أقاليم مختلفة، وحافظت على درجة كبيرة من تماسكها وتجانسها، لتظل -مثل كل ما يبعث من الإسلام- متمركزة على مبدأ التوحيد. . . وكان موقفها الأساسى دائمًا إعمالاً لشهادة لا إله إلا الله، بشكل أو بآخر، حيث إنها استحضرت دائمًا العون الإلهى ولم تعبد أى مخلوق [2].

وإننا نستبعد أيضًا بحكم فتنة المتغربين بكلّ ما هو وافد أوربى أو أمريكى وانشغالهم الكامل به وحده، نستبعد اطّلاعهم على سيرة الرسول ﷺ العطرة أو الإلمام ببعض وصاياه كما وردت مثلاً فى خطبة الوداع كقوله: «أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم..»، وقوله: «أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.. فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى تركت فيكم ما إن اتخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله». . .

وقوله: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى».

وبعد وصاياه بحقوق النساء على الرجال.. قال فى النهاية: «فاتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيرًا» [3].

---

(١) روجيه دوباسكويه (إظهار الإسلام)، ص١٣٤، مطابع الشروق سنة ١٩٩٤م.

(٢) نفسه ص١٣٣، ويرى أنها على النقيض من الفكر المعاصر - خصوصًا العلمانى - الذى يدرك الحقيقة فقط فى النظام المخلوق، ويرى المطلق بطريقة فاسدة تمامًا.

(٣) الشيخ محمد الخضرى (نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ﷺ)، ص ٢٥٨، ٢٥٩، ط (٢٤)، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٧٨م.

وهذا غيض من فيض من سيرته ﷺ، ولو وسّعوا دائرة اطلاعهم عن السنة وكنوزها لعثروا على كلّ المثل العليا في جوانب الحياة الإنسانية جميعها التي حققها ﷺ. ولننقل ها هنا صفحة واحدة من سيرة حياته ﷺ، يقول الدكتور مراد هوفمان: «يظهر لنا من سيرة حياته ﷺ من خلال مصادرها، يظهر كشخصية سياسية محنكة تتمتع بكاريزما طاغية، وقوة إرادة ومهارة تكتيكية. فقد أثبت خلال الفترة ما بين هجرته إلى المدينة وفتحه السلمي لمكة بعد ذلك بعقد من الزمان، أنه عسكري في أعلى المراتب؛ حيث استطاع ﷺ أن يطبّق بذكاء قواعد الحرب الاقتصادية والنفسية، وأن يستخدم مفاوضات الحد من التسلح كأداة للسياسة الخارجية. وكان قبوله للهدنة في الحديبية سلوكًا سياسيًّا من الطراز الأول؛ إذ سرعان ما أدرك أهل مكة أنهم قد وقّعوا بأنفسهم على صك استسلامهم مستقبلاً. وبنفس البراعة أملى محمد ﷺ دستور وحدة المدينة؛ ليكون بمثابة معاهدة فيدرالية بين المجتمعَيْن المسلم واليهودي.

وإذا ما أخذ المرء في اعتباره النجاح الذي حققه محمد ﷺ في التجارة، وحكمته كقاضٍ ومحكّم، وقدرته الخطابية وبلاغته، فإن المرء سرعان ما يجد نفسه عاجزًا عن تفسير كيف تسنى لهذا العربي ﷺ المحروم من التعليم، الأميّ، والذي ينتمي إلى مجتمع متخلفّ أن يتمتع بكل هذه الصفات؟

هناك شيء غريب في هذا الأمر.. هناك شيء إلهي في هذا الأمر»[1].

لذلك فإننا نشفق على التنويريين العرب إذا استمروا في طريقهم بحثًا عن السعادة وفلسفة الاستنارة في حضارة العصر؛ لأنهم يسيرون وراء سراب خادع.

وعندما وصفنا بمستهل كلامنا ما تعانيه تلك الحضارة من أزمات فإن مصدرنا آراء بعض الفلاسفة، ومنهم الفيلسوف الفرنسي «جارودي» الذي كان عنوان الفصل السابع من كتابه (الإسلام والقرن الواحد والعشرون- شروط النهضة»، كان العنوان [الإسلام

(١) د. مراد هوفمان (يوميات ألماني مسلم)، ص١٣٠، ١٣١ بتصرف يسير، ترجمة: د. عباس العماري- مركز الأهرام للترجمة والنشر ٤/ ٤/ ١٩٩٣، وكان يشغل وظيفة مدير للإعلام في منطقة حلف شمال الأطلنطي، ص١١٩.

هو سبيل الخلاص] قال: «إن الإسلام يملك اليوم إمكانات واحتمالات انتشاره بأكثر مما كان في أوج عظمته، فهو يستطيع أمام هذا الإفلاس المستعصي والمزدوج للنّموذج الأمريكي والسوفيتي أن يعيد الأمل إلى عالم مهدّد في بقائه بهذا الفشل المزدوج»[1]. وسنعود لآراء آخرين في مقالة قادمة.

ويقول الأستاذ محمد أسد: «ويبدو أن تنامي القلاقل الاجتماعية والاقتصادية، وربما أيضًا حدوث سلسلة من الحروب العالمية ذات أبعاد لا قبل للمرء بمعرفة حدودها مسبقًا، وما يخلّفه العلم من ضروب للرعب سوف تدفع بالحضارة الغربية المادية المغرورة بكل مروّع إلى الإغراق في السخف، على نحو يضطر شعوبها إلى أن تبحث من جديد في استكانة ودأب عن الحقائق الروحية، وهنا يمكن للتبشير بالإسلام أن يجد قبولاً»[2].

المقارنة بين معاني (النور) في القرآن الكريم ومصطلح (الاستنارة) الغربية:

استعرض الدكتور محمد جمال الدين الفندي بعض آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر (النور) فبدأ بسورة النور آية ٣٥: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].. كما ورد في عدة آيات أخرى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ولفظ النور في هذه الآية الأخيرة وحدها قد يعني ظلام الليل، بل وظلمات الفضاء بما بث فيه من نجوم

---

(١) روجيه جارودي (الإسلام والقرن الواحد والعشرون، شروط نهضة المسلمين)، ص١١٩، ترجمة كمال جاد الله، دار الجليل للكتب والنشر، ط١، سنة ١٩٩٧م.

(٢) د. مراد هوفمان (يوميات ألماني مسلم)، ص٦٦، وكان صديقًا لمحمد أسد ونقل عنه.

وكواكب، أما في الآيات السابقة كلها فهو يعني ما يبدد ظلمات الكفر والإلحاد، ويظهر بديع صنع الخالق وبهاؤه.. وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٣٢][1].

وقد يدل لفظ النور أيضًا على كتاب الله الذي يهدي إلى السعادة في الدارين: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]، ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولعل من الواضح أن النور هنا يعني التعبير بالوجود أو الكيان أو البينة والإيمان أو هما معًا حتى يصبح مرئيًا أو مرموقًا[2].

هذا ويتضح الاختلاف الجذري بالمقارنة بين المعاني السالف ذكرها وبين المصطلح الغربي الوافد؛ حيث يرى الدكتور عبد الوهاب المسيري أن مصطلح (الاستنارة) في الغرب مرتبط تمام الارتباط بمفهوم الحداثة.. وأن بعض مفكري عصر الاستنارة أدركوا الطبيعة التفكيكية المظلمة للعقلانية المادية، ومثل هذه الاستنارة المظلمة قد تسبب عدم الاستقرار والقلق. وقد قام أحد المفكرين الذي صاغ مصطلح الاستنارة المظلمة بتقسيم الفكر الغربي الحديث إلى: فكر استناري عقلي مضيء، وآخر مظلم.

ويرى الدكتور المسيري أن الحضارة الاستهلاكية الحديثة بينت من خلال تطورها مدى صدق المبشرين بالاستنارة المظلمة، فبعد روبسبير وستالين وهتلر ثم ريجان ويلتسين، وبعد إمبريالية التهمت العالم ودمرته، وبعد حربين عالميتين غربيتين، وبعد الأزمات السياسية والاقتصادية المتكررة في العالم الاشتراكي والرأسمالي، وبعد سقوط الاشتراكية في العالم وتلوثه البيئي والأخلاقي، أصبح الحديث عنالاستنارة المضيئة أمرًا صعبًا تحيطه الشبهات، واكتسبت الاستنارة المظلمة مصداقية عالية[3].

---

(١) د. محمد جمال الدين الفندي (من الآيات الكونية في القرآن الكريم) ص٩٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف ١٣٥٠هـ-١٩٦١م.

(٢) نفسه ص٩٤.

(٣) د. عبد الوهاب المسيري (دراسات معرفية في الحداثة الغربية)، ص٢٩، ط١، مكتبة الشروق الدولية القاهرة ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

أما لفظ (النور) في القرآن الكريم فإنه يعني بوجه عام -كما تقدّم- العون الإلهي للإنسان المؤمن لينير الطريق، ففي تفسير بعض آيات القرآن الكريم التي تضمنت ذكر (النور) يقول الأستاذ سيد محمد أبو المجد في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

«وهذه المعونة الإلهية تتجلى في أن يمنح الله تعالى المؤمنين نوراً يضيء أمامهم ظلمات الطريق: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وشتان بين من يسير تحت أشعة الأضواء في طريق واضح مرسوم، ومن يتخبط في الظلمات خبط عشواء: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾» [النور: ٤٠][1].

ونحن نوصي التنويريين العرب بقراءة رسائل «النور» لكي يصوبوا موقفهم؛ ومن ثم يرون أنوار الإسلام الساطع بعقيدته وعباداته.. وها هو الشيخ سعيد النورسي الذي تذوق حلاوة الصلاة واكتشف أنها مفتاح النور.. وينقل إلينا تجربته فيبدأ بالحديث إلى النفس قائلاً: «اعلمي أيتها النفس أن الأمس قد فاتك، أما الغد فلم يأت بعد، وليس

(١) سيد محمد أبو المجد (ملحق كتاب الشيخ محمد المدني - النفس الإنسانية في ضوء القرآن والسنة بعنوان [الملكات النفسية في القرآن الكريم] ص١٥٩، ط دار القلم بالكويت (الناشر)، والتوزيع (دار القلم بالقاهرة) ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

لديك عهد أنك ستملكيه، لهذا فاحسبي عمرك الحقيقي هو هذا اليوم، وأقل القليل أن تلقى ساعة منه في صندوق الادخار الأخروي، وهو المسجد أو السجادة لتضمن المستقبل الحقيقي الخالد»[1].

ثم يشرح آثار الصلاة بقوله: «وهكذا إن أديت الصلاة وتوجهت بصلاتك إلى خالق ذلك العالم ذي الجلال، فسيتنور ذلك العالم المتوجه إليك حالاً، وكأنك قد فتحت بنية الصلاة مفتاح النور، فأضاءه مصباح صلاتك، وبدد الظلمات فيه. وعندها تتحول وتتبدل جميع الاضطرابات والأحزان التي حولك في الدنيا فتراها نظامًا حكيمًا، وكتابه ذات معنى بقلم القدرة الربانية فينساب نور من أنوار ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى قلبك فيتنوّر عالم يومك ذاك، وسيشهد بنورانيته لك عند الله..»[2].

وينقل لنا الشيخ سعيد النورسي تجربته مع أوربا؛ إذ في البداية أقبل على العلوم الأوربية الفلسفية وفنونها، ولكنها انقلبت إلى أمراض قلبية فأخذ يحذّر من الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفيهة.. وحتى لا يُساء فهمه صرّح بأن أوربا اثنتان: إحداهما هي أوربا النافعة للبشرية التي استفاضت من المسيحية الحقة بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف.. أما أوربا الثانية فخاطبها بقوله: «أيتها الروح الخبيثة التي تبث الجحود، تُرى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرّد تملكه ثروة طائلة، وترفّله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد؟!

كيف بمن أصيب بشؤمك بضربات الضلالة في أعمق أعماق قلبه، وفي أغوار روحه حتى انقطعت بتلك الضلالة جميع آماله؟ فانشقت عنها جميع آلامه، فأي سعادة يمكنك أن تضمن لمثل هذا المسكين الشقي؟ وهل يمكن أن يطلق لمن روحه وقلبه يعذّبان في جهنم، وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة أنه سعيد»[3]؟

---

(١) سعيد النورسي (حقائق الإيمان) ص٣٥، ٣٤ ترجمة: إحسان الصالحي. ط ٤ -شركة سوزلر للنشر بالقاهرة- ٢٠٠٨م.

(٢) نفسه ص٣٦.

(٣) نفسه ص ١٠٠، ١٠١.

هذا، وفي الإشارة السابعة من الرسائل، يحذّر من ضلال المعتزلة، ويوجّه النداء إلى أهل الحق مناديًا: «اجعلوا مستقركم طريق الحق وهو طريق أهل السنة والجماعة .. وادخلوا القلعة الحصينة لمحكمات القرآن المعجز البيان .. واجعلوا رائدكم السنة النبوية الشريفة تسلموا وتنجوا بإذن الله»[1].

وبعد .. فأين لأولئك التنويريين المتغربين من هذه الأنوار الساطعة الهادية إلى الحق المبين؟

●●●

(١) نفسه ص٥٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة على نبينا محمد وآله وصحبه . .

التنوير الزائف (عرض ونقد)

للدكتور جلال أمين كتاب بهذا العنوان، جمع فيه مجموعة من البحوث والمقالات، كتبها في مناسبات مختلفة، والفكرة الأساسية فيها كلها فكرة واحدة: هي الاحتجاج على ما اعتبره تنويراً زائفاً، ومحاولة الانتصار لما اعتبره التنوير الحقيقي الذى من شأنه دون غيره أن يؤدّى إلى نهضة حقيقية .

هذا، وقد نتفق معه أو نختلف في بعض القضايا، ولكن يبقى الكتاب في مجمله تعبيراً صادقًا عن تجربة خاضها منذ أنْ كان طالبًا للدكتوراه في الاقتصاد منذ أربعين عامًا، وقد أجمع هو ومن معه من الطلبة المصريين في لندن حينذاك على الاتفاق على فكرة ملخّصها: إن طريق الإنقاذ للمجتمعات المتخلفة واللحاق بالغرب هو أن نظرية روستو في مراحل النمو الاقتصادى هي السبيل لهذا الهدف[1] .

وعندما قال: إن البعض ما زال مصراً على أن طريق النهضة هو تقليد الغرب، فربما يقصد بذلك الرأى الذى ما زال يستمسك به الاتجاه التغريبي، وتصوّره -كما جاء على لسان د. هالة مصطفى- أن بدء مشروع النهضة المصرية نحو أكثر من قرنين من الزمان، وبالتحديد عقب الحملة الفرنسية على مصر، ويرجع إلى قيام محمد على بإرسال البعثات التعليمية إلى أوربا وبداية تكوين النخبة الوطنية وانتشار التعليم واتساع قاعدة الطبقة المتوسطة، وظهور الوعي بقضية المرأة، والأخذ بأسباب العلم والمعرفة، وظهور حركات الإصلاح الديني و[التنوير الثقافي] وغيرها من إطار المشروعات القومية لبناء الدولة

---

(١) دكتور جلال أمين (التنوير الزائف) ص١٧ سلسلة اقرأ (دار المعارف بمصر) سنة ١٩٩٩، ولكنه يقر بصراحة: «كنّا أصغر أو أحمق من أن ندرك وقتها خطأ هذه الفكرة» ويقول أيضًا: «ومن المدهش أن البعض لا زال يصدقها حتى الآن!» (تاريخ مقدمة الكتاب: فبراير سنة ١٩٩٩م).

الحديثة، كانت كلها ثمار التفاعل الواعي والإيجابي مع الغرب بحضارته المعاصرة، التي كانت هي نفسها نتاجًا للتفاعل الخلاّق بين مختلف الحضارات الإنسانية على مر العصور من شرقية وغربية .. إن التوجّه العام العريض الذي يميز مشروع النهضة يتسم بطابع إصلاحي وتحديثي، وله صفة الاعتدال والوسطية التي تقدم على التفاعل الإيجابي والواعي مع الحضارة الغربية [1] ويتضح من هذه العبارة السّردية الإنشائية أنه لا صلة لها بطريقة البحث العلمي، فضلاً عن مخالفتها التامة للواقعات التاريخية الموثقة، وستثبت في الصفحات التالية (ص٢٧ وما بعدها) أخطاءها الفاحشة.

ولا يخفى على القارئ أن ذكر «الحملة الفرنسية» في هذا السياق دال على الخطأ الكبير الذي يقع فيه المستغربون؛ إذ يوهم أيضًا بأن الحملة الفرنسية جاءت إلى مصر لتأخذ بأيدينا إلى التحضر! بينما هي في حقيقتها حرب صليبية سافرة، واقرءوا تاريخها الأسود هذا، وقد قام الشيخ محمود شاكر -رحمه الله تعالى- فأيقظ الأجيال من تلك الغفلة الكبرى، وفنّد الأكاذيب والهالات المصنوعة حول محمد علي ونابليون! فأثبت أن محمد علي كان أحد كبار الطغاة في تاريخنا، وكان ألعوبة في يد القناصل، وساعد فرنسا على وأد اليقظة الوليدة.

أما نابليون هذا السفّاح المبيد.. أو الفتى الصليبي المحترق، فقد كانت بلاياه في مصر أفظع من بلايا جنكيز خان.. ويكفي التذكير بهجمة جنوده على الجامع الأزهر وما فعلوه فيه من جرائم لا تكاد تصدّق من هول فظائعها! مع تعليق كبار علمائه على المشانق[2]، كذلك أخذ سلوك الجيش الفرنسي طابع الحرب الصليبية بلا نزاع وقد اتضح ذلك بصورة سافرة أيضًا في الجزائر فكان الفرنسيون يحتفلون افتخارًا بانتصار المسيحية على الإسلام وغلبة الجيوش الفرنسية على الجزائر[3].

---

(١) د. هالة مصطفى: الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم، ص٧، ٨ باختصار، ط دار مصر للمحروسة -القاهرة ٢٠٠٢م، وهي نموذج لآراء التغريبيين، وسنفند آراءها أولاً بأول.

(٢) ينظر كتاب (محمود شاكر «رسالة في طريق ثقافتنا») مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م. وكتاب محمد جلال كشك (ودخلت الخيل الأزهر).

(٣) د. محمد مورو (الجزائر تعود لمحمد صلى الله عليه وسلم) ص٧٧، المختار الإسلامي ١٩٩٢م. وكتبت جريدة فرنسية عام ١٩٢٦ تقول: «ويوسعنا أن نفتك بهذا الدين الفتك الذريع».

كذلك فإن وصف الغزو العسكرى الاستعمارى الفرنسى بأنه (حملة) فيه كثير من المغالطة لإخفاء بشاعته وجرائمه التى سجّلها التاريخ، ولا ينبغى نسيان المليون شهيد من إخواننا الجزائريين في العصر الحديث أثناء ثورتهم على الاحتلال الفرنسي الاستيطانى[1]، وكان الفرنسيون يفخرون بتشييع جنازة الإسلام في الجزائر.

ونعود لرأى الدكتور جلال أمين الذي كان في مستهل حياته يظن أن تقليد الغرب هو طريق النهضة، أي عندما كان الغرب فى قمة نجاحه، ويحقق معدلات فى نمو مستوى المعيشة لم يعرفها أحد فى التاريخ الإنسانى كله.

ولكن منذ أوائل السبعينيات اتضح خطورة ما يحدث للبيئة، وقامت ثورة الشباب على المجتمع الاستهلاكى، وارتفعت معدّلات الجريمة والإدمان على المخدرات، وانتشرت ظاهرة العائلة المكوّنة من أطفال يرعاهم أحد الوالدين فقط، وظاهرة الإباحية فى الفن والحياة، والحركات النسوية، والدفاع عن حقوق الشواذ جنسيًا، والاعتراف بالزواج بين رجلين أو امرأتين! إلخ[2].

وعندما انعقد مؤتمر السكان والتنمية بالقاهرة فى شهر سبتمبر ١٩٩٤، وقرأ الدكتور جلال أمين الوثيقة المعروضة على المؤتمر لإقرارها، أصيب بالذهول، وعبّر عن ذلك بقوله: «وجدت كل فقرة من فقراتها تقريبًا تفوح منها رائحة حضارة معيّنة ونمط حياة معين، هو السائد الآن فى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية، وهم يريدون توقيعنا عليها وكأنها تعبير عن تفضيلاتنا نحن أيضًا.. والوثيقة تفيض بالكلام عن العلاقات الجنسية قبل الزواج وبدونه، وتعتبر ذلك من الحريات الأساسية.. والمهم هو أقصى قدر من إمتاع «الفرد» وميوله وأهوائه أيًا كانت غرائبها فى بعض الثقافات الأخرى.. وفى سبيل ذلك تضحّى بأى مقدسات دينية أو أعراف فى تلك الثقافات»[3].

(١) ومثله فى ذلك مثل الاحتلال الاستيطانى الصهيونى لأرض فلسطين، والطابع الدينى لا يخفى على أحد فى كليهما، فمن التصريحات المعلنة لأحد الفرنسيين قوله: (إن عهد الهلال قد غبر وأن عهد الصليب قد بدأ وأنه سيستمر إلى الأبد). المصدر نفسه.

(٢) نفسه ص٦، ومما يذكر أن الشيخ جاد الحق -شيخ الأزهر الأسبق- رحمه الله تعالى رفض التوقيع على قرارات المؤتمر، معلنًا أن هذا لن يكون أبدًا وهو على قيد الحياة.

(٣) نفسه ص١٢، ١٣ (د. محمد الجليند: هويتنا الإسلامية في مفترق الطرق، ص٤٧ المكتبة الأزهرية للتراث ٢٠١٢م).

هذا، وقد اتضح له أن شعارىّ التنمية والتنوير بالمعنيين الرائجين لهما بوثيقة المؤتمر تخفى فى ثناياه مسخ شخصية الأمة والتضحية بكل ما يتسم به عن غيرها، وانتقد موقف الكثير من مفكّرينا وأدبائنا وفنانينا من اتخاذهم مضمون الوثيقة دعوة إلى التنوير[1]، وقال: «إن ما يسمى بالتنوير فى بلادنا هو فى معظم الأحوال «تنوير زائف»، لأنه فى الحقيقة مسخ لشخصية الأمة وعبث بتراثها، وتضحية بلا مقابل بأغلى وأعز ما فيها.. وكذلك شعار التنمية هو فى الأساس تغريب لأنماط الإنتاج وأنماط الاستهلاك»[2].

نشأة التنوير فى أوربا وانتقاله إلى البلاد العربية:

استخدمت كلمة «التنوير» فى أوربا فى القرن الثامن عشر رافعة لواء التّسامح مع الآراء المخالفة للرأى السائد، خاصة فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية، وكذلك إعلاء شأن العلم واحترام نتائجه ضد سلطان الكنيسة (كما حدث بالنسبة لجاليليو).. إلخ، أى ما يتصل بالأحوال الثقافية والدينية فى أوربا، وكان استخدام لفظ (التنوير) لوصف مفهوم هذه الحركة يبدو ملائمًا تمامًا بالنظر إلى الواقع الأوربى «ص٢٢».

ويناقش الدكتور جلال أمين ذلك بما يراه ضرورة التمييز بين (المطلق) و(النسبى)، أى كلمة (التنوير) فى أوربا تلائم المرحلة التاريخية التى مرّت بها أوربا، بما لها من خصوصية؛ وهى لذلك تتسم بالنسبية، ولا يصح استخدامها بصفة مطلقة.

وهو محق تمامًا فى هذا الحكم؛ إذ إن الدكتور مراد هوفمان فى وصفه للتنويريين فى الغرب أكّد أن دعاته لم يكونوا ملحدين ناكرين لوجود إله، ولكنهم قصدوا بمواقفهم القضاء على سيطرة الكنيسة على معتقدات البشر وعلى نفوذ الكهنوت[3].

---

(١) ص١٦، ويبدى الدكتور جلال أمين دهشته واعتراضه على ما فعلته وسائل الإعلام المصرية قبل المؤتمر وأثناءه؛ مما يدل على عمق شعور معظم كتابنا ومثقفينا بالعار إزاء الغرب، وكان المؤتمر يعقد جلساته يوم الجمعة لمجرد أن الغرب يعتبره يومًا كبقية الأيام، مع توقفه يومى السبت والأحد لأنهما «عطلة نهاية الأسبوع» نفسه ص١٢-١٤ باختصار، ونحن نعلله بالهزيمة النفسية أمام الغرب ومرجعه إلى الجهل بتاريخ الإسلام وحضارته، وسنعرض لهذه القضية بمقالة خاصة.

(٢) ص١٧.

(٣) د. مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة -ديانة في صعود) ص٢١.

لكن حدث أنه قد استخدم نفس التعبير فى البلاد العربية بعد نحو قرن من حدوثه فى أوروبا، وقام بعض المفكرين العرب بالمناداة بشكل أو بآخر بما نادى به أنصار التنوير فى أوروبا، ابتداءً من الطهطاوى فى منتصف القرن الماضى، وحتى نصر أبو زيد فى الثمانينيات والتسعينيات من هذا القرن، مروراً بقاسم أمين ولطفى السيد وفرح أنطون وشبلى شميل وطه حسين وسلامة موسى ولويس عوض وزكى نجيب محمود وفؤاد زكريا، وآخرين غيرهم من أقرانهم وتلاميذهم[1].

وأخذ أنصار التنوير فى بلادنا التعبير عن أسفهم لتنكّر حياتنا الثقافية المعاصرة للمثل العليا التى أرساها مفكرو التنوير فى أوروبا فى القرن الثامن عشر، وأصبحت جزءاً من الضمير العالمى المعاصر، وتنبؤوا لنا بسوء المصير والضياع فى أى أمل للتقدم والتنمية إذا لم نتدارك ونمنع هذا الانحسار لحركة التنوير[2].

ويقول الدكتور جلال أمين: «والقضية مطروحة على هذا النحو، تبدو لأول وهلة أوضح من أن تحتاج إلى نقاش. . وأن ما رفع لواءه، ويرفعه، دعاة التنوير على أنه قيم مطلقة صالحة لكل زمان ومكان، وفى أى ظرف من الظروف قد لا يكون كذلك. . لقد غفل دعاة التنوير العرب فى معظم الأحيان عن هذه النسبية، وأدّت بهم الغفلة فى كثير من الأحيان إلى صور من الشطط كثيراً ما ترتب عليها ضرر جسيم، وهم يحسنون صنعاً لو تدبّروا الأمر على نحو يكشف لهم ما اتّسمت وتتّسم به حركتهم من شطط»[3].

وهذا الشطط يرجع فى رأيه إلى أمرين:

الأول: يتكلم كثيرون من دعاة التنوير عندنا، وكأنهم غافلون تمامًا عن أن تاريخ الدعوة إلى حرّية الرأى وحرية التعبير كانت دائمًا تقترن صراحة أحيانًا وضمنًا فى معظم الأحيان بالاستثناءات والتحفّظات. . حتى فولتير أكبر دعاة الحرية فى عصر التنوير كانت له مواقف استثنائية، كما تقده فيها الفيلسوف البريطانى (ألفرد إيبار)، وهى على سبيل المثال -لا الحصر- فإن فولتير فى كتابه (تاريخ الإمبراطورية الروسية

(١) د. جلال أمين (التنوير الزائف) ص٢٢.

(٢) نفسه ص٢٣.

(٣) نفسه ص٢٤.

تحت حكم بطرس الأكبر)، يحاول أن يقلل من أهمية ما ارتكبه بطرس من فظائع مدفوعًا بحماسه لدور بطرس في تحديث وتمدين روسيا . . أما المثل الصارخ فنجده في علاقة فولتير بكاترين إمبراطورة روسيا، فهو يحاول التهوين من شأن قيامها بقتل زوجها، ويكاد يكيل الثناء على دورها في تقسيم بولندا، وهو يؤيدها بحماس في حربها ضد سلطان تركيا . . وتعليل ذلك أن فولتير كان يغض النظر على الاعتداء عن الحرية وعن التعصب إذا صادف ذلك الاعتداء والتعصب هواه وميوله[1].

الثاني: غفل التنويريون عما ما ارتُكب بعد عصر فلاسفة التنوير، وما زال يُرتكب من جرائم ومن تقييد للحريات باسم الحرّية نفسها وباسم حقوق الإنسان، بينما هو معروف للجميع ابتداءً من مآسي الثورة الفرنسية وحتى الاعتداءات الأخيرة ضد شعوب العالم الثالث في مختلف أنحاء الأرض، مروراً بالفظائع الستالينية في الثلاثينيات والأربعينيات ضد أعداء الشعب، وهو اسم يطلق على المخالفين في الرأي.

وفضيحة المكارثية الأمريكية في الخمسينيات ضد الشيوعيين (وهو اسم يطلق على كل من يشتبه في ضعف ولائه للمؤسسة الأمريكية الحاكمة)، والفظائع المستمرة ضد (الأصوليين الإسلاميين)، لوصف كل من يحاول أن يتصدى للاعتداءات الإسرائيلية والأمريكية[2].

ويضيف الدكتور مراد هوفمان فظائع أخرى نقدّمها بدورنا لدعاة التنوير لعلهم يصححون نظرتهم، ويعيدون تقويم الفكرة التي تحجّرت في أذهانهم.

يقول: «فالتاريخ الحقيقي والفعلي للغرب منذ عصر التنوير، لم يكن تحقيقًا للعقل بقدر ما كان سلسلة متتالية من الفظائع والأعمال غير الإنسانية، مثل: عمالة الأطفال، وتحويل قطاعات ضخمة من المزارعين إلى عمال قطاع الصناعة، وما ترتب على ذلك من أضرار للأراضي الزراعية، و تجارة العبيد والتفرقة العنصرية، واشتعال حربين عالميتين مدمّرتين، واستخدام أسلحة كيمائية ونووية، وإرهاب تمارسه الدولة تحت شعارات أيدولوجية كالبولشفية، وكذلك نزعات كالشوفونية الفاشية، وليس آخر هذه الفظائع عمليات التطهير العرقي في وسط أوربا كما هو الحال في كرواتيا والبوسنة وصربيا[3].

(١) نفسه ص٢٩، ٣٠.

(٢) نفسه ص٣٠، ٣١.

(٣) د. مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة، ديانة في صعود) ص٢١.

أما القرن العشرون فهو المعبِّر عن حصاد عصر التنوير؛ إذ يتّضح بالدليل القاطع والبرهان البيّن أن القرن العشرين المنصرم، أكثر القرون دموية فى تاريخ البشرية بكل ما شهده من حروب عالمية مدمّرة، وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر، ومعسكرات الإبادة وعمليات التطهير العرقى، وغيرها من مآسى البشرية.

وكل هذا يشهده العالم بعد مرور ٢٥٠ عامًا على بداية عصر التنوير ومشروع الحداثة! وتتركز هذه الأعمال الوحشية المهينة للبشرية فى أوربا المتحضّرة الشديدة الزّهو والفخر بعقلانيّتها وإنسانيتها [1]! فهى إذن ليست نتاجًا للتفاعل الخلاق بين الحضارات الإنسانية كما زعمت الدكتورة الباحثة سالفة الذكر! ص٢٤.

وفى تصوّره أن الإسلام هو العلاج لإنقاذ حضارة العصر بشرط أن ينهض العالم الإسلامى، وكأنّه يستنهض همم المسلمين، فأخذ يتساءل:

ما النتائج المرتقبة فى حالة نجاح العالم الإسلامى فى أن ينهض من جديد؟ وبالتالى يكتسب قوة جاذبة فى الغرب. هل يمكن أن يصبح هذا الدّين -وهو نظرى وعقائدى بالفعل- دينًا يسود العالم؟

وهل يصبح الإسلام فى هذه الحالة العلاج والشفاء الذى سينقذ الغرب من نفسه؟ وهل سيصبح الغرب قادراً على الاعتراف بالإسلام كدواء يصلح لشفائه، دواء يساعد الغرب على تخطّى أزمته وإنقاذ حضارته [2]؟

اختلاف التصوّرات بين جيلىّ التنويريين التغريبيين:

يميّز الدكتور جلال أمين بين جيلين من التنويريين التغريبيين: الأول عاصر فترة ازدهار الحضارة الغربية، ومع اتخاذهم لها مصدر إشعاع إلا أنهم لم يبلغوا درجة التبعيّة الكاملة والغلوّ فى التقليد كما فعل الجيل الثانى.

إن الجيل الأول من الرّواد العرب كانت معرفتهم بالتراث (يقصد الإسلامى)

---

(١) د. مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة، ديانة في صعود) ص١١ ترجمة: عادل المعلم ويس إبراهيم، مكتبة الشروق ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(٢) نفسه ص١٣.

وانغماسهم فيه وتشرّبهم به في سنوات تكوينهم الأولى، وجذورهم الممتدة في تربيتهم الأصلية، أقوى وأبقى من أن تقوى رياح التغريب على اقتلاعها تمامًا، فمنها كانت درجة انبهارهم بالغرب، وكانت روحهم العربية ولغتهم العربية سليمتين تمامًا، ومهما كانت درجة تعرّضهم للتشكيك في المسلّمات الدينية، بل وحتى عندما رددوا هذه الشكوك دون وعي كامل منهم، فإن هذه المسلّمات كانت قد أصبحت جزءًا من تكوينهم النفسي والوجدانيّ والفكري؛ مما لا يسمح لهذه الشكوك بأن تتجاوز حدًّا معينًا [1].

ومع هذه الملاحظة، تأتي المناسبة لكي يعبّر الدكتور جلال أمين عن أسفه وحزنه فيقول: «فقد رفعنا شأن هؤلاء التنويريين المفرطين في التغريب فوق غيرهم، وضربنا الصفح عن فريق آخر من المثقفين والكتّاب الذين لم يكن يعوزهم العلم ولا العقلانية، ولم يكونوا بأقل تنويراً من غيرهم، ولكنهم لم يشاركوا أنصار التنوير على النمط الغربي، في معتقداتهم الغيبية الجديدة بل تمسكوا بغيبياتهم الأصلية، وهي غيبيات قومهم [2].

كان انهزام هذا الفريق من المثقفين المنتصرين للتراث ضد دعوات التنوير على النمط الغربي، خسارة حقيقية للثقافة العربية [3].

أما الجيل الثاني من قادة التنوير في العالم العربي، الذين تربّعوا على عرش الثقافة العربية في الخمسينيات والستينيات، فقد كان عذرهم أقل وذنبهم أقبح من الجيل الأول.

كان المفروض أن يظهر هذا الجيل التالي شكوكًا أكبر بكثير مما كان الجيل الأولّ على استعداد لإبدائها، حول صلاحيّة هذه الصورة من صور التغريب، وحول أهميّة الغرب لأن يكون هو القدوة التي تُحتذى دون تردد، وكان المفروض أن يكون أكثر قدرة على رؤية الحدود التي كانت تقيّد التطبيق الواقعي لمبادئ التنوير النظرية التي وقعت قبل قرنين من الزمان، وكان المفروض أن يروا مبادئ التنوير الأوربية في ضوء (أم نقول في ظلمة؟) [4] ما فعلته

(١) نفسه ص٥٠، ٥١.
(٢) يتضح من هذه العبارة أنه يقصد أصحاب التيار الإسلامي.
(٣) د. جلال أمين (التنوير الزائف) ص٤٠٩.
(٤) نفسه ص٥٢.

النازية والفاشية بالحرية، واحتياج الديمقراطية الغربية لإشعال حرب عالمية ثانية أفدح من الحرب الأولى، ويُعزَى إلقاء قنبلتين ذريتين على اليابان دون حاجة عسكرية إلى ذلك، وما فعلته الستالينية بالحرية والديمقراطية وتفسيرها الخاص للعلوم الاجتماعية، وما ألقته المكارثيّة من ضوء على مدى استعداد الغرب الحقيقي للتسامح مع الرأي المخالف، وما اتخذته حرية المرأة من صور كثيراً ما تنطوي على أشياء غير الحرّية . . . إلخ، ولكن الغالبية العظمى من التنويريين العرب لم يروْا كل ذلك، أو رأوْه وضربوا الصفح عنه، واستمرّوا يتكلمون وكأن التنوير والتغريب مترادفان.

وكان الغرب قد انقسم قسمين، وظل كذلك طوال الأربعة عقود التالية للحرب العالمية الثانية. رأسمالي واشتراكي؛ ومن ثم انقسم التنويريون العرب قسمين: تنويريون على الطريقة الرأسمالية، وتنويريون على الطريقة الماركسية [1].

أما صلة هذا الجيل الثاني من التنويريين العرب بالتراث فيختلف كثيراً عن الجيل الأوّل، فقد تعرّف معظمهم على التراث على كبر وعلى عجل [2]، يشهد بذلك مثلاً ما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود في مقدّمة كتابه «تجديد الفكر العربي»؛ إذ أعلن أنه واحد من آلاف المثقفين العرب الذين ما إن فتحت عيونهم على فكر أوربي، قديم وجديد، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأن عيونهم لم تُفتح على غيره لتراه، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام: الفكر الأوربي دراسته وهو طالب، والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ. وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة، كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين. . استيقظ صاحبنا -كاتب هذه الصفحات- بعد أن فات أوانه أو أوشك فإذا هو يحسّ الحيرة تؤرّقه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة، التي لا تزيد على السبعة أو الثمانية يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان [3].

محنة التنويريين:

ويرى الدكتور جلال أمين أن هذه لم تكن نهاية محنة التنويريين في بلادنا، وأن القصة

---

(1) نفسه ص٥٣.

(2) نفسه ص٥٥، ٥٦ .

(3) نفسه ص٥٥، ٥٦ ومصدره كتاب (تجديد الفكر العربي)-دار الشروق سنة ١٩٨٢م.

لم تنته بحلول التنوير الأمريكى/ الماركسى محل التنوير الأوربى؛ إذ يظهر أننا مع سقوط النظام الشيوعى فى أواخر الثمانينيات قد دخلنا مرحلة التنوير تناسب ما يمكن تسميته- على الأقل من وجهة نظر الغرب- **بالعصر الإسرائيلى**، ذلك أن العدوّ الجديد فى هذا العصر الجديد، ليس هو الكنيسة والغيبيات الدينية، كما كان الحال فى التنوير الأوربى، ولا هو الشيوعية والإيمان بصراع الطبقات كما كان الحال فى التنوير الأمريكى، بل هو الآن كل ما يعادى المشروع الصهيونى ويقاوم التوسع الإسرائيلى، وهو ما يسمى حاليًا بالإرهاب أو الأصولية الإسلامية؛ ومن ثمّ فالتنوير الآن هو التصدى لما يسمى بالأصولية الإسلامية لا زالت شعارات التنوير الخالدة تستخدم هى هى: حرية التعبير والتسامح مع الآخرين، والعقلانية، والعلم، والموضوعية، ولكنها لا تكاد تستخدم الآن إلا ضد من يرفعون راية الإسلام، كما أن عدداً لا يستهان به من التنويريين العرب الآن -يساندهم ويشجعهم فى ذلك كل مؤسسات الدفاع عن حقوق الإنسان فى الغرب -لا يستخدمون هذه الشعارات ضد إجراءات القمع التى تمارسها حكوماتهم، بل ويبدون صبراً مدهشًا على هذا القمع، ولا يستخدمونها ضد الدولة الكبرى المساندة لحكوماتهم والمساعدة على ممارسة القمع، بل ولا يحبذون استخدامها ضد أعمال القهر التى يمارسها الإسرائيليون ضد الفلسطينيين والعرب، ويحاولون الدفاع عما يسمى «بالتطبيع» مع إسرائيل باسم هذه الشعارات نفسها: التسامح وسعة الأفق اتّجاه الرأى المخالف، وحب السلام والعقلانية، والتخلّص من الأيدولوجيات والتحيّزات المسبقة التى تُسمّى الآن عقداً نفسية [1]. وكثيراً ما يعقد هؤلاء المقارنة بين أنواع القهر المختلفة، ويفضلون القهر الذى تمارسه الحكومات على خطر القهر الذى يمكن أن يأتى من التيار الدينى. بل وأحيانًا يعبرّون عن تفضيلهم التعامل مع إسرائيل على التعامل مع التيار الدينى وباسم مكافحة الإرهاب الدينى، يجرى الآن تمرير ما يسمى السلام مع الإسرائيليين، مع أنها هى نفسها لا تقل إرهابًا وقهراً عن أنواع الإرهاب الأخرى، كما سيتبين لنا من المقالة التالية.

---

(١) ويستدل على ذلك بالعبارة التالية التي كتبها أحد الداعين المصريين إلى التطبيع مع إسرائيل والمؤيدين لتحالف كوبنهاجن بين بعض المثقفين العرب وبعض المثقفين الإسرائيليين؛ إذ دافع على هذا التطبيع بقوله: إن الذي دفعه إلى هذا إيمانه بفلسفة التنوير الغربي القائلة «بأنه لا سلطان على العقل إلا العقل وحده» (الأهرام ١٢/ ٣/ ١٩٩٧م). د. جلال أمين (التنوير الزائف) ص٥٧.

وينتهى من كل ذلك إلى وصف قصة التنوير فى بلادنا : تبدو على هذا النحو قصة محزنة للغاية؛ إذ باسم شعارات نبيلة تم الإخضاع التدريجى لأمة نبيلة، وذلك عن طريق دسّ السّم فى العسل. ثم يقترح طريق الخلاص إنْ كانت لا تزال ثمة فسحة من الوقت-لا يكون إلا بتخليص مفهوم التنوير مما دسّ فيه، وإعطائه المضامين التى تتفتّق عنها أذهاننا نحن لمواجهة المشكلات التى نقوم نحن بتشخيصها، وصولاً لأهداف نقوم نحن بتحديدها[1].

الإرهاب والقهر مجسدان فى:

الاستعمار الاستيطانى الصهيونى لأرض فلسطين:

لن نعود بذاكرتنا إلى مأساة هزيمة عام ١٩٤٨ التى يحمل عارها حكام العرب بسبب الفُرقة وحرصهم على إرضاء اليهود، فإنّ الأردن لم يكن لديها النيّة فى الاستمرار فى القتال، وبدأت فى إجراءات تمهيدية وسرية مع الجانب اليهودى لعقد هدنة بين الطرفين، وقام نورى السعيد بسحب الجيش العراقى من فلسطين فى مارس ١٩٤٩ بحجّة عقد الأردن الهدنة مع إسرائيل.. وكانت مصر قد سبقت الأردن فى عقد هدنة دائمة مع إسرائيل فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٩، بعد امتناع الجيشيْن الأردنى والعراقى إلى مدّ يد المساعدة له عند حصار (الفالوجا).

ومنذ البداية كانت الأهداف السياسيّة للدول المشاركة فى الحرب غير موحّدة، وترك كل قوّة تخوض معاركها وحدها، وأخذ كل جيش من الجيوش العربية التى دخلت فى فلسطين فى ١٥ من مايو سنة ١٩٤٨ يقاتل فوق أرض فلسطين لحسابه الخاص.

وخلال حرب فلسطين لم ينسِ العرب خلافاتهم وانقساماتهم وتنافسهم، مثال ذلك أن الملك عبدالله كان مهتماً بإبعاد الهيئة العربية العليا لئلا تعلن قيام حكومة فلسطين، فتفسد خطته فى ضم الأجزاء المتبقية فى فلسطين إلى مملكته الصغيرة[2]!

باختصار جاءت حرب فلسطين ١٩٤٨ لتجسّد العجز والضعف الذى كان يعانيه الواقع العربى[3].

---

(١) نفسه ص٥٨.

(٢) عصام القريب (عبد الرحمن عزام «الإسلام -العروبة - الوطنية») ص٣٢١، ٣٢٠ باختصار، ط دار الكتب والوثائق القومية -مصر ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

(٣) نفسه ص٣٢٣.

هذا، وقد أتت كارثة هزيمة سنة ٦٧ لتذكّرنا بنكبة فلسطين، مثال ذلك: ما أورده الدكتور زكى نجيب محمود فى بضعة أسطر من خطاب قارئة قالت فيه: «إننى واحدة ممن يوصفون بأنهم «جيل الثورة»، صحوت من أحلامى الجميلة الرومانسية على هزيمة ١٩٦٧، لأجد أن كل ما عشت فيه وآمنت به، إنما كان سرابًا وأوهامًا، لأجد حقيقة فاجعة تنتظرنى بواقعها الأليم، وذلك أنى رأيت أمة ممزقة بالهزيمة»[1].

وهو يشاركها الرأى إذ يصف هزيمة ١٩٦٧ بأنها زعزعت فينا الثقة فى النفس، معللاً الصحوة الدينية بأنها استمدت قوتها من تلك الهزيمة، ويقول: إنه لا مراء فى أن إحياء الروح الدينى وقيم الأسلاف ضرورة لا غنى عنها فى ترسيخ الشعور القومى وتثبيت الهويّة الخاصة بنا[2].

ولئن كانت هزيمة سنة ١٩٦٧ قد أحدثت خيبة الأمل والتمزق فضلاً عن الإحساس بالخزى والعار فى البلاد العربية والإسلامية، فقد كان لها دور فعال فى إسرائيل؛ إذ أنعشت الروح الدينية؛ حيث أسفرت عن انحسار العلمانية أمام المدّ الدينى (وبدأ خطاب دينى جديد يعزو الانتصار إلى «المعجزة الإلهية» التى ساندت «شعب الله المختار»)[3].

أما عن أثر هزيمة يوليو على أهل مصر، فلنترك التعبير عنها للدكتور أحمد هيكل الوزير الأسبق للثقافة؛ حيث كتب يقول: «... فاهتز فى داخلى ومن حولى كل شىء، وتحطمت أحلام كبار وتهاوت رموز عظام، واستشعرت مرارة لا أبالغ إذا قلت: إن آثارها ما زالت فى حلقى إلى اليوم (سنة ١٩٩٧). وأصاب بصرى مرض غامت معه عينى اليمنى، وعرفت فيما بعد أنه التهاب بعصب الإبصار فى هذه العين خلّف بها ضعفًا شديدًا ما زال يلازمنى إلى اليوم... وفى

(١) د. زكى نجيب محمود (رؤية إسلامية)، ص١٣٧ مكتبة الأسرة بمصر سنة ١٩٩٥م.

(٢) نفسه ص١١٩.

(٣) د. رشاد الشامى (القوى الدينية فى إسرائيل) ص٧ سلسلة (عالم المعرفة بالكويت) ذو الحجة سنة ١٤١٤هـ- يونيو ١٩٩٤).

اعتقادى أن هذا الذى أصابنى كان من آثار صدمتى الرهيبة بما حدث لمصر من نكسة، فلم يثبت طبيًا أنى كنت أعانى من أى مرض عضوى يمكن أن يفضى إلى الالتهاب الخطير لعصب الإبصار»[1].

هذا، وقد رصد الدكتور رشاد الشامى بكتابه (نشاط الأحزاب الدينية فى إسرائيل)؛ حيث تبيّن له أن إحدى النتائج المؤكدة للانقلاب الذى حدث فى انتخابات ١٩٧٧، أن أصبح فى إمكان الأحزاب الدينية حسم من يشكّل حكومة إسرائيل ومن يرأسها، وكان ذلك بمثابة سابقة فريدة من نوعها لم تحدث من قبل فى تاريخ الحياة السياسية فى إسرائيل، بأن تصبح للأحزاب الدينية مثل هذه القوة؛ حيث استخلص نتيجة كبرى تتمثل فى أن تلك الأحزاب منذ انتخابات ١٩٧٧ انتقلت من مرحلة «فن المساومة» إلى مرحلة «الابتزاز» الصريح والعلنى للحزب الحاكم؛ من أجل تحقيق مطالبها فى فرض الشريعة اليهودية على المجتمع الإسرائيلى التى تعيش فيه أغلبية علمانية[2].

وهذا ما يؤكّد أن إسرائيل قامت على نسيج الدين فهو لحمتها وسداها، ويؤيدها النصارى البروتستانت بإنجلترا وأمريكا؛ حيث يعتنقون الصهيونية ويفتخرون بأنهم صهاينة، وينطلقون فى ذلك من أن الإنجيل هو امتداد للتوراة، وأن إعادة بناء الهيكل سيعجل بمجىء عيسى ابن مريم للمرة الثانية.

ويقول الدكتور عبد العزيز مصطفى كامل: «فهناك الكثير من الشخصيات البارزة المعاصرة صهيونيون وإن لم يكونوا يهودًا من هؤلاء: بلفور وتشرشل وإيدن وترومان

---

(١) د. أحمد هيكل (سنوات وذكريات – سيرة ذاتية) ص١١٦، ط١ الهيئة المصرية للكتاب سنة١٩٩٧م، وكان عميدًا وأستاذًا بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة، وهذه الواقعة عن أثر الحزن الشديد تذكّرنا لما حدث ليعقوب عليه السلام بسبب حزنه على ابنه يوسف عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، والله أعلم.

(٢) نفسه ص٢٢٢، والدكتور الشامى أستاذ ورئيس قسم اللغة العبرية وآدابها بكلية الآداب –جامعة عين شمس.

وإيزنهاور وكينيدى وجونسون، وكارتر وريجان وبوش وكلينتون، كل هؤلاء تُبدى ممارستهم السياسية ما تكشف عن انتمائهم إلى المذهب الصهيونى السياسى [1].

ولمّا كان النصارى البروتستانت يشاركون اليهود فى قسم كبير من معتقداتهم، فإنهم يدفعون اليهود دفعًا إلى أن يكونوا أداة لتحقيق أحلامهم هم، ومساندتهم فى المساعى الرامية إلى هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل الثالث [2].

وخلاصة القضية أن هناك البعض من المثّبطين للهمم من يرى أننا أمام أمر واقع شديد التعقيد ويصعب مقاومته؛ ومن ثمّ قبوله والتكيّف معه.

وهذه الرؤية الدالة على الهزيمة النفسية تتّسم بالقصور الشديد مع الجهل بالتاريخ، وبعض وقائعه التى تدحض هذه الروح الانهزامية تمامًا؛ إذ تدلنا فلسفة التاريخ المستقاة من وقائعه أنه لا يتسنّى لدولة الاستقرار على أساس قمع عسكرى؛ ذلك أن الدولة العسكرية يؤدّى بها السلام إلى أن يفقد الجندى صلابته، كذلك فإن إسرائيل تدرك ذلك تمامًا وتسعى بكل جهدها إلى التطبيع، ومما يساعدها على ذلك تخاذل الطرف الآخر فى التمسك بحقوقه؛ ومن ثمّ فهى ترغب فى الحصول على أكبر قدر من الغنائم والامتيازات.

ولكن المتوقع فى ضوء هذا التقويم، أن مصير الصهيونية لا يزيد على مصير المستعمرات الصليبية التى تشكّلت فى بلاد الشام فى العصر الوسيط، كلاهما قام على مقولات خاطئة، وكلاهما لا بد أن يلقى نفس المصير [3].

ومما يعزّز ذلك أيضًا أن (الاستعمار) أيًّا كانت الصيغ التى يعتمدها لن يكون - مهما طال به الأمد- بأكثر من ظاهرة مرضية موقوتة لن تقدر على مدّ جذورها فى الأرض.. إنه أشبه بالجسم الغريب الذى يزرع فى كيان غير متجانس مع مكوناته وعناصره.

---

(1) د. عبد العزيز مصطفى كامل (قبل الكارثة: نذير ونفير) ص١٦٧، كتاب المنتدى الإسلامى - لندن ط٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(2) نفسه ص٢٩٤.

(3) د. أحمد صبحى ود. صفاء جعفر (فى فلسفة الحضارة) ص٢٦٤، دار الوفاء بالإسكندرية سنة ٢٠٠٦م.

إن الأجسام الغريبة محكوم عليها بالطرد، ولن تكون الأرض التى تسطو عليها وطنًا لها فى يوم من الأيام، تلك هى حتمية التاريخ.

والقرآن الكريم يقولها بوضوح: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ فليس ثمّة أمة أو جماعة أو دولة أو قوة فى الأرض بقادرة على تجاوز حتمية التاريخ [(1)].

وبعد، فإن هذا الموقف المدّعم بالأدلة يسكّن آلام النفس بسبب الهزيمة المروعّة عام ١٩٦٧، ويعبّر عن الموقف الذى يجب على الأمة اتخاذه لإنقاذ فلسطين عامة، والقدس خاصّة من براثن الصهاينة.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى: «لقد آن الأوان لتجميع الأمة من شرق العالم وغربه.. من شمال العالم إلى جنوبه، بغض النّظر عن الجنسيات واللغات والثقافات- على الحمّية الدينية لنُصرة المسجد الأقصى الأسير» [(2)].

ومما ينبغى التنبيه إليه وقرع ناقوس الخطر بشدة عنه أن إسرائيل تخوض معركة جديدة ضد العرب والمسلمين، معركة فاصلة اختارت مكانها وزمانها. عنوانها - المسجد الأقصى- فقوّاتها المسلحة اقتحمت مسجد قبة الصخرة، ووجدت هناك النساء قبل الرجال وهن يدافعن عنه..

وإسرائيل حسب محلّليها الإستراتيجيين وأجهزة مخابراتها، ترى أن اللحظة الحالية فرصة سانحة للانقضاض على رمز العرب والمسلمين، وأن اختيار المسجد الأقصى «بالون اختبار» عظيم لبسط نفوذها العملى فى الشرق الأوسط، فأولى القبلتين وثالث الحرمين مُهدّد بالاحتلال والتهديد...

وينصح أحد الخبراء الإسرائيليين قادة الجيش والدولة: العبرية بضرورة انتهاز الفرصة السانحة والانقضاض على ما تبقّى من فلسطين، أولاً الضفة الغربية تذهب إلى الأردن

(١) د. عماد الدين خليل (هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى) ص٣٦ مكتبة النور - مصر الجديدة ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

(٢) مجلة «الوعى الإسلامى» - الكويت العدد ٤١٨، أغسطس/ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م، ص٣٢.

أى ما تبقى منها تحت سلطة أبو مازن الهشّة، وثانيًا ضم غزّة إلى مصر للتخلّص من صداعها[1].

نقد دعاة التنوير العربي:

يوجّه الدكتور جلال أمين نقده لدعاة التنوير العربي فى أمرين:

الأمر الأول:

ليس التعصّب الدينى كما يظنّون يعبّر وحده على الصورة الوحيدة للتعصب الذميم.. كذلك فإن الإيمان بالمعتقدات الدينية ليس بأية حال النوع الوحيد من الإيمان الذى يمكن أن يفسد العلم، ويؤدى إلى الخروج من قواعد المنطق والمنهج العلمى والموضوعية.. ومن ثمّ فإن اعتبار الدعوة إلى تحكيم العقل والبعد عن التعصب وكأنها لا تعنى إلا التخلص من التعصب الدينى، وكأن تخلص المرء من عقيدته الدينية هو وحده كاف لانتصار العلم والموضوعية، هذا الموقف يتعين رفضه وإظهار زيفه[2].

الأمر الثانى:

إن من الخطأ الظن بأن الإيمان بالغيب والعقيدة الدينية بوجه عام يؤدى بالضرورة إلى التعصب والتطرف، وهو أحد المواقف الشائعة الآن فى حياتنا الثقافية العربية المعاصرة، وهو الموقف الذى يتّخذ لنفسه من (التنوير) شعاراً، ويقصد بالضبط: الهجوم على الموقف الدينى وكأنه المصدر الوحيد الممكن للتعصب الذميم أو الخطر الوحيد الذى يهدد التقدّم العلمى.

ويقرّر الدكتور جلال أمين أن التعصب الذميم المفجّر لجميع أنواع الفظائع والمآسى له أمثلة فى التاريخ العلمانى لا يقل عدداً ولا قسوة عما نجد له أمثلة فى التاريخ الدينى، ويكفى أن نذكر القارئ بأمثلة التعصب والقسوة التى ارتبطت بتاريخ الثورة الفرنسية، المدينة بأفكارها إلى حركة التنوير نفسها، وتاريخ الحركات الاشتراكية والماركسية وتاريخ الحركات القومية، وما فعله الأوربيون فى مستعمراتهم باسم المدنية، وما شهده

(١) المقالة الافتتاحية بعنوان (الأقصى.. المعركة الأخيرة) مجلة (الأهرام العربى)، ٣ مارس سنة ٢٠١٢م.
(٢) نفسه ص٣٤.

القرن العشرون من حروب باسم الديمقراطية (كالعراق وأفغانستان)، وما شهدته السنوات القليلة الماضية ضد مسلمي البوسنة والشيشان وفلسطين.

كذلك فإن الإيمان بالغيب ليس قاصراً على العقيدة الدينية، فمعتقدات العلمانى مليئة بالغيبيات، كالإيمان بحتمية التقدم، هذا الإيمان الذى اقترن بفكر التنوير منذ البداية، والإيمان بأن من الممكن للإنسان الوصول إلى الكمال، وبأن العلم سيكشف للإنسان كل ما كان مجهولاً، ويحقق له السيطرة التامة على الطبيعة . . أو بأن انتصار الاشتراكية حتمى، أو بأن الرأسمالية هى أفضل النظم . . أو بأنها نهاية التاريخ . . إلى آخر تلك القائمة التى لا آخر لها لغيبيات الفكر العلمانى [١].

وهناك صور أخرى من التعصب العلمانى، كتعصب الماركسية فى الاتحاد السوفيتى والدول الخاضعة لها من تحريم الاعتقاد بما يتعارض مع مسلّمات المادية الجدلية . . وما فعلته القومية النازية ضد أى فكر يتعارض مع فكرة تفوّق الشعوب الآرية، وموقف وسائل الإعلام الأمريكية من كل من يحاول التشكيك فى أفضلية النظام السياسى والاقتصادى الأمريكى، ونمط الحياة الأمريكية على غيره من النظم وأنماط الحياة [٢].

تعقيب:

ولكن هنا لنا وقفة للتعليق على قضية الغيبيات فى تصوّر الدكتور جلال أمين؛ لأن الفارق شاسع بين التصوّرات العلمانية عن حتمية التقدم، وإمكان وصول الإنسان إلى الكمال وحتمية انتصار الاشتراكية أو مسلمات المادية الجدلية . . إلخ . . الفرق شاسع بل لا مقارنة أصلاً بينها وبين المؤمنين بالغيب الذى تنص عليه الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا

(١) نفسه ص٣٦.

(٢) نفسه ص٣٧.

تعملون ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ [يونس: ٢٠]. فالغيب فيما ورد من هذه الآيات وغيرها معناه «هو كل ما غاب عنا، وأخبرنا الله ورسوله ﷺ به، كالملائكة، والجن، والبعث، ويوم القيامة وغير ذلك» (١).

وكان الماديون يتعجبون ممن يؤمنون بالغيب في عصر الذرة والمعمل وأنبوبة الاختبار، ثم أثبت العلماء أن ما يغيب عنا في عالم الدنيا لا تدرى كنهه، كالكهرباء مثلاً فهي شيء مجهول لم ندرك كنهه فهي غيب، وكذلك المغناطيسية.. «وعن سر الخليّة لغز الحياة راح العلماء يفرضون فروضاً: إن الخلية تتكون من فيروسات، وهذه مواد كيماوية معقدة، ثم يتحدثون عن الجسيمات الفيروسية التي ينبغي أن تعتبر كجزئيات عادية، وفي الوقت نفسه ككائنات حية، فهي بذلك تمثل «الحلقة المفقودة» بين المادة الحية والمادة غير الحية، ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام فروض وحلقات مفقودة ولغز لا يعرف العلماء حله، نجد أنفسنا أمام الغيب» (٢).

كذلك المادة، «كشف العلم الحديث عن طبيعة المادة الصلبة، بوصفها مجرد أثير في رتبة اهتزاز معيّنة.. وأنها ليست أكثر من طاقة محبوسة (أي لم تعد المادة حقيقة، بل صارت غيباً لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب.. وأصبح الماديون من المؤمنين بالغيب، وإن كانوا يدرون أو لا يدرون!)» (٣).

ومن ملاحظات الدكتور جلال أمين على التنويريين العرب أيضاً إصرارهم (أن الغرب على صواب)، وضعف قدرتهم على التمييز بين ما هو إنساني في إنجازات الغرب، وما هو خاص وعارض. ومن أسباب ذلك وقوف المؤسسة الحاكمة والمسيطرة

(١) الشيخ عبد الجليل عيسى (المصحف الميسر) ص٣، ط٥، دار الشروق ١٣٩١هـ.

(٢) عبد الحميد جودة السحار (أضواء على السيرة النبوية ومقارنة بين الأديان)، ص٦٠٧ مكتبة مصر بالفجالة سنة ١٩٦٥م.

ويأتي بأمثلة أخرى: كالذرة التي كانت أصغر وحدة للوجود ثم حطمها العمل إلى وحدات أولية، هي النويات والإلكترونات والنيوترينيات.. والضوء الذي يتكون من تموجات تنتقل في الأثير.

(٣) نفسه ص١٩٠.

على قنوات التعليم والثقافة العامة إلى جانب «التنويريين»، ناهيك عن وقوف الغربيين أيضًا إلى جانبهم، وإصدار حكمهم بأن هؤلاء هم القادة الحقيقيون للفكر العربي الحديث، والمنوط بهم تقدم شعوبهم ورفاهيتها [١]!

كذلك عاتبهم على التقليد الحرفي والتحيّزات الغربية، فقلّد التنويريون العرب البرجوازيين في الغرب، فصادقوا ما صادقوه، وعادوا ما عادوه. عادوا الدين أو استهانوا به، بينما لم يكن هذا ضروريًّا بالمرّة لتنويرنا نحن وتقدمنا السياسي أو التكنولوجي أو العلمي.

ومن أوجه النقد الذي وجهها إليهم أيضًا أنهم يمارسون الآن في حياتنا الثقافية العربية المعاصرة نوعًا من القهر، ومحاولات لكبت أي رأي يخالف هذا التقديس الشائع للعلم، يماثل ما كانت تمارسه الكنيسة في أوربا في العصور الوسطى، كما شاع مؤخرًا إضفاء نوع من القدسية على أعمال فنية، ويُطلق عليها وصف «الإبداع»، حتى إن كانت خالية من أي قيمة فنيّة تُذكر، ودافع أنصار «التنوير» عن أصحاب هذه الأعمال وإن تضمّنت عبارات غاية في البذاءة ضد الدين.. وكأننا بصدد نص مقدس من النصوص الدينية، وليس بصدد رواية تافهة كتبها شخص خال من الموهبة [٢]!

أضف إلى ذلك موقفهم المزري من مؤتمر الأسرة؛ إذ لم يفطنوا إلى حقيقة أهدافه النهائية، فإنه يعبّر عن مقدمات خبيثة «لإعادة صياغة جميع القيم الاجتماعية صياغة جديدة، تُمسح فيها الهوية الإسلامية، وتنتزع فيها الكرامة الإنسانية، وتصبح فيها المرأة المسلمة مجرد ألعوبة تافهة، ودُمية هزيلة، يعبث بها رؤوس الفساد ودعاة المنكر» [٣].

---

(١) نفسه ص٤٩.

(٢) نفسه ص٤٧.

(٣) أحمد بن عبد الرحمن الصويان، مقال بعنوان (تسويق الشيعية)، ص٥٦ مجلة (البيان) المحرم ١٤٢٥هـ، مارس ٢٠٠٤م.

أى إنهم يريدون أن يقنعونا بأن التحديث والتطوير الذى يتطلع إليه الجميع قرين التغريب الثقافى والاجتماعى.

ويتلخّص المأزق الذى يتساقطون فيه أنهم لا يملكون مشروعًا حضاريًا جادًا لنهضة الأمة كما يزعمون، وإنما غاية ما يملكون أنهم يريدون أن يزجّوا بالأمة فى المستنقع الغربى الآسن، ليكون أبناؤها عبيدًا يتمرغون تحت أعقابهم، ويجترّون بكل بلاهة قيمهم المادية والاجتماعية، حلوها ومرّها.. خيرها وشرّها[1].

ظاهرة «تصغير الكبراء»:

تابع الدكتور جلال أمين هذه الظاهرة كعالم اجتماع أيضًا مع كونه عالم اقتصاد، تابع فى العقدين الأخيرين عدد الكتابات المنشورة فى مصر التى تتناول بعضًا من أغلى المقدّسات لدى المصريين بأقل قدر من الاحترام الواجب لها، ورآها زادت عن الحد وأصبحت ظاهرة مؤسفة، كما أنها مدهشة وداعية للتأمل، ناهيك أنها تمثل جزءًا من حركة «التنوير» فى الثقافة المصرية.

وعند تأمّلها ودراسة دوافعها قال: «هذه الظاهرة التى أقترح تسميتها «ظاهرة تصغير الكبراء»، وليس لها فى رأيى -أى نسب بعملية التنوير- إذا أعطينا كلمة التنوير معنى يتفق حقًا مع هذه الكلمة المضيئة والمنيرة، ولا أجد أى سبب للشعور باحترام خاص لكاتب يجعل كل همّه إبراز نقائص شخصية تاريخية عظيمة، اتفق الناس على حبها واحترامها»[2].

ومن ملاحظاته على هذه الظاهرة التى زادت فى العشرين سنة الأخيرة فى مصر لم تكون موجودة بنفس الدرجة -على الإطلاق- فى الثلاثين سنة السابقة عليها -أى خلال العقود الثلاثة التالية للحرب العالمية الثانية (١٩٤٥-١٩٧٥)، ولكنها كانت

(١) نفسه ص٥٧.

(٢) د. جلال أمين، مقال بعنوان (تصغير الكبراء) مجلة (المنار الجديد بمصر) أبريل ١٩٩٨م، ذو الحجة ١٤١٨هـ ص٧٦.

موجودة بدرجة ملحوظة في العشرينيات من القرن الماضي، وهي الفترة التي نشر فيها طه حسين كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي)[1]، والذي أبدى فيه طه حسين تجرؤاً غير مألوف على بعض المقدّسات، وتحمّس له كثيرون من مثقفي ذلك الزمان، ولكن المدهش أن هذا الحماس لكتاب طه حسين قد ضمر بشدة لبضع عشرات من السنين بما في ذلك حماس مؤلف الكتاب نفسه للكتاب! ثم أثيرت القضية من جديد، وأعيد طبع الكتاب، وعبّر عدد من المثقفين عن حماسهم الشديد له في الأونة الأخيرة، واعتبر الكتّاب الجدد المنتمون لطائفة «تصغير الكبراء» اعتبروا أنفسهم الامتداد الطبيعي لما بدأه طه حسين، مع أن الأمر لا يزيد عن كونه تعبيراً عن مناخ اجتماعي معين، خلقه الحراك الاجتماعي السريع خلقاً[2].

أما عن الدوافع فمن منظور التحليل النفسي يرى الدكتور جلال أمين أن إدراج أعمال هؤلاء تحت شعار التنوير، من شأنه أن يجعل أسماءهم تُذكر مع أسماء لها لدى معظم المثقفين المصريين سحر خاص، فضلاً عن أنه يضمن لهم احتفال وسائل الإعلام الغربية بهم، وقد يعني هذا شُهرة عالمية، أو على الأقل تلقّي الدعوات بصفة منظمة لحضور المؤتمرات التي تُعقد في بلاد ذات أسماء ساحرة بدورها، لمناقشة آخر ما يحدث من تطورات في بلادنا التعسة[3].

ويمضي فيحلّل نوازعهم وأغراضهم الدنيئة، ويرى أنها تكشف أنهم يعانون من عقد نفسية تكوّنت في الصِّغر تدفعهم دفعًا إلى تحقير من هم أفضل منهم، فلا يستريحون إلا بالحطّ من شأن العظماء حتى يصيروا متساوين بهم، ويتحرّقون رغبةً في

(١) تحوّل طه حسين من أفكاره وعاد إلى الصواب كما صرّح بذلك للشيخ محمود شاكر. ويقول الشيخ محمد الغزالي... ثم أخذ يتعطف نحو الإسلام، وقد اعتمر وزار المسجد النبويّ، وقال لي الصديق الأستاذ محمد فتحي إنه كان معه على حافة (قبر الطهور)، قال: وكنت أمسك بذراعه وكان بدنه ينتفض بقوة! كتابه (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) ص٨٦ ط الشروق ١٩٨٣م.

(٢) نفسه ص٧٨، ٧٩.

(٣) نفسه ص٧٨، ٧٩ ويصف هذه الظاهرة أيضاً بأنها الميل المرضي إلى تصغير الكبراء!

لفت الأنظار إليهم، ولو بإثارة غضب الناس وحنقهم، وطمعًا في الشهرة ولو كانت الشهرة بأسوأ الأشياء، فهم لا يستريحون إلا إذا وجدوا أسماءهم على كل لسان، وما الذي يضمن لهم ذلك بأسرع من هذا الطريق، طريق تصغير الكبراء[1]؟!

ونضيف إلى ذلك ما لاحظه الدكتور عبد الوهاب المسيري في فترة انضمامه للحزب الشيوعي؛ إذ اكتشف أن سلوكهم الشخصي كان مناقضًا مع أي نوع من أنواع المثاليات الدينية أو الإنسانية، وأن كمية «النرجسية» عند بعضهم كانت ضخمة للغاية، وأن ماركسية بعضهم كانت تنبع من حقد طبقي أعمى، وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل في الأرض[2].

ويبدو أنه مع شدة اهتمام د. جلال أمين بهذه الظاهرة الغريبة، أخذ ينقّب في الكثير من المصادر، ووجد بُغيته عند الأمير شكيب أرسلان؛ حيث اكتشف أنه يشاركه الرأي في الدوافع النفسية وراءها، فنقل ذلك بالنص، قال: «هذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه، وميله إلى القول بأن آباءه كانوا سافلين، فإنه لا يصدر إلا عن القاشل الخسيس الوضيع النفس، أو عن الذي يشعر بأنه في وسط قومه دنيء الأصل، فيسعى هو في إنكار أصل أمته بأسرها؛ لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس، ليس له نصيب من تلك الأصالة، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبيعيًّا للاحتفاظ بمقوماتها وشخصياتها، من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب ومسكن وغير ذلك، إلا ما ثبت ضرره»[3].

●●●

(۳) نفسه ص، ۷۷.

(۲) د. عبد الوهاب المسيري (رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر) ص۱۸۱، منشور ضمن كتاب بعنوان (ثلاثون كتابًا في كتاب) بقلم بدر محمد بدر، إصدار سطور الجديدة بالقاهرة سنة ۲۰۰۹م.

(۳) مصدره كتاب شكيب أرسلان: (لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟) (۱۹۳۰) منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ۱۹۷٥، ص۸۸.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه . .

نبذة تاريخية عن فكرة الدولة الحديثة التى يتشبث بها العلمانيون

إن أصل فكرة الدولة الحديثة كانت من وضع (كرومر) طاغية الاستعمار الإنجليزى فى مصر، وقد قضى وقتًا طويلاً فى الهند ألمّ فيه بأحوال المسلمين فى آسيا، ثم انتقل إلى قلب إفريقيا ليشجّع منظمات التبشير والإرساليات على التغلغل فى بيئات إسلامية ظلت أمداً طويلاً بعيداً عن وباء التبشير.

وكان يحمل الحقد للإسلام زاعمًا أنه عدو للحضارة الإنسانية . . ومن اقتراحاته توجيه نفر من شباب المسلمين إلى إنجلترا ليمارسوا المدنية الإنجليزية ممارسة تجعلهم ينقمون على كل أثر للإسلام فى الشرق، ثم يعودون ليتبوءوا كبار المناصب عاملين على إطفاء المشاعل المتوهجة فى دينهم الخالد.

ويتلخص مخطّطه فى مهاجمة القرآن الكريم، وإثارة عوامل الفُرقة بين المسلمين، بإحياء القومية بين المصريين والسوريين والعراقيين وأهل الغرب، مع العمل على إبعاد اللغة العربية الفصحى.

وظلّ طيلة خمسة وعشرين عامًا يتعهّد تنفيذ مخططه الإجرامى، وسط تأييد وتهليل المأجورين بترويجه فى صحف الاستعمار، وبخاصة (المقطم) و(الجريدة) صحيفة حزب الأمة.

ولم يكتف بذلك، حتى أصدر كتابه عن (مصر الحديثة) فى خاتمة عهده؛ ليكون دستوراً لخلفائه من بعده [1]. وكان كرومر يمسك بدقّة السياسة المصرية من وراء الستار،

(١) د. محمد رجب البيومى (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين) حـ١، ص١٦، ١٥ دار القلم دمشق- الدار الشامية- بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥م. م. هذا، وقد تكفل بالرد عليه الكثيرون، منهم الأستاذ محمد فريد وجدى على أساس علمى بعيد عن الهاترة والتشنج المفتعل لهذا الاستعمارى الكذوب الحاقد على الإسلام وأهله.

فهو الذى أوحى بنشأة (حزب الأمة) ليدعو إلى التعاون مع الإنجليز ويعارض الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل في مطالبته بالجلاء وإصراره على مبدأ (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء) كما كان حزب الأمة متماشياً مع سياسة الإنجليز مع نشر الدعوة بقوة إلى إضعاف الخلافة ومهاجمة تركيا. . وعندما نشبت الحرب بين تركيا وإيطاليا لعدوانها على ليبيا، نشر لطفى السيد مقالات فى صحيفة الحزب (الجريدة) معارضاً التبرّع والتطوّع للقتال فى صف الجيش التركي؛ مما أغضب الشعب ضده حتى اضطر إلى مغادرة القاهرة فراراً من سخط الرأى العام، وسيتضح فى مقالة قادمة كيف دافع عن على عبد الرازق بكتابه (الإسلام وأصول الحكم). . يقول الدكتور الرّيس: (قد ثبت لنا التطابق بين آراء واتجاهات على عبدالرازق واتجاهات فيلسوف حزب الأمة أحمد لطفى السيد ومبادئ حزب الأمة وأغراضه السياسة الإنجليزية الاستعمارية -تمام التطابق. . وهى تساعد الإنجليز على تحقيق غاياتهم، فالإنجليز من قديم الزمان كانوا يبغون القضاء على وحدة المسلمين، وتفكيك الروابط بينهم حتى يسهل للاستعمار التهام الأفكار واحداً بعد آخر)[1].

ومبدأ الدولة الحديثة هو نقل كل حديث عن الغرب بأسرع ما يمكن لتعويض (التخلف)، وهى أصلاً نظرية المستعمر الإنجليزى، سواء فى الهند أو فى مصر أو فى أستراليا أو فى كندا أو فى السودان.

يقول د. فهمى الشناوى: «ولكن خطر هذه النظرية أنها فى الشرق الأوسط اصطدمت برجل الدين الإسلامى واعتبرته رجعيًّا يعوق قيام الدولة الحديثة. . ومن كلمات كرومر فى كتابه «مصر الحديثة» يتحدث عما سماه «الإسلام المستنير» فهو جزء من الدولة الحديثة:

«ومن مقتضيات مبدأ الدولة الحديثة إلغاء الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية حتى يمنع رجال الدين من مصدر التمويل، ومن مكانة القضاء بين الناس. . بل ذهب

(١) د. محمد ضياء الدين الريس (الإسلام والخلافة فى العصر الحديث. . نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم) ص١٣٦ ط منشورات العصر الحديث- بيروت ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

كرومر فى إنشاء الإسلام المستنير، إلى درجة أنه هو الذى أسّس مدرسة القضاء الشرعى، واختار برامجها بنفسه، وكان غرض كرومر الأساسى هو إزاحة الأزهر (الرجعى) ورجاله (الرجعيين)...»[1].

وكان هذا التيار المستنير قد اخترق عقول العلمانيين والتغريبيين، ومع ذلك فإن كرومر تبرأ منهم؛ إذ وصف متاصرى المدنية الغربية بقوله: «إنهم مسلمون وليس فيهم خواص الإسلام، وأوربيون وليس فيهم خواص أوربية»[2].

ويشاركه فى العداء للإسلام والمسلمين بعض مشاهير الإنجليز أمثال جلادستون القائل بوجوب إعدام القرآن وتطهير أوربا من المسلمين، وقول سالبرى أيضًا: «بوجوب إعادة ما أخذه الهلال من الصليب للصليب دون العكس»[3]، أما عن الاستعمار الفرنسى، فالمخطّط الذى نفّذه كرومر بمصر هو نفسه الذى طُبّق فى المغرب العربى بواسطة المارشال ليوتى، بحيث عدّه الفرنسيون منشئ (المغرب الحديث)، فقد ساعد على شب النزاع بين العرب والبربر.

وكان من الطامة: أن تكثر البعثات التعليمية إلى فرنسا بالذات ليرجع منها بعض الوافدين وقد حملوا جراثيم التبشير، ومعاول الهدم، ولهم من ألقابهم العلمية ما يهيّئ لهم مكان القيادة فى دنيا المدارس والجامعة والتأليف والصحافة والنشر لمكافحة الفكرة الإسلامية[4]. هذا وقد جمع ذلك كله المستشرق الفرنسى هنرى لاوست، الذى رفع النقاب عن مخطط الاستعمار الأوربى لمحاربة الاتجاه السنى، ووسائل إغراء المبتعثين للغرب، وتشجيع الأفكار العلمانية فقال:

---

(١) د. فهمي الشناوى مقال بعنوان «الناصرية وثنية سياسية»، ص٨٨ مجلة (المختار الإسلامى) العدد ٢٢١، المحرم ١٤٢٢هـ - أبريل سنة ٢٠٠١م.

(٢) أحمد أمين (يوم الإسلام) ص١٥٩ دار الكتاب العرب - بيروت فبراير سنة ١٩٥٢.

(٣) نفسه ص١١٢.

(٤) د. رجب البيومى (النهضة الإسلامية) جـ١، ص١٧، ١٨.

«كان هناك التهديد الدائم والقائم على تواطؤ الإمبريالية الأوربية مع المذاهب المنحلّة ضد الاتجاه السنّى الصحيح. . ولكن الاستعمار الأوربى لم يخطر على باله أن يحدث إحياء للعلوم الفقهية لدى «العلماء»، وأن يعاد تجمع القوى المعنوية الإسلامية، وهو الذى لديه المهارة فى أن يجذب إلى صفه أو يقضى على وحدة أية نخبة تنجح بصعوبة فى أن تعيد تجمعها، وذلك بصرفها عن رسالتها الاجتماعية مقابل مزايا مادية أو تحقيق مقابل تحقيق مصالحها الخاصة. . . فالإمبراطورية الغربية والاستعمار يرافقهما تغلغل ثقافى أو بث أفكار وطنية، أو عملية دمج الناس فى مفاهيم دينية معينة. أما نمو الأفكار العلمانية ونشاط الدفاع الدينى المسيحى فلم يكن لهما من هدف سوى إضعاف قوة المقاومة الإسلامية، وتمهيد طريق الذّل والهوان أمام الإسلام»[1].

ويتضّح من تشخيص لاوست أن تهديد الإسلام هو هدف أجمع عليه الاستعمار الغربى بجميع دوله، وكان كتاب اللورد كرومر (مصر الحديثة) الصادر سنة ١٩٠٨ هو دليل العمل لهم جميعًا.

قال بإحدى فقراته: «إن إنجلترا كانت مستعدّة لتمنح الحرية السياسية النهائية لكل ممتلكاتها المستعمرة، حالما يكون من المفكرين والسياسيين المشحونين بمثل الثقافة الإنجليزية، عن طريق التربية الإنجليزية، مستعد للاضطلاع بالأمور. ولكن الحكومة البريطانية لن تسمح بحال من الأحوال بقيام دولة إسلامية مستقّلة، ولو للحظة واحدة»[2].

---

(١) هنرى لاوست (ص١٠ شرائع الإسلام فى منهج ابن تيمية) الكتاب الثالث (مراحل انتشار المنهج حتى القرن العشرين) ص١٠، دار الدعوة بالإسكندرية سنة ١٩٩٧. ترجمة محمد عبد العظيم.
(٢) مريم جميلة (الإسلام فى النظرية والتطبيق) ص٢٥١، ترجمة س. حمد -مكتبة الفلاح - الكويت، ط١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

وقد علّقت على هذه الفقرة السيدة مريم جميلة بقولها: «فما كان يصدق على مصر يطبّق كذلك على باكستان. وما كان من السياسة البريطانية، كذلك فى السياسة الفرنسية والإيطالية. ولا تزال هذه هى السياسة الأمريكية والروسية لهذا اليوم. وبالتالى فإن سيادتنا السياسية هى اسمية أكثر منها حقيقية. وإن القوى الغربية عازمة على الإبقاء عليها تسير فى نفس الطريق، وذلك بالوسائل الاقتصادية»[1].

وصف الغرب «بالعلمانية» تعبير مضلل

ونحن بدورنا توجه دراسة د. هوفمان إلى العلمانيين لدينا الذين مازالوا يدورون ويلفّون حول كتاب (الإسلام وأصول الحكم) المنسوب للشيخ على عبدالرازق وهو أصلاً لم يُطبع إلا طبعة واحدة عام ١٩٢٥، ثم لم يفكر مؤلفه ولا أحد غيره فى إعادة طبعه، إلى أن قامت مجلة (الطليعة) عام ١٩٧١ بنشر بحث حول الكتاب. هذا وقد قام د/ محمد ضياء الدين الريس بفحص الكتاب ليزن قيمته العلمية، واتضح له فى النهاية أن أسلوبه غريب ليس مألوفًا فى الكتب العربية، وهو ما أدّى إلى أن المفتى الشيخ (محمد بخيت) قال: إن المؤلف شخص آخر من غير المسلمين، والمرجح أن مؤلفه المستشرق مرجليوث، والكتاب مُترجم، وأضاف إليه الشيخ فقرات وتعليقات، كما أورد الآيات من القرآن، والظاهر أنها محشورة، وبخاصّة أنه لم يُعرف للشيخ كتاب أو مقالات قبل هذا الكتاب. وله فقط كتبٌ فى اللغة أو علم البيان، وهذا كل إنتاجه فى أربعة عشر عامًا بعد تخرجه من الأزهر، وجاء صدور الكتاب لتبرير قيام أتاتورك بإلغاء الخلافة العثمانية وفرض العلمانية على الشعب التركى، وقد رحّب به لطفى السيد

---

(١) نفسه ص٢٥٢.

المخلص للإنجليز المحب لهم، المعادى لتركيا والكاره أشد الكراهية للخلافة. ويذكر الدكتور الريس واقعة قيام أحد الصحفيين الشيوعيين بإجراء حديث مع الشيخ قبل وفاته، وكان مهتمًا بأن يجرى حديثًا معه حول كتابه، وعاد فنشر هذا الحديث فى مجلة (المصور)، وكان هذا آخر حديث معه. ومن هذا الحديث ظهر أنه على حين كان الصحفى متحمسًا لآراء الأستاذ التى ذكرها فى كتابه -كان الأستاذ متحفظًا لا يرغب فى العودة إلى الأحاديث الماضية، وكأنه لا يشارك الصحفى فى الحماس لنفس آرائه هو، مما قد يُشعر أنه لم يعد واثقًا بها. فلما استأذنه فى إعادة طبع كتابه لم يبد موافقة[1].

يؤكد د. هوفمان ذلك بمقارنته بالواقع الاجتماعى والسياسى لدول أوربا وأمريكا، ففى معظم أوربا الغربية وأمريكا (التعليم الدينى، الصلاة بالمدارس، ضرائب الكنيسة، الإجازات، صلوات الأحد).. وفرنسا كمثال على العلمانية بفصل الدين عن الدولة، لنتظر إلى بعثاتها التبشيرية وصلتها بالحكومة، وما فعلته بالدول التى استعمرتها. ولا يخفى على أحد الدور الرئيس الذى لعبه البابا بولس فى انهيار الشيوعية بتعاونه مع أمريكا، وبدأ ذلك الانهيار من كنائس بولندا وألمانيا الشرقية ورومانيا. ثم لا يخفى على أحد انحياز العالم الغربى الواضح لإسرائيل، دعّمته الآذان الصاغية فى الغرب لزعم اليهود أن فلسطين هى أرضهم الموعودة كما جاء فى الكتاب المقدس، واستمر ذلك فى سياسات الغرب نحو قرن.

ومن أقوال (وليام فولبرايت) عضو الكونجرس لثلاثة عقود، وأحد السياسيين البارزين فى الستينيات والسبعينيات، من أقواله فى كتاب (غطرسة القوة): «لقد دخلت الولايات بوضع كوبا المحررة تحت الحماية الأمريكية. وبعد ذلك ضمّت الفلبين، وترفع من شأنهم وتنقلهم إلى طور الحضارة وتعلمهم المسيحية»[2].

---

(١) د. محمد ضياء الدين الريس (الإسلام والخلافة فى العصر الحديث -نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم)، ص١٧ ط منشورات العصر الحديث - بيروت ١٣٩٣هـ -١٩٧٣ ويُنظر صفحات: ١٨٥-٢٩٠-٢٩١.

(٢) ص٤٦، ٤٧ من الكتاب الذى نشره مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام.

كذلك عبّر ألفريد بفريدج، الذى سرعان ما انتخب لعضوية مجلس الشيوخ، عبّر عن روح العصر حين قال: إن الأمريكيين هم الجنس الغازى، وعلينا أن نمتثل ما تمليه علينا دماؤنا، فنحتل أسواقًا جديدة وأراضى جديدة أيضًا إذا لزم الأمر؛ لأن غاية الله النهائية تتمثل فى حتمية اختفاء الحضارات المنهارة والأجناس الضعيفة أمام الحضارات العظمى التى تنشئها الأجناس الأكثر نبلاً وحيوية [1].

ويذكر د. هوفمان أنه بمتابعة السياسة بأوسع معانيها يتضح أنها ذات صبغة مسيحية -بالرغم من كل ما يُساق لنفى هذه الحقيقة- ويدعّم ذلك برأى جيفرى لابغ القائل بأن تعبير علمانية الغرب، تعبير خاطئ ويجانبه الصواب تمامًا [2].

كذلك تبيّن -بناء على الخبرة- خطأ الاتّجاه القائل بحصر الدين فى المجال الشخصى؛ لأنه لا يمكن لكيان الدولة أن يعيش طويلاً إلا بثوابت غير دنيوية تسانده، وطبقًا لرأى كلٍّ من كانط ونوفاليس -وهما من أنصار العقلانية- أن القوى الدنيوية لا تستطيع أن تحافظ على توازنها، والنتيجة تكون غالبًا غابة من المصالح ما لم يتماسك المجتمع بفعل الدين، وهذا بالإضافة إلى أن اللجنة الأوربية أرهقت نفسها بمشروعها «منح أوربا روحًا» لكى تسرى بعض الروحانيات فى القارة القديمة من جديد.

ومن هذا المنطلق صرح الأمير شارلز بتاريخ ١٠/٧/١٩٩٦ فى لندن أثناء إلقاء كلمته فى حفل عشاء: «لقد حاول العلم جاهداً أن يتحول إلى دكتاتورية، وأن يحتكر رؤيتنا وفهمنا للدنيا بفصل الدين عن العلم. إننى أؤمن بأن الإبقاء على القيم الحضارية مرتبط بالإبقاء على إحساس دفين بالمقدّس فى قلوبنا».

(١) د. مراد هوفمان (الإسلام كبديل) ترجمة: عادل المعلم -دار الشروق ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ويضيف (هذا بعض مما فى الكتاب).

(٢) د. مراد هوفمان (الإسلام فى الألفية الثالثة، ديانة فى صعود) -ص١١٠، ترجمة عادل المعلم ويس إبراهيم -مكتبة الشروق- ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

واستطرد أمير ويلز قائلاً: «إننى على اعتناق تام بأن عالمًا يمثّل فيه العلم والدين مكونات أساسية لرؤيتنا لهو عالم أكثر تحضُّراً وحكمة وتوازناً. ولقد استطاع العالم الإسلامى أن يحافظ بشكل أفضل على رؤية العالم المتّسقة والروحانية هذه، وهذا ما لم يتحقّق لنا فى الغرب»[1].

أما استناد دعاة التنوير إلى بعض الفلاسفة فى الغرب، فإن د. هوفمان يعرض آراءهم، ثم يقرّر أنهم لم يكونوا ملحدين ناكرين لوجود إله، ولكنهم كانوا مؤمنين بإله كعلّة أولى، ناكرين للوحى مؤمنين بإله واحد بعيد وليس بصورة (الثالوث) الإلهى الذى تبنّاه الكنيسة المسيحية. لقد اعتمد إيمانهم على ملاحظة الطبيعة وتأملها والتفكر فيها، وليس على التسليم بالوحى، ولم يرغب هؤلاء فى إلغاء فكرة عقيدة أو ديانة، ولكن اتجهّت جهودهم إلى القضاء على سيطرة الكنيسة على معتقدات البشر وعلى نفوذ الكهنوت[2].

ويشرح هوفمان أعمال كانط النقدية إذ لم تكن ضد الدين بقدر ما كانت موجّهة ضد الكنيسة، فلم يدلل كانط، ولم يرغب أصلاً فى التدليل على عدم وجود الله فى عمله «نقد العقل» عام ١٧٨١م، ولكن أراد أن ينفى إمكانية الاعتماد

(١) نفسه ص١١١.

هذا ويشرح د. هوفمان باستفاضة الصبغة الدينية في جمهورية ألمانيا الاتحادية على سبيل المثال، فهناك أعياد وإجازات دينية تقرها الدولة وتحميها. وهناك كذلك جمعيات دينية تحظى باعتراف وحماية الدولة وتحصّل الجهات المالية الحكومية ضريبة الكنيسة من أجل مساندتها، ويقوم مدرسون حكوميون بتدريس مادة الدين في المدارس الحكومية. كذلك يتم الأخذ بالقسم بالله أمام المحاكم، وفي القوات المسلحة، كما يتم توظيف رجال دين بهذه القوات، ونجد على حوائط الفصول الدراسية بالمدارس المسيح مصلوبًا.. وفي قانون العقوبات هناك نص يوقع العقوبة فيما يختص بالتربية والرأي (الرؤية الدنيوية)، ونص على حماية المشاعر الدينية (ليس المسيحية فقط)، كما يتوجه الرئيس والمستشار الألماني بالحديث إلى الشعب الألماني في مناسبة أعياد الميلاد وهي مناسبة دينية، نفسه ص١٠٩.

ومن المفارقات اللافتة للانتباه أن الغرب في دعواه عن (العلمانية) يستند في ذلك على قول المسيح عليه السلام: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» وهذه مرجعية دينية بحتة! (الإسلام كبديل ص٨٥).

(٢) د. هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في صعود) ص٢١.

وقد ذكر أسماء الفلاسفة: مونتاني - ديكارت - لوك - ليبنتس - ديفيد هيوم - ليسنج - جوته - فولتير.

على تصورات ميتافيزيقية تتعدى نقد المعرفة . . لقد لجأ كانط في عمله التالي عام ١٧٨٨م (نقد العقل العملي) إلى أن المسلّمة (الفرضية المسلمة) «الله» ضرورة لمسيرة المجتمع . . ولكن النتيجة النهائية لعملية التنوير أدت إلى تهميش دور الدين؛ ومن ثمّ أصبح الإنسان معيار كل شيء . لقد تمادى الإنسان في تقدير ذاته وقدراته حتى أصبح الوثن الجديد لهذا العصر(١) .

أمّا العلمانيون في إسرائيل فلهم وضع خاص ، فإن زعماء الصهيونية التاريخيين من أمثال «هرتزل» و«بن جوريون» كانوا علمانيين ، ولكنهم كانوا مؤمنين بأفكار ثلاثة دينية : شعب الله المختار -الوعد الإلهي- الحق التاريخي ، فهي أفكار رسخت في الوجدان اليهودي ، يستوي في ذلك المتدينون والعلمانيون ، وجاءت حرب ١٩٦٧ ليعتبر اليهود أن النصر فيه معجزة إلهية ساندت شعب الله المختار؛ ومن ثمّ قوى الاتجاه الديني والأحزاب الدينية ، إلى أن تمكّنت كتلة الليكود الممثّلة لليمين الإسرائيلي أن تصل إلى الحكم في سنة ١٩٧٧ ، ومع أنه ليس في الشريعة اليهودية أي مبادئ تتعلق بالشئون السياسية أو الحكم ، فضلاً عن أنه لم يكن لهم دولة خلال عصور التاريخ منذ داود وسليمان -عليهما السلام- فإن الأحزاب الدينية التي شاركت في الحكم منذ تأسيس دولة إسرائيل تؤمن أن اليهودية دين ودولة ، فضلاً عن أنه لم يقم عداء بين الأحزاب الدينية والعلمانية ، وإنما حوار ديمقراطي بينهما؛ إذ كان دعاة الصهيونية السياسية يرون أن هناك دوراً مرسومًا للدين ورجالاته في الحركة الصهيونية عليهم القيام به ، وهكذا استطاعت الحركة الصهيونية والدينية التكاتف ، بل أخذت الأعياد الدينية طابعًا قوميًا(٢) .

أزمات الحضارة المعاصرة:

قلنا آنفًا : إن البحوث والدراسات والكتب التي تدور حول ما تعانيه الحضارة المعاصرة من أزمات ، وما يتوقّع لها من انهيار تبلغ حدًا يتعذر إحصاؤه؛ لذلك نذكر بعضها فيما يلي:

(١) نفسه ص٢٢ .

(٢) د. أحمد صبحي ود. صفاء جعفر (في فلسفة الحضارة: اليونانية -الإسلامية -الغربية) ص٢٥٨ ، ط دار الوفاء بالإسكندرية سنة ٢٠٠٦م.

- رينيه جينو (أزمة العالم المعاصر).
- قسطنطينوس بالاخورس (نحن وعصرنا: الاضمحلال واللامنطقية).
- د. عبد الوهاب المسيرى (العالم من منظور غربى).
- أدريين كوخ (آراء فلسفية فى أزمة العصر).
- جارودى (الولايات المتحدة الأمريكية طليعة الانحطاط).
- ألبرت شفيتزر (فلسفة الحضارة).
- باتريك بوكانن (موت الغرب)[*].
- د. مصطفى محمود (هل هو عصر الجنون)؟

ليس هذا فحسب، فإن الاتجاه فى الخارج يدخل الآن فى مرحلة فكرية وثقافية جديدة، تتميَّز بشدة الاهتمام والإقبال على الإحاطة بالتطورات الثوريَّة فى العلوم البيولوجية والهندسة الوراثية والذكاء الصناعى والفضاء الكونى وما إليها، ولكنها تميل فى الوقت نفسه إلى اعتناق بعض الاتجاهات والنزعات الروحية -إنْ صح التعبير- المستمدة من الدراسات الإنسانية.. وقد أفلح كثير من العلماء والكتّاب فى نقل ونشر مبادئ تلك الثقافة إلى أنحاء متفرقة من العالم عن طريق كتاباتهم، وإنْ لم يصل ذلك بعد إلى عالمنا العربى.

تحذير إلى الإنسانية:

هكذا، وتحت هذا العنوان كتب الدكتور أحمد أبو زيد يقول:

فى نوفمبر العام ١٩٩٢ اجتمع أكثر من ألف وستمائة من كبار العلماء المهمومين بمستقبل الجنس البشرى وعلاقته بالكون، وكان من بينهم عدد من الحائزين على جائزة نوبل فى العلوم، وأصدروا تقريراً أو بيانًا بعنوان «تحذير إلى الإنسانية» (Warning to-Humanity) أشاروا فيه إلى أن «الجنس البشرى والعالم الطبيعى فى سبيلهما إلى

(*) وهو سياسي ومفكر أمريكى يمينى متطرف.. وكتابه من أواخر الكتب التي تعرّضت للأزمة، ويشير فيه إلى أن الغرب الآن مستغرق فى الرفاهية المنذرة بالموت، وأن هناك تغييراً عميقًا غير مرئى من الأخطار يحدث كل يوم، (د/ هشام الحمامي) مقال «تفجيرات بروكسل وجردة حساب بسيطة» ص ٦٣ ويصف الكتاب بأنه مهم جدًا، المختار الإسلامي، رجب ص ١٤٣٧هـ مايو ٢٠١٦م.

الصدام، الذى قد يقلب الأمور رأسًا على عقب، ويجعل استمرار الحياة صعبًا بالشكل الذى عرفناه وألفناه، «وأعلنوا صراحة أننا نحذّر الإنسانية كلها مما ينتظرها، وأنه ينبغى إجراء تغييرات جذرية على أسلوب توجيهنا لكوكب الأرض وطريقة التعامل معه والحياة فوقه، إذا أردنا تجنّب حدوث مزيد من البؤس الإنسانى وتشويه هذا الكوكب بشكل لن تجدى معه أى محاولة للإصلاح».

وقد نبّه البيان إلى أنه على الرغم من أن الإنسانية واجهت خلال تاريخها الطويل كثيرًا من المشكلات، فلم يحدث أبدًا أن كانت تلك المشكلات على الدرجة نفسها من الضخامة والخطورة التى وصلت إليها الآن، والتى سوف يمتد تأثيرها السلبى إلى الأجيال القادمة؛ مما يتطلب إعادة النظر فى الوضع العام من منظور جديد وبأفكار وقيم وتقدير دقيق للواقع، ومحاولة الوصول لفهم صحيح لطبيعة خصائصه ومقوماته، وبخاصة فيما يتعلق بالتحديات الإيكولوجية التى لها أبعاد فيزيقية واجتماعية بل وروحانية. ولقد أدّت الثورة فى وسائل الاتصال إلى حدوث ثورة فى الوعى والثقافة وترسيخ القدرة على ملاحظة الذّات والتفاعل مع الآخرين، ومتابعة العمليات والظواهر الكونية والتفكير فى المستقبل وحرية الاختيار والانتقاء فى ضوء هذه المعرفة الواسعة المتنوعة، التى تؤلّف فى آخر الأمر وحدة معرفية كلية شاملة نابعة من النظرة إلى الكون على أنه «كائن حى»، يتألف من نظم متكاملة ومتفاعلة سواء فيما بينها أو فى علاقتها بالإنسان كأحد العناصر المكونة لهذا الكون؛ ولذا فإن من المنطقى أن يتجاوز التفكير العلمى الحديث -فى رأى بعض العلماء والمفكرين- النطاق الذى تحدده التخصصات العلمية الدقيقة المحددة، وأن يأخذ العلماء فى اعتبارهم المبادئ الفكرية الأساسية المميزة للثقافات الأخرى التى تعنى بالجوانب الإنسانية أو الروحانية، التى تغفلها أساليب وطرق ومناهج البحوث العلمية التجريبية، التى ترتبط بالثقافة الغربية، وأن ذلك سوف يساعد على تحقيق النظرة الشاملة للمعرفة، وهو ما قد يبدو غريبًا لأول وهلة [1].

---

(١) د. أحمد أبو زيد، مقال بعنوان [الإنسانية البازغة]، ص٣٣، ٣٢ مجلة (العربي) الكويت ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

آثار افتقاد الحضارة الغربية للتراث النقلي:

يرى الفيلسوف الفرنسي رينيه جينو أن السّمات التي تميّز الحضارات الشرقية هي استنادها إلى عقيدة وتراث نقلي راسخ . . ويقول: وتواجهنا الآن في العالم بحالته هذه جميع الحضارات التي تمسكت بروح العقيدة والتراث وهي الحضارات الشرقية في جانب، وحضارة معادية لروح العقيدة والتراث النقلي من جانب آخر، وهي الحضارة الغربية الحديثة .

والملامح العامة للحضارات الشرقية تتضح في الشرق الأقصى وتمثله الحضارة الصينية أساساً، والشرق الأوسط تمثله الحضارة الهندية، والشرق الأدنى تمثله الحضارة الإسلامية[1] .

ويضيف: «ويجدر بنا أن ننوّه بأن هذه الحضارة الإسلامية يجب أن يُنظر إليها من نواح شتى على أنها تحتل مكانًا وسطًا بين الشرق والغرب، وأن كثيراً من سماتها يجعلها أقرب إلى الحضارة الغربية في العصور الوسطى»[2] .

وهو يرى أن الغرب كان مسيحيًّا في العصور الوسطى ولكنه لم يعد كذلك الآن[3]، وكانت حضارته آنذاك قريبة الصلة بالحضارة الشرقية . . ولكن شهدت القرون الأخيرة تغييراً هائلاً أخطر من كل الانحرافات التي برزت من قبل في بعض عصور الانحطاط؛ لأن هذا التغيير تمثّل في انقلاب حقيقي انعكس معه الاتجاه المحدد للنشاط الإنساني . وقد نشأ هذا التغيير في العالم الغربي دون سواه، وهو يعني بذلك -كما سيأتي- حينما سمحت البروتستانتية لممارسة العقل الإنساني في تفسير الدين .

وتفصيل ذلك أن التراث الغربي من حيث المظهر يتخذ صورة دينية تمثّلها الكاثوليكية آنذاك، أي في العصور الوسطى، ولكن حدث تمرّد ضد الروح النقلي في الميدان الديني، وهو تمرد اتخذ اسم البروتستانتية عندما صار له شكل محرّر، وقد أعلنت أنها

(١) رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبد الواحد يحيى) (أزمة العالم المعاصر) ص٦٧ ترجمة سامي محمد عبد الحميد، دار النهار، شارع الجمهورية عابدين ١٩٩٦م .

(٢) نفسه ص٦٨ .

(٣) نفسه ص١٥٦ .

أزاحت سلطة التنظيم المؤهل لتفسير التراث الدينى للغرب تفسيراً مشروعًا لتضع مكانها ما سمته «النظر الحر»، أى أن يترك التفسير لكل إنسان على هواه، ولو كان من الجهلاء ومن لا دراية لهم، ولا يستند هذا التفسير إلا على ممارسة العقل الإنسانى.. وهذه الظاهرة فى الميدان الدينى تشبه ما حدث فى الفلسفة، وعُرف باسم العقلانية [1]، الذى فتح الباب على مصراعيه أمام شتى ضروب المناقشات والخلافات والانحرافات، وكانت النتيجة هى التشتت فى كثرة فى ازدياد من النحل، وكل نحلة لا تزيد عن تمثيل رأى عدد محدود من الأفراد. ولأنّ الاتفاق على أمر العقيدة أصبح مستحيلاً فى ظل هذه الظروف، فإن العقيدة صارت فى المكان الثانى من حيث الأهمية، بينما احتلّ الجانب الثانى من الدين، أى الأخلاق، المكان الأول [2].

ويمضى رينيه جينو فى عرض آثار انحلال كيان العقيدة؛ إذ أدى إلى هذه النتيجة الحتمية، وهى أن الانطلاقة من «العقلانية» كان لا بد أن يؤدى إلى «النزعة الشعورية» التى انتشرت فى البلاد الأنجلوسكونية، ويقول: «فالذى أمامنا لم يعد دينًا، ولو منقوص البنيان، مشوّه الأركان، ولكنه ببساطة «فورة دينية» أى رغبات شعورية مبهمة لا تستند إلى أى معرفة حقيقية، وتدخل فى نطاق هذه المرحلة الأخيرة نظريات، مثل نظرية «التجربة الدينية» لصاحبها وليم جيمس الذى ذهب إلى أن (الشعور الباطن) هو الوسيلة التى يستطيع الإنسان بها أن يتّصل بالله، وهنا تم اللقاء والاندماج بين آخر نتاج للانحطاط الدينى وآخر نتاج للانحطاط الفلسفى [3].

ويقرّر فيلسوفنا فى النهاية أن الدين فى حقيقته شكل من التراث النقلى؛ ولذلك فإن الروح المعادى للتراث النقلى لا بد أن يكون معاديًا للدين، وهذا الروح يبدأ بتجريد الدين من طبيعته، ثم يقضى عليه قضاءً مبرمًا عندما يستطيع ذلك. ولهذا فإن البروتستانتية غير منطقية مع نفسها؛ لأنها وهى تحاول «إضفاء الصبغة الإنسانية» على الدين تُبقى فى نفس الوقت على عنصر فوق المستوى الإنسانى -وهو الوحى ولو من

(١) ويرى أن مؤسسها الحقيقى هو «ديكارت» ص١١٦.

(٢) نفسه ص١١٤، ١١٥.

(٣) نفسه ص١١٥، ١١٦.

الناحيـة النظرية على الأقل، فهى لا تسـتطيع أن تذهب فى الإنكار إلى نهـاية مـداه- ولكنها بتعريضها هذا الوحى لشتى أنواع المناقشات التى تستند إلى تفسيرات إنسانية بحتة قد قضت على كيان هذا الوحى، فصار هباءً لا وجود له [1].

ومع المقارنة بالإسلام يبدى إعجابه من بقائه بالرغم من الجهود المبذولة للقضاء عليه!

هذا، وقد انتقل إلينا -مع الأسف الشديد- ما سماه «رينيه جينو» التمرّد ضد الروح النقلى فى الميدان الدينى، بواسطة بعض المستغربين والعلمانيين ونادوا بضرورة تجديد -أو تطوير- الخطاب الدينى! وهو ما يصفه الدكتور أحمد قوشتى بأنه دعوة خفيّة إلى هدم الثوابت وتذويب المضمون الدينى الإسلامى، لكى ينتهى إلى إيجاد إسلام عصرى ومُعدّل لا يعدو أن يكون سوى تصوّر هلامى لأمشاج شتى من التصورات الغربية عن الإسلام. ويصف أصحاب هذا الرأى بالمراوغة، فيتظاهرون بالتسليم بالنص الدينى المقدس، ثم بالانقضاض عليه بالهدم تحت دعاوى النسبية والتاريخية والتجديد والتحديث، ثم يقول: «لكنهم حين يراوغون ويضعون دعاواهم هذه تحت رداء تجديد الخطاب الدينى، فإنهم يشوّهون صورة هذا الخطاب، ويبعثون فى النفوس دواعى الريبة فيه والنفور منه»[2].

إنّ التجديد الدينى بالمعنى المقبول له جانبان كما يرى د. عبد العاطى محمد: أحدهما الخطاب البسيط الذى يصل إلى المسلمين لتعزيز إيمانهم بالعقيدة من جهة، وتيسير اندماجهم فى متطلبات العصر من جهة أخرى، وذلك يتسع ليشمل جوانب الحياة اليومية من سياسة واقتصاد وأخلاق وقانون وأمن.. إلخ.

أما الجانب الآخر فإنه يتصل بالفقه، أى مجموعة الأحكام الشرعية العملية التى نزل بها الوحى، قطعية كانت أم ظنيّة، وذلك جانب يختص به العالمون بالإسلام عن علم ودراسة شرعية وليس عامة الناس، ولا حتى النّخبة السياسية منهم [3].

(1) نفسه ص١١٦.

(2) د. أحمد قوشتى عبد الرحيم (محاضرات في العقيدة الإسلامية) ص١١٨ دار الهاني، شعبان ١٤٢٤هـ- أكتوبر سنة ٢٠٠٣.

(3) د. عبد العاطي محمد، مقال بعنوان (التجديد الديني «٢») ص٢٧ (الأهرام العربي) ربيع ثان - مارس سنة ٢٠١٢.

وبعد، فإن محنة التنويريين كما وصفها الدكتور جلال أمين تزداد تعقيداً لو أصرّوا على موقفهم، والدعوة إلى الاستمرار فى تقليد حضارة العصر بالرغم من المحن والمآسى التى تعانيها؛ مما دفعها إلى البحث عن الحلول أو العون من غيرها، بل هذا ما صرّحت بالفعل به عالمة الأديان الإنجليزية كارين أرمستروج بكتابها بعنوان (محمد ﷺ نبى لزماننا) فقالت بالحرف الواحد: «من المفارقات أن أصبح محمد ﷺ شخصية مجاوزة للزمان.. لا يمكننا فهم إنجازاته إذا لم تقدِّر ما كان يعمل ضدّه، وحتى يمكننا فهم ما يمكن أن يقدّمه لمأزقنا»[1]، وأضافت: «فى شخصية محمد ﷺ النموذجية دروس مهمة ليس فقط للمسلمين، ولكن أيضاً للغربيين»[2].

ونقول بدورنا: ولم لا؟ ألم يصفه ربه -عز وجل- بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾؟ ﷺ.

دراسة عصر التنوير الأوربى وفق منهج فلسفة التاريخ[3]:

أصاب الدكتور جلال أمين بوصف التنويريين العرب بإصرارهم على (أن الغرب على صواب)، ويرجع ذلك إلى تمسكهم باتخاذ فلاسفة عصر التنوير فى أوربا أمثلة للنهضة والتقدم الحضارى، وهذا الموقف يدفعنا إلى عرض موجز لآراء فلاسفة التنوير بمنهج فلسفة التاريخ لتعرف مدى صوابه، وهل يتناسب مع عصرنا الحاضر بعد التقلّبات التى مرّ بها تاريخ الغرب الحضارى؟

---

(١) كارين أرمستروج (محمد ﷺ نبي لزماننا) المقدمة ترجمة- فاتن الزلباني - مكتبة الشروق الدولية بمصر ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

(٢) نفسه ص٢٦.

(٣) يرجع أول استعمال للفظ «فلسفة التاريخ» إلى فولتير، وإن كان ذلك لا يعني أنها قد ابتدأت به، وإنما ترجع إلى ابن خلدون كما سيأتي بيانه... وقد قصد فولتير بهذا المصطلح دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف.. أي دراسة عقلية ناقدة ترفض الخرافات وتنقح التاريخ من الأساطير والمبالغات، وهو يعني كل رواية غير مقبولة لدى العقل أو محتملة الشك.

أما نقطة الانطلاق في فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، ففي التمييز بين الظاهر والباطن في التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها..

ويقول محمد إقبال: «إن ابن خلدون هو أول مسلم كتب في فلسفة التاريخ» ص١٨١ كتاب «تجديد الفكر الديني في الإسلام» لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ط٢، سنة ١٩٦٨م. د. أحمد صبحي (في فلسفة التاريخ) ص١٠٩ مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ط٣، ١٩٩٠م.

يُوصف القرن الثامن عشر على أنه عصر التنوير، ويقصد بذلك سيادة فلسفة عقلية تجريبية مادية ترفض الميتافيزيقا ولا تقدّس الدين، وتهتم بالرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي والجغرافيا والطب، فلسفة تؤمن بالتغيير وتسعى إلى التجديد في كل شيء تحددها ثقة مطلقة في العقل ويدور التفكير فيها حول الإنسان [1].

وكانت الآمال معقودة على أن التنوير الذي تبنّاه فلاسفة العصر يبشّر الأجيال بالتقدم والنهضة، وهي نظرات مملوءة بالتفاؤل في المستقبل لحضارة الغرب.

ولكن مع تصاعد أزمات هذه الحضارة ابتداءً من حربيْها العالميتين، وانتهاءً بمشكلاتها المتنوعة، ومثل تآكل مؤسسة الأسرة وانتشار الإيدز والمخدرات وتراكم أسلحة الدمار الكوني، والأزمة البيئية وتزايد اغتراب الإنسان الغربي عن ذاته وعن بيئته.. وهذه الأمور أصبحت في نهاية الستينيات أخباراً يومية تتناقلها الصحف والإذاعات والمجلات.

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: «ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن دعاة التغريب واللحاق بالغرب في عالمنا العربي لا يزالون يدورون في إطار عقلانيّة القرن الثامن عشر، وعلوم القرن التاسع عشر، ويكررون تفاؤل الغرب بخصوص مستقبله، في الوقت الذي سقطت فيه عقلانية القرن الثامن من عشر بالنسبة لكثير من المفكرين الغربيين، وظهر لهم مدى قصورها وتآكلت -من منظورهم- السببية البسيطة التي تستند إليها علوم القرن التاسع عشر، وتخلّى كثير منهم عن تفاؤلهم بخصوص حضارتهم التي لم تعد تشعر بالثقة الكاملة بنفسها، كما كانت تفعل حتى نهاية القرن التاسع عشر، وفقدت كثيراً من إحساسها بمكانتها في التاريخ ومركزيتها وعالميتها» [2].

هذا، وقد قام الدكتور المسيري بدراسة شاملة النموذج الحضاري الغربي متعرضًا لسماته السلبية مع إحصاء أزمات الحضارة الغربية الحديثة.

وفي إخلاصه في البحث عن مشروع نهضة إسلامي، يرى أنه يجب الكف من

(١) نفسه ٧٤.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري (العالم من منظور غربي) ص١١٥، ط١، سنة ٢٠١٧م، دار الشروق.

طريقة المتغربين فى تحيّزهم للرؤية الغربية، ومشروعهم النهضوى قائم على عملية ترقيع وتلفيق للغرب، وسيؤدى إلى أن نفقد هويتنا[1]، ثم يقرر بروح تملؤها الثقة بالنفس، والدراسة العلمية الخبيرة بتاريخ الغرب وحضارته يقول: «والنموذج الحضارى الإسلامى نواته الأساسية هى النموذج المعرفى الإسلامى وأساسه القرآن والسنّة، اللذان يحويان القيم الإسلامية المطلقة والإجابة الإسلامية عن الأسئلة النهائية»[2].

ونقترح لمن يريد معرفة المزيد فى هذه القضية الاطّلاع على فصل كامل عنوانه (نهاية الازدهار وبداية التدهور «القرن التاسع عشر» بكتاب للدكتور أحمد صبحى (فى فلسفة الحضارة)[3].

وكان الشاعر محمد إقبال أيضًا سباقًا فى الكف عن تقليد المدنية الحديثة، فأخذ يحذّرنا من دعوة (حرّية الفكر) التى ينادى بها المتغربون؛ إذ من شأنها أن تنزع إلى أن تكون من عوامل الانحلال. ويضرب على ذلك مثلاً بما قام به أتاتورك من إحياء القومية الطورانية فى تركيا بعد إلغائه للخلافة العثمانية مقلداً فكرة الفصل بين الدين والدولة من تاريخ النظريات السياسية الأوربية؛ حيث كان التعارض بين الدولة والكنيسة، وحدث التنازع بينهما ونجم عنها خصومات لاحدّ لها.. وهذا لم يقم فى تاريخ الإسلام؛ لأن الإسلام كان من أول أمره مجتمعًا مدنيًا عُنى بشئون الدنيا واستمد من القرآن الكريم المبادئ التشريعية التى تنظمها.

إن فكرة القومية قد ينتهى أمرها إلى القضاء على النظرة الإنسانية العامة الشاملة التى تشربتها نفوس المسلمين من دين الإسلام. ويقول محمد إقبال: ويخيل إلىّ أن الله جل جلاله سيير السبيل أمامنا تدريجيًا إلى أن الإسلام ليس قومية، ولا فتحًا ولا استعماراً، وإنما هو رابطة أمم بما بينها من حدود صناعية، وتشعر بما بينها من فوارق جنسية قصد بها تسهيل التعارف على كل شعب، لا تقييد الأفق الاجتماعى لأعضاء هذه الرابطة[4].

---

(1) نفسه ص١١٢.

(2) نفسه ص١٥٥.

(3) د. أحمد صبحي (في فلسفة الحضارة: اليونانية- الإسلامية- الغربية) ص١٥٤ دار الوفاء بالإسكندرية ٢٠٠٦م.

(4) محمد إقبال (تجديد التفكير الديني في الإسلام)، ص١٨٣، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٢ سنة ١٩٦٨، وكان مؤيداً لفكرة (الجامعة الإسلامية)، التي نادى بها السلطان عبد الحميد، كما سيأتي-

وينظر إلى عصبة الأمم فى جنيف، وقد أقامت نفسها فى الظاهر لرعاية السّلم، حين تكالب زعماؤها فى باطن الأمر على إثارة الحرب، فيتذكّر رسالة الإسلام الخالدة التى أشرقت من مكة، معلناً اختلافه عن مجالس الأمم التى عمت فى هذا العصر، بينما بقيت الوحدة الإنسانية مختفية عن الأنظار، والهدف الذى ترمى إليه حكمة الإفرنج هو تفريق الأمم.

أمّا غاية الإسلام إنما هى الوحدة الإنسانية، لقد بعثت مكة إلى جنيف بهذه الرسالة: ماذا تريدين؟ عصبة الأمم أم عصبة بنى آدم[1]؟

ويمر بباريس فيرى مسجدها الذى بناه الفرنسيون فى عاصمتهم ليخدروا به المخدوعين من جهلة المسلمين، فتدمع عيناه إذ يتذكر ما جناه هؤلاء المجرمون على دمشق حين حطّموها ذات صباح.. ونشروا فى سوريا الخمر والمقامرة وكثرة المومسات!!

أما عن نكبة فلسطين فيقول: «إن كان لليهود حق على فلسطين فلماذا لا يكون للعرب حق على إسبانيا؟».. ثم تزعجه نكبات الطليان فى طرابلس الغرب، وكارثة الإسلام فى أدرنة[2].

هذا، وقد أيّد الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التى تنشر إيقاظ المسلمين، وتحثّهم على الرجوع إلى قواعد الإسلام الأولى، ورأى أن دعوة محمد بن عبد الوهاب قد أثمرت، فهى تجرى على كل لسان، وهى تسرى فى الجزيرة العربية ممثّلة فى الحركة السنوسية[3].

وكان يرى أن الاستعمار يخدعنا حين يعلن أن المدنية الحديثة ترى الفصل بين الدين والدولة، على حين أن دول أوربا المسيحية تقوم على الصليبية ديناً، يظهر فى أسماء أحزابها السياسية، فهذا الحزب الديمقراطى المسيحى فى بلجيكا، وهذا حزب الأحرار

---

(١) د. محمد رجب البيومي (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين) حـ١، ص٢٠٢ مجمع البحوث الإسلامية بمصر ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(٢) نفسه ص٢٠٣.

(٣) نفسه ص١٩٩.

المسيحيين في غيرها، وتستجيب بريطانيا إلى آراء الكنيسة، ثم تسألها الرأي فيما تريد أن تصدر من القانون! وبعد ذلك كله يقولون للمسلمين: إن الدين شيء والسياسة شيء، ويشوهم من يسمونهم علماء الاجتماع والسياسة أنهم قادرون على تحطيم مبادئ الإسلام حين يعلنون في خدعة أن الدولة لا تقوم على أساس من الدين[(١)].

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر إقبال كان مؤيداً لأتاتورك في البداية وحتى سنة ١٩٣٠، كما يتبين من كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام)، ولكنه في أواخر أيامه نقض الآراء حول التجربة الكمالية، واعتبرها لا شيء سوى تقليد أعمى للمادة الغربية بشكل آلي غير خلاق، وقال في بعض الأبيات الشعرية:

مـــا تورك إلا نور أوربا قـــد انعكس

فأنت الجدران الأربعة التي سادها بناؤها

محارة من الصلصال لا تسكنها الروح..

وله أشعار أخرى يلعن فيها أتاتورك جهراً... وقال: ووروح الشرق قد ساء استقرارها أتاتورك ورضا شاه، وهي لا تزال تبحث عن جسد. والعالم لا يزال يفتش عن مشنقة)[(٢)].

قصور الفكر العلماني:

ويتضح ذلك في أمرين:

الأول: تقليص مفهوم العبادة في الإسلام، وجعلها محدودة في نطاق العلاقة بين العبد وربه -عز وجل- وفي هذا الفهم قصور عن دائرة العبادة الشاملة في الإسلام، يقول الراغب الأصفهاني في وصفه للقائم بعمارة الأرض وسعيًا لتحسين حياة الناس وصلاح معاشهم: «ومتى كان سعي العبد في ذلك على الوجه الذي يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهاداً في سبيل الله»[(٣)]، مع مراعاة العمل للدنيا والآخرة معًا: «فحق الإنسان ألا يذهب عامة أوقاته إلا في إصلاح أمر دينه ودنياه، ومتوصلاً به إلى

---

(١) نفسه ص٢١١.

(٢) مريم جميلة (الإسلام في النظرية والتطبيق) ص١٩٠-١٩٣.

(٣) الراغب الأصفهاني(الذريعة إلى مكارم الشريعة) ص٩٥ تحقيق د/ أبو اليزيد العجمي، دار الصحوة، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

إصلاح أمر آخرته، ومراعيًا لها»[1]، كذلك ما من مباح إذا تعاطاه الإنسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى كان «كالإنسان فى تعاطيه عابداً لله مستحقًا لثوابه» إذ قال الرسول ﷺ: «إنك لتؤجر فى كل شيء حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك»، وقوله ﷺ: «ما من مسلم غرس غرسًا لم يأكل أحد إلا كان له صدقة»، ولكنه يشترط فى هذه الأعمال لكى تكون عبادة مراعاة أمر الله تعالى فى جميع الأمور دقيقها وجليلها، وأن يتحرى حكم الشريعة»[2].

وهذا ما أجمع عليه العلماء بوصف الشمول للإسلام، فهو يعنى أنه دين ودنيا، وكونه دينًا يعنى وجوب أصوله العقدية وحراسة أصول الإيمان، وكونه دينًا يعنى وجوب ربط هذه العقيدة وأصولها ومرجعيتها بأوضاع الواقع المعيش[3].

الثانى:

تفضيل الجانب المادى عن الروحى فى الإنسان (رأى الدكتور فؤاد زكريا نموذجًا):

يقول الدكتور فؤاد زكريا:

إن التفرغ لتحقيق القيم الإنسانية الرفيعة لا يمكن التوصل إليه إلا إذا لم تعد المشاكل اليومية والمطالب الحيوية الضرورية هى الموضوع الرئيس لاهتمام الإنسان، ومن المحال أن ننتظر إنتاجًا فنيًا أو فكريًا رفيعًا أو تحقيقًا للقيم الروحية السامية من إنسان يقضى كل دقيقة من قوته باحثًا عن الخبز وحده، أما إذا توافرت هذه المطالب الضرورية، ووصل الإنسان إلى حد معين من الاكتفاء المادى، فعندئذ يمكنه أن يتفرغ لما هو معنوى وروحى. والذى نلاحظه أن الأغلبية العظمى من الناس لم يتوافر لها ذلك الحد من الاكتفاء المادى الذى يمكنها من التفرّغ لسائر مظاهر الإنسانية الرفيعة لحياتهم، إن المنطق السليم يقتضينا أن نجعل للمشكلة الاقتصادية الدور الأول فى تفكيرنا واهتمامنا، حتى نصل إلى إخضاعها نهائيًا لإرادتنا، وإلى تحرير الإنسان من عبودية المادة، ومن السعى طوال حياته وراء أدنى حد من المطالب الحيوية، وإغفال الأوجه المعنوية الرفيعة لحياته.

---

(١) نفسه ص٣٨٣.

(٢) لتفصيل النشأتين وتحصيل العادتين، ص٤٨ من سلسلة الثقافة الإسلامية ص٤٨-٤٩، ١٣٨٠هـ-١٩٦١.

(٣) طارق البشري مقال بعنوان (التجديد الإسلامي بين قرن مضى وقرن يجيء) ص٢٧، مجلة (المنار الجديد) يناير ١٩٩٨م - رمضان ١٤١٨هـ.

بل إن المجالين : المادى والروحى متداخلان فى حياة الإنسان كل التداخل، ولا يمكن تصورهما منفصلين والخطوة الاولى نحو الروحية فى الإنسان هى الاهتمام بالمشاكل المادية، والوسيلة الوحيدة لتحقيق تحرر الإنسان من سيطرة القوى الطبيعية هو أول مظهر من مظاهر شخصيته الحرة، والوسيلة الوحيدة لهذا التحرر هى الاهتمام بالمادة ذاتها؛ ولهذا فإن من يدعو إلى الترفّع والسمو عن المادة يهدف بدعوته- عن قصد أو غير قصد- إلى أن يظل الإنسان عبداً للمادة.

ونحن أهل الشرق كثيراً ما نوصف بأننا روحانيون، أى مترفعون عن المادة، مع أن السبيل الأول إلى العلو بالمعانى الروحية فى الإنسان، هو اهتمامه بمشاكله المادية وسعيه إلى حلها، فمن المحال أن ننتظر إنتاجًا فكريًا من مريض هزيل، فلنبدأ بالعمل على إزالة شبح الجوع والفقر والحاجة والقلق والخوف من المستقبل، ومن هذا نتوقع ارتفاعاً فى الجانب الروحى المعنوى من حياتنا. إن الحضارة المعنوية السليمة لا تقوم إلا على أساس من الرخاء المادى، وبغير هذا لا تحتل القيم فى حياتنا المكانة التى تتمناها وتضيع معنوياتنا، كما نحرم من مادياتنا.

الرأى الصائب:

وفى تعقيب الدكتور توفيق الطويل على رأى الدكتور فؤاد زكريا يقول: إن من أظهر مفاخر الإسلام أنه لم ينظر إلى الحياة الدنيا ومطالبها المادية على أنها مجرد جسر إلى الآخرة، بل لقد جمع بين الآخرة والدنيا فى سمط واحد، يقول تعالى (فى سورة الأعراف): **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ**

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ويقول تعالى فى سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وفى سورة القصص: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، أى اطلب فيما أعطاك الله من الغنى ما تستحق به النجاة فى الدار الآخرة، ولا تنس أن تحصل على نصيبك من العيش فى الدنيا لتستعين به على تكاليف الحياة، ولا كما يفعل بعض الذين يزعمون الزهد ويعيشون عالة على غيرهم.

وهذا المعنى أو قريب منه هو من المأثورات الدينية التى تروى عن رسول الله ﷺ وصحابته، ومؤدّى المعنى أن السعى فى مناكب الأرض طلبًا للرزق هو جهاد فى سبيل الله، وليس أعظم من هذا تكريمًا فى الإسلام للسعى لتحقيق مطالب الدنيا متى كان السعى لها فى حدود تعاليمه، وبهذا يتأكد القول بأن الإسلام قد جمع بين الآخرة والدنيا فى سمط واحد. وتكرّر هذا المعنى فى آيات كثيرة، وورد فى الحديث: «إن لبدنك عليك حقًا» - «اعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا»، ومثل هذا كثير، وكلّه شاهد عدل على أن الإسلام لم يهمل مطالب الدنيا وهو يدعو إلى العمل من أجل الآخرة [1].

وتأكيدًا على صحّة هذا الرأي أيضًا يقول الأستاذ محمد أسد: إن الإنسان فى الإسلام غير مجبر على أن يرفض الدنيا، وليس ثمّة حاجة إلى تقشّف يفتح به الإنسان بابًا سريًا إلى التطهير الروحى.

ذلك أمر غريب كل الغرابة عن الإسلام، فالإسلام ليس عقيدة صوفية ولا هو فلسفة،

(١) د. توفيق الطويل (الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، دراسة مقارنة) ص١٣٥-١٣٧ مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة سنة ١٩٩٠. وقد جرى هذا النقاش بينه وبين صديقه د/ فؤاد زكريا كما صرّح بذلك فى كتابه.

لكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التى سنّها الله -عز وجل-، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين: الروحية والمادية فى الحياة الإنسانية. وإنك لترى هاتين الوجهتين فى تعاليم الإسلام تتفقان فى أنهما لا تدّعان تناقضًا أساسيًّا بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما وهو الأساس الطبيعى للحياة[1].

هذا، وقد خصّص الإمام النووى فى كتابه (رياض الصالحين) بابًا بعنوان (بيان كثرة طرق الخير) بدأه بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]، والآيات فى الباب كثيرة.. وسرد أحاديث كثيرة للرسول ﷺ عن السعى للرزق قال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً، فهو فى سبيل الشيطان» [صححه الألبانى].

عن أبى موسى الأشعرى: قال ﷺ: «على كل مسلم صدقة، قال: أريت إن لم يجد؟ قال: يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يُعين ذا الحاجة والملهوف، قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير، قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشرّ فإنها صدقة» متفق عليه.

وقال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليه» رواه مسلم.

●●●

(١) محمد أسد (الإسلام على مفترق الطرق) ص٢١، ٢٢، ترجمة د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ط٨، سنة ١٩٨٤م.

بسم الله الرحمن الرحيم

من فلاسفة التنوير الفرنسي فولتير وروسو (رؤية نقدية)

نبدأ بـ (فولتير) وقد مرّ بنا كيف كان يغيّر آراءه ومواقفه تبعًا لأهوائه!

وكان من آرائه التي عرضها في الرسائل الفلسفية الهجوم العنيف على النظام الكنسي، والحملة العنيفة على اليهود، والسخرية من اعتبار أنفسهم شعب الله المختار، والانتقاد اللاذع لبعض نصوص العهد القديم المتعلقة بقصص الأشياء باعتبارها مدسوسة على التوراة [1].

ومع محنة التنويريين التي أشار إليها الدكتور جلال أمين آنفًا بمحاولة الدفاع عما يُسمى «بالتطبيع» هل ستراهم يستمرّون في اتباع فولتير بهجومه العنيف على اليهود؟ وهو ما هو بمكانته ضمن فلاسفة عصر التنوير!

أما عن جان جاك روسو، فقد عُرف بأشهر كتبه، وهو (العقد الاجتماعي) الذي ظهر سنة ١٧٦٢م؛ حيث عمد إلى بحث (أصل نشأة الدولة)، وهو قائم على أن الدولة ترجع في أصل نشأتها إلى «عقد» اتفق الأفراد بمقتضاه على الخروج من تلك الحياة الطبيعية البدائية التي كانوا يحيونها في البداية، وكانت حياة عزلة وانفراد لا يخضعون فيها لسلطان عليهم، وليست فيها قيود تقيّد حريتهم، كما اتفقوا على تكوين مجتمع سياسي يخضع لسلطة عليا، أي أنهم «تعاقدوا على إنشاء دولة» [2].

إن ما ساقنا الحديث عنه هو الرغبة في إيقاظ التنويريين من غفلتهم، وإنقاذهم من الفتنة الغربية -إن صح التعبير- ولفت نظرهم إلى فكره السياسي الذي يعتبر في نظر أهل

---

(١) د. أحمد صبحي ود. صفاء عبد السلام (في فلسفة الحضارة -اليونانية- الإسلامية- الغربية) ص١٣٢، ط، دار الوفاء بالإسكندرية سنة ٢٠٠٦م.

(٢) لشمس عثمان (دولة «الفكرة» التي أقامها رسول الإسلام ﷺ عقب الهجرة) ص٦٣، ط مكتبة وهبة بالقاهرة بدون تاريخ، وروسو له كتب أخرى (الاعترافات) و(أحلام المتنزه المنفرد) و(التربية).

أوربا (أبا الديمقراطية الحديثة) هذا المفكر كان مسبوقًا منذ قرون بعلماء الإسلام وفقهائه، الذين قالوا بأن (الإمامة فى النظام السياسى الإسلامى، عبارة عن العقد فى عرفهم، له مدلوله الخاص كما قال عنه الفقيه الدستورى الدكتور السنهورى فإنه «عقد حقيقى مستوف للشرائط، من وجهة النظر القانونية، ووصفه بأنه مبنى على الرضا، وأن الغاية منه أن يكون هو المصدر الذى يستمد منه الإمام سلطته وهو تعاقد بين الأخير والأمة»[1].

ويتّضح من ذلك أن مفكرى الإسلام قد أدركوا جوهر نظرية «روسو»، وهى التى تقول: إن الحاكم أو رئيس الدولة يتولّى سلطانه من الأمة نائبًا عنها، نتيجة لتعاقد حر بينهما، وأنهم عرفوا نظرية «السيادة» كما عبر عنها «روسو» فيما بعد، ولكن هناك فارقًا جوهريًّا، فإن العقد الذى تكلم عنه «روسو» -كما يقول الدكتور الريّس- كان مجرد افتراض؛ لأنه بناء على حالة تخيلها فى عصور ماضية سحيقة، ولا يوجد عليها برهان تاريخى، بينما نظرية العقد الإسلامية تستند إلى ماض تاريخى ثابت: هو تجربة الأمة فى خلال العصر الذهبى للإسلام وهو عصر «الخلفاء الراشدين»، يوم كان الأمر كما وصف أمير الشعراء «شوقى» فى هذا البيت:

والدين يسـر، والخـلافـة بيـعـة والأمر شورى، والحقوق قضاء[2]

وفيما عدا التنبيه إلى هذه الحقيقة، فلا يعنينا روسو فى شىء؛ لأن من يقرأ سيرة حياته يجد أنه حمل نفسه على المهالك فهى سيرة منفّرة تشمئز منها الفطر السليمة(*).

(١) د. محمد ضياء الدين الريس (النظريات السياسية الإسلامية) ص١٦٦، ط٣ دار الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠م.

(٢) نفسه ص١٦٧.

* هناك بعض الأمثلة: منها علاقته بفتاة تسمى (تريز) من أتعس ما مُنى به روسو فى حياته، وبالأخص فى أخرياتها، فقد بقيت أمراضه النفسية كميله للوحدة وسوء ظنه بالناس، وعدم ثقته بأحد منهم تقوى حتى وصلت به أخيرًا إلى الجنون.. كذلك كانت رفيقة حياته سببًا لأكبر الجرائم التى ارتكبها فى حياته -جريمة التنازل عن أولاده لملجأ اللقطاء، فضلاً عن سلسلة من الجرائم التى ارتكبها[1]، وكان أسقف باريس قد وصفه بقوله: «مجهود روسو إذن ضائع ودعوته للخروج على قواعد العصر ثورة طائشة لا نتيجة لها ولا أثر لها. فما دامت تعاليمه وما دامت تعاليمه فى وجه الدين ومساعيه تربية الطفل لن تحمل الناس إلا أكثر حرصًا على المسيحية وتمسكًا بها، فمن الحمق اتباعه، ومن الجريمة عدم الوقوف فى وجهه»[2].

(١) د. محمد حسين هيكل (جان جاك روسو: حياته وكتبه)، ص٥٧، ٥٥، ط، دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٠م.

(٢) نفسه ص٢٦٣.

إن النهاية البائسة لتفضح لنا زيف (التنوير الغربي) على الملأ؛ إذ ختم عمره بـ (ظلمة) أو (ظُلمات الجنون)!

مجمل القول: إن الحكم الفاصل على عصر التنوير برمته أتى على لسان الفيلسوف الألماني شبنجلر الذي اعتبره نذيراً لسقوط الحضارة؛ حيث يرى أن مسار التعاقب الدوري للحضارات يشبه توالي أحوال الكائن الحيّ من ولادة ونمو وشيخوخة وفناء، ويشبّه شبنجلر حياة كل حضارة بتوالي الفصول الأربعة: ربيعها فترة البطولة.. صيفها: ظهور القيادات المتوثبة الطموحة.. الخريف: مرحلة النضج الكامل للينابيع الروحية الثقافية وبالبوادر الأولى للشيخوخة.. فيها الفلسفة التي تتحدّى الدين والقيم السائدة باسم (التنوير).. ولشدة إعجابه بالشاعر (جوته) يؤيده في القول بأن كل تقدم فكرة لا يقابله تسم روحي فهو خطر.. وعندما تسيطر الاتجاهات اللادينية فإنه عصر تدهور واضمحلال، لقد استحالت الوسائل إلى غايات، وأصبح الإنسان تابعًا للآلية.. ويعقّب شبنجلر على ذلك بقوله: إن تلازم عصر تنشر فيه المذاهب اللادينية مع التوسع الاستعماري العالمي، يعني أن ذلك عصر تدهور واضمحلال، ويستحيل تجديد شباب هذه الحضارة، كما يتعذّر استرجاع شباب الكائنات العضوية، لا يمكن أن نفعل شيئًا إذا كنّا قد وُلدنا في أول شتاء هذه الحضارة، وأنها ليست أزمة طارئة ولكنها مأساة لا يمكن تجنبها إذْ لا مفر من المصير [(١)].

وإن جاز لنا التعليق فإن شبنجلر لم يكن هو مبتكر نظرية التعاقب الدوْري للحضارات، بل سبقه إليها ابن خلدون؛ إذْ تصوّر التعاقب في شكل بداوة ثم ازدهار ثم تدهور، ويقول: «إننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب واتصال الأكدان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى

---

(١) د. أحمد صبحي (في فلسفة التاريخ) ص٢٢٣/ ٢٢٤/ ٢٣٠ باختصار، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ط٣، سنة ١٩٩٠م، وشبنجلر (١٩٣٦م) تخصص في العلوم الطبيعية والرياضية، درس في جامعة برلين ثم ميونخ.. يُعد كتابه «انحلال الغرب» أهم كتبه على الإطلاق، وقد لقي اهتمامًا كبيرًا في زمنه (ص٢١٧).

بعض»[1]، وقد طبق على مسار التاريخ ما يماثل ما طبقه الأصوليون على قضايا الشرع من مصطلحات مثل: قياس الغائب على الشاهد، قياس الأشباه والنظائر، تعليل المتفق والمختلف.. ومن ثمّ اتخذ التعليل عنده صفة الضرورة، الأمر الذى جعل نظريته تتصف بالحتمية التاريخية، إنه يؤكد دائمًا أن ما حدث هو سنّة الله تعالى فى خلقه. إنه على سبيل المثال إذا كانت الدولة فى دور انحطاطها كان ذلك كالهرم فى الإنسان أمرًا طبيعيًّا لا يتبدل -وإنه حتى إذا تدارك بعض أهل الدول ذلك التدهور بالإصلاح- فإنّ الأمر لن يزيد إلا عن ومضة المصباح قبل انطفائه توهم أنها اشتعال، وهى انطفاء.. ولكل أجل كتاب[2]، وذلك فإن الحتمية التاريخية واضحة فى آرائه وفى الآيات القرآنية التى نختم بها فصوله: ﴿سُنَّةَ اللهِ ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ ص١٢١.

ولابن خلدون -لمن لم يعرفه من القرّاء- مكانة مرموقة عند بعض مؤرّخى الغرب وفلاسفته، وإذ ننقل هنا أوصافهم له، فبدافع جذب القراء للاطّلاع على (المقدّمة) ففيها الكثير النافع من العلوم الإسلامية، وبخاصة (علم الاجتماع)، و(فقه التاريخ): يقول نيكسلون: «لم يسبقه أحد إلى اكتشاف الأسباب الخفية للواقع أو إلى عرض الأسباب الخلقية والروحية التى تكمن خلف مسطح الوقائع أو إلى اكتشاف قوانين التقدّم والتدهور»، وكتب عنه توينبى أنه لم يستلهم أحدًا من السابقين ولا يدانيه أحد من معاصريه، بل لم يترقب الإلهام لدى تابعيه مع أن فى مقدمته للتاريخ العالمى قد تصورّ وصاغ فلسفة للتاريخ تُعد بلا شك أعظم عمل من نوعه.. ووصفه روبرت فلنت أنه لا العالم الكلاسيكى ولا المسيحى الوسيط قد أنجب مثيلاً له فى فلسفة التاريخ.. إنه يثير الإعجاب بأصالته وفطنته.. بعمقه وشموله، لقد كان فريدًا ووحيدًا بين معاصريه فى فلسفة التاريخ.

ويرى الدكتور أحمد صبحى أن هناك دروسًا كثيرة بعث بها إلينا ابن خلدون، ومنها

---

(١) نفسه ص١٢٣.

(٢) فصل في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع: المقدمة ص٢٦٠، ٢٦١، تحقيق د. عبد الواحد وافي -نقلاً عن د. أحمد صبحي في فلسفة التاريخ ص١٢٤، ط٣، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٠م.

على سبيل المثال -لا الحصر- الرأى الرائع الذى يبحث به عبر التاريخ إلى أولئك الذين يرون أن تكون القومية العربية علمانية (فصل فى أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة) ص١٣٤.

التنوير الألمانى:

كانت هناك حركة تنوير «ألمانى» بدأت قرابة عام ١٦٥٠، وانتهت قرابة عام ١٨٠٠، ولكنها اختلفت عن حركات «التنوير» الأخرى بالقارة الأوربية؛ إذ لم يكن لدى ألمانيا أية توترات بين طبقة النبّلاء بها، وبين الطبقة المتوسطة، كذا لم تكن تعانى صراعًا دينيًا.. ولعل أبرز رواد حركة «التنوير» الألمانى هم لا يبنتس وكانط جوته [1].

ومما يثير التساؤل -عند عرض بعض آراء فلاسفة التنوير الألمانى هو: لم أعرض التنويريون العرب عنهم، فلم يُعنوا بترديد أسمائهم كما فعلوا مع نظرائهم الفرنسيين؟

تقتضى الإجابة عرض بعض النماذج فى نظر المفكر الألمانى هيجل للإسلام مثلاً فى كتابه (دروس فى فلسفة التاريخ) يصف الإسلام بعبارات شاعرية رقيقة، كان منها أن الإسلام هو «ثورة الشرق الذى حطمت كل خصوصية وتبعية تثير وتطهر الروح، جاعلة من الواحد الأحد شيئًا مطلقًا، ومن الوعى الذاتى الصافى، ومن علم هذا الواحد الأحد النهاية الوحيدة للحقيقة.. إن حماسة المسلمين هذه كانت قادرة أيضًا على كل نوع من السّمو. وهذا السمو المحرّر من كل الحسابات الدنيئة ممزوج بكل فضائل كبر النفس والبسالة» [2].

ولأول وهلة يبدو أن هيجل لا يلقى القبول من التنويريين العرب؛ حيث يكشف موقفه من الإسلام عن المدح والثناء مما يخالف مواقفهم!

---

(١) إين بوروما وأفيشاي مارغاليت (فقه الاستغراب- الغرب في عيون أعدائه) ص٢١٦؛ ترجمة أحمد أبو الليل- طبعة سطور الجديدة سنة ٢٠١٦م.

(٢) د. ياسر خفاجي (لماذا يكرهونه؟! الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ) ص١٨، كتاب (البيان) -مجلة البيان- الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

أما عن كانط، فالأمر يحتاج إلى بيان موقفه من العقل بكتابه الشهير (نقد العقل الخالص)؛ حيث أدّى نقده للعقل إلى شيء من التشكيك في مقدرة العقل النظري [1].

يقول الدكتور هوفمان: «لم تكن أعمال كانط ضد الدين بقدر ما كانت موجهة ضد الكنيسة، فلم يدلل كانط -ولم يرغب أصلاً في التدليل- على عدم وجود الله في عمله (نقد العقل ١٧٨١)، ولكن أراد نفي إمكانية الاعتماد على تصورات ميتافيزيقية تتعدى نقد المعرفة، وبالتالي تتحول حتمًا إلى لعب بالألفاظ كما كان سيقول فيتجنشتين، لقد لجأ كانط في عمله التالي عام ١٧٨٨، «نقد العقل العملي» إلى أن المسلّمة [الله تعالى] ضرورة لمسيرة المجمع [2].

هذا، ولقد استخدم فيتجنشتين (١٨٨٩-١٩٥١) منهجه في نقد اللغة وعلم الوجود، ليوضّح قصور اللغة عن ما وراء الطبيعة.

وقد أصاب الدكتور هوفمان في تقديره للمذهب الحنبلي بالالتزام بالنصوص والبعد عن التأويل والذى أحياه ولى الله الدهلوى (١٧٦٣) ومحمد عبد الوهاب (١٧٨٧)، وحركة السنوسى فى ليبيا ١٩٣٠، والجماعات الإسلامية فى باكستان، وحجّته فى ذلك أن حقائق ما وراء الطبيعة تتجاوز نطاق مداركنا العقلية والحسية والحدسية التى لا يمكن أن نفهمها إلا فى نطاق إمكاناتنا وحدودنا البشرية؛ حيث تستعصى تلك الحقائق على اللغة كما تستعصى على إدراكنا؛ لذلك يقوم الرسل بتوصيل ذلك لنا [3].

وفى موضع آخر يقول أثناء نقده للفلاسفة: إنهم لم يبرهنوا بشكل قاطع إلا على مسألة واحدة فقط، وهى أننا لا نستطيع من خلال منطقنا الإنسانى أن نصل إلى

---

(١) إن إثبات كانط لقصور العقل عن معرفة ما فوق طوره لا يوافق هوى العلمانيين العرب الذين يغالون في تقدير العقل، و(العقلانية)!

(٢) د. مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة -ديانة في تصاعد)، ص٢٢.

(٣) د. مراد هوفمان (الإسلام كبديل) ص٦٩.

إدراك حقيقة المجهول بشكل يقيني . . وإذا كان وجود الله تعالى خارج حدود الزمان والمكان، فما الذي يمكننا أن نعرفه عنه حقًا بتساؤلاتنا العقلانية أو اللامنطقية؟

ثم يقرّر بحسم وقطع بأنه حتى الحقائق المدركة بالحس مثل التي ندركها بالشم أو اللمس أو الرؤية، لا تزال مستغلقة على الفهم.

وبعبارة أخرى: (لولا الوحي لظللنا عميانًا) [1] . كذلك أصاب كبد الحقيقة عندما اكتشف طريقة ازدواج المعايير لدى الغرب عند تعامله مع الإسلام فقال: «وإذا كان قبول المفكرين والباحثين عن المعرفة قبول كانط وفيتجنشتين عن الحدود الضيقة لمدارك الإنسان ومنطقه، هو علامة ذكائهم، فلماذا نتّهم المسلمين بالغباء إذا عملوا بنفس القول فيما يخص آيات من وراء الطبيعة في القرآن» [2]؟

وبعد، فإن كانت هناك ضرورة لمعرفة الصواب فيما أثاره كانط حوله من نقاش عن نظرية المعرفة بكتابه (نقد العقل الخالص) تلك النظرية التي شغلت الفلاسفة والعلماء، وربما سبقه الغزالي بكتابه (تهافت الفلاسفة)، وهو ما أثار اهتمام الدكتور محمد أبو ريدة -وكان يتقن اللغة الألمانية- فعكف على دراسة مدى التشابه بينهما؛ إذ لاحظ أن بعض العلماء ربط بين نزعة كانط النقدية وبين آراء للغزالي، كما فعل العلاّمة الإسباني آسين بلاثيوس؛ مما دفعه ليبحث مصدر معرفة كانط لآراء الغزالي، وقد عرفها من الترجمة اللاتينية لكتاب (تهافت التهافت) لابن رشد أو من مؤلفات مفكري العصور الوسطى الكثيرين الذين ردّدوا آراء الغزالي في التهافت؟

يقول الدكتور أبو ريدة: «يوجد بين موقف الغزالي من الميتافيزيقا العقلية سواء فيما يتعلق بالعالم أو النفس أو الإله، وموقف كانط شبه واضح، والذي يصبر على قراءة كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالي، وكتاب (نقد العقد الخالص) لكانط، يلاحظ في

(١) د. مراد هوفمان (يوميات ألماني مسلم) ص٤٧ ترجمة د. عباس العماري - مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٤١٤هـ-١٩٩٣هـ.

(٢) مراد هوفمان (الإسلام كبديل) ص٦٩.

مواضع كثيرة شبهاً في بعض الأفكار وفي الروح [1]، وخصوصاً في محاولة هدم علم الربوبية الفلسفي وعلم الوجود العقلي، وفي نقائض العقل، (وقد لاحظ بعض العلماء شبهاً بين آراء الغزالي وكانط في موضوعات جزئية مثل مسألة الزمان والمكان) [2].

وقد لجأ كانط إلى إثبات وجود الله تعالى عن طريق العقل العملي أو الخُلقي.

وطبقًا لرأيه فيما سمّاه في المجال الأخلاقي (بقانون الواجب) الذي لا يلزم من تطبيقه تحقيق السعادة للإنسان، ولأنه ليس بين الفضيلة والسعادة اقتران علة بمعلول.

فلا بد للإنسان أن يؤمن بوجود إله حكيم خيِّر هو الذي وضع نظام الأشياء نظام الأخلاق يعلم نوايانا الطيبة ويجازينا عليها، ويكون هو الضامن لتحقق السعادة مع الفضيلة.. ولما كانت الإرادة الخيِّرة لا تستطيع في هذه الحياة أن تحقق كل ما يطلبه القانون الخلقي، وكانت لا تزال تريد ذلك، فإن الموت لا يمكن أن يكون نهاية حياة الإنسان، ولا بد أن تكون الروح خالدة لكي تستطيع مواصلة طموحها والاقتراب من غايتها. وهذا يكون بطبيعة الحال في حياة أخرى.

وبعد أن حسم الدكتور أبو ريدة هذا الجدل العقيم بين كانط والفلاسفة القدماء وإثباته تشابه أفكاره مع الغزالي.. أفرد بحثًا تحت عنوان [وكان الإسلام نقطة تحول كبرى في تاريخ الدين المنزل..] فقد جاء فيما يتعلق بالألوهية وبالمفهوم الواضح الكامل للإله، بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة.. إذ إن القرآن الكريم عندما يتكلم عن الإله وصفاته وأفعاله وتدبيره لهذا العالم ينبّه إلى النظر في آيات الكون، وفي نفس الإنسان أيضًا يقول تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢١-٢٢].

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٤]، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ

---

(١) ونرجح أن الدكتور أبو ريدة اطلع على كتاب كانط بلغته الألمانية ولم يكتف بترجمته، ومن هنا نلاحظ الربط بين الأفكار والروح!

(٢) د. محمد عبد الهادي أبو ريدة (الإيمان بالله في عصر العلم) ص٦٨، تحقيق د. [illegible]، كتاب (مجلة الأزهر)، رمضان سنة ١٤٣٧هـ - يونيو سنة ٢٠١٦م.

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [فصلت: ٥٣] ﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وتدل آيات كثيرة فى القرآن على أن المقصود مما يشاهده الإنسان فى نفسه وفى نشأته وتقلبه فى مراحل الخلقة، وبنيته وأعضائه وجوارحه، إلى جانب ما يدركه الإنسان فى حياته الباطنة، حياة الفكرة وحياة النفس بالمعنى الواسع لها بتبين الحكمتين [١].

وهذا ما يدفعنا إلى تعقيب مختصر نعرض فيه لتعريف العقل ووظيفته، وبيان انحراف العقلانيين في غلوهم في تصورهم للعقل.

تعقيب:

تعريف العقل:

إنّ العقل بالاصطلاح البيولوجى طبقًا لعلم وظائف الأعضاء «هو قدرة الذكاء التى يستكشف الإنسان المبادئ العامة، ويصلها بحقائق معينة، فيتمكن من أن يتناول بالدرس أفكاره وآراءه، بل محيطه وبيئته، ومنها القدرة على جرّ الماضى إلى الحاضر عن طريق الذاكرة ورسم صور المستقبل عن طريق التخيّل، ومنها الفصل بين الفكرات والأشياء وتوليفها فى قوالب من الفكر المجرد»[٢].

وفى التفرقة بين العقل والروح، يتضح أن العقل ليس روحًا. إنه منطقى بارد الأنفاس، مصوغ فى جوهره على الرياضيات.. ولقد يفخر الإنسان بأنه مخلوق (عقلانى) ولكنه غالبًا ما يتصرف تصرفًا (لا عقلانيًا)، وأنه مما يبهته ويذله ويحقره أن يجد أن أفعاله كثيرًا ما تتجه رأسًا إلى العكس مما يرشده إليه العقل [٣].. أو بعبارة أخرى يخضع لأهواء النفس.

أما عن صلة العقل بالغرائز، فإنه يقف أحيانًا موقف العاجز عن قهرها ما لم يتسلّح بالتقوى.

(١) نفسه ص٧٣، ٧٤.

(٢) أدمولد و. سينوت (حياة الروح في ضوء العلم) ص١٤٧، ترجمة وتقديم إسماعيل مظهر -مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠م.

(٣) نفسه ص١١١.

وكما أن العقل يعجز عن إدراك ما فوق طوره -كما يذكر ابن خلدون - فإنه يعجز أمام الغرائز التي لا تنضبط إلا بقوة القانون، أو الشّرع الإلهي المنظم لحياة الإنسان والكفيل بسعادته، يقول ابن خلدون: واتّبع ما أمرك الشارع من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفعك؛ لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك»[1].

ومثال الذي يريد الاكتفاء بالعقل مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فيطمع أن يزن به الجبال، فهذا لا يدلك على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله تعالى وبصفاته، فإنه ذرّة من ذرات الوجود الحاصل منه، وتفطّن في هذا غلط من يقدّم العقل على السمع، أي الوحي، في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه [2].

ويقول الدكتور حسين غانم: «إن العقل مجرد أداة يكشف فقط عن حقائق الوجود دون أن يُنشئها، لأنه لن ينشئ إلا أوهامًا، وهذا فضلاً أن العقل يتّسم بالقصور وتلحقه سلبيات اتباع الهوى والتحيّز، ومن ثمّ لا بد أن يستعين في دوره كأداة بمصادر ثابتة للمعرفة وهو النقل أو الوحي[3].

ونعود لاستكمال دراسة قضية التنوير الألماني؛ إذ نستقرئ من كلّ ما تقدّم سبب انصراف التنويريين العرب عن كانط؛ لأنه يفضح موقفهم من الغلوّ في العقل و(العقلانية) مما لا يتفق مع هواهم!

أمّا الشاعر (جوته) فإن الحديث عنه ممتع؛ إذ عبّر بأقواله وأشعاره عما يكنّه في نفسه من إجلال وتقدير للإسلام ونبيه ﷺ، حتى قيل: إنه أسلم، وكان له أثره الكبير في معاصريه ومن جاء بعده.

يصف محمد إقبال موقف جوته من القرآن الكريم بقوله: «إن الهدف الرئيس للقرآن

---

(١)، (٢) المقدّمة ص٣٨٤.

(٣) د. حسين غانم (صراع القيم) ص٥٤، ط، دار المنار الحديثة - شبرا مصر سنة ١٩٩٤م.

الكريم هو أن يوقظ فى نفس الإنسان شعوراً أسمى بما بينه وبين الخالق -عز وجل- والكون من علاقات متعددة. ولقد كان هذا المنزع التعليمى للقرآن هو الذى جعل «جوته» وهو يستعرض الدين الإسلامى بوصفه قوة مهذبة مؤدبة. يقول لإكرمان: «أنت ترى أن هذا التعليم لا يحقق أبداً، ونحن بكل ما لنا من نظم لا نستطيع، بل أقول بوجه عام: إن أحداً من البشر لا يستطيع أن يذهب أبعد من هذا»[1].

ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار: وقد عكف كبار الكتّاب الغربيين على قراءة القرآن، وقد تأثر به كثير منهم، فقد قرأ «جوته» القرآن فى ترجمة ألمانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته «فرانكفورت» المستشرق العلامة «مرجوليثا» عام ١٨٨٢م، حتى إذا ما فرغ منها عكف بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها طبعها فى مدينة «بادوا» فى الشمال الشرقى من إيطاليا القس الجزوينى «ماراتشى Marracci» عام ١٦٩٨م، وأعيد طبعها عام ١٧٢١م بمدينة «ليبزج» الألمانية.

وما إن أتم «جوته» تلاوة القرآن فى الترجمتين حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية نقلاً عن الترجمة الألمانية. ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألمانى من الآيات بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الأولى بمعرفة «شول Sholl» عام ١٨٤٦م، وهذه الآيات قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وَمَثَلُ

(١) محمد إقبال (تجديد التفكير الدينى) ص١٥/١٦ ط، لجنة التأليف والترجمة بمصر ط، سنة ١٩٦٨م.
تعقيب: حافظنا على النص المقتبس بحذافيره، ولكن يبدو أن المترجم أخل بمعانى الأصل؛ إذ يُفهم من قول جوته عجز نظام التعليم الإنسانى عن تحقيق ما يفعله الإسلام.

الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة: ١٧١]، ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكلها من سورة البقرة.

ثم من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ومن سورة النساء: ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ [النساء: ١٤٣].

ومن سورة المائدة: ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦]، ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم (١٠١) قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٢].

ومن سورة الأنعام: ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ومن سورة يونس: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

ومن سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥].

ومن سورة العنكبوت: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٣-٤٤]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وقد ظلّ جوته طويلاً يمعن في دراسة القرآن إمعان الباحثين وهو يقول: إن القارئ الأجنبي يمله لأول قراءته، ولكنه يعود فينجذب إليه، وفي النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم. ويستشهد جوته في كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٢-٧].

ويقول جوته: إن القرآن يردد قواعد هذه التعليم ويكرر التبشير والنذير سورة بعد سورة، وهو لا يرى في هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون؛ لأن محمداً ﷺ لم يرسل برسالة شاعر للتفنن في القول والتنويع في ضروب الكلام وعرض الصور المزوّقة من المخيلة والأوهام لاستحداث اللذة وإدخال الطرب، بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف، وإنما محمد ﷺ نبي مرسل لغرض مقدّر مرسوم، يتوخّى إليه أيسر وسيلة وأقوم طريق، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها، فالكتاب المنزّل على محمد ﷺ إنما بُعث به إلى الناس ليقتضيهم القنوت والإيمان؛ ومن ثمّ نراه إذا ما عرض للقصص الديني لم يعرضه معرض

التاريخ والأخبار، بل يشتمل منه على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار.

ويظهر في شعر جوته الأخير الذي أسماه «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» تأثره بالقرآن في روحه وعباراته.. فالقارئ المسلم لا يسعه إلا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحدة حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته:

«لله المشرق ولله المغرب وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعًا. هو الحق وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى. وتبارك اسم الحق وتعالى علواً كبيراً، آمين. ينازعني وسواس الغي وأنت المقيد من شر الوسواس الخنّاس، فاللهم اهدني في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم، ومهما زيّنت النزعات والشهوات فالنفس لا تذهب شعاعًا ولا تضيع ضياعًا، ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والإباء تنطلق عارجة إلى أوج العُلا».

«وللناس في ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير، هذا يفعم الصدر وهذا يفرج عنه كذلك الحياة عجيبة التركيب، فاشكر ربّك إذا بُليت، واشكر ربك إذا عُوفيت».

ويعمد جوته أحيانًا على التضمين الصريح، ومن ذلك تضمينه للآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ...﴾ [البقرة: ٢٦]، فيقول في مقطوعة له بعنوان التشبيه:

«لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء، والله لا يستحيي أن يضرب مثلاً للحياة ببعوضة؟!

«لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء، والله يجلو لي في جمال عيني الحبيبة لمحة من جمال رائعة عجيبة؟!».

ويقول جوته في بعض أشعار الحكمة من ديوانه: «من حماقة الإنسان في دنياه... أن يتعصّب كل منا لما يراه.. وإذا الإسلام كان معناه التسليم لله.. فإننا جميعًا نحيا ونموت مسلمين»[1].

(١) عبد الحميد جودة السحار (أضواء على السيرة النبوية ومقارنة بين الأديان) ص١٥٨/ ١٦١، ط، مكتبة مصر بالفجالة سنة ١٩٦٥م.

اختلاف طبيعة الأزمة المعاصرة بين العالمين، الإسلامى والغربى:

للصحفى السويسري دوباسكويه مقارنة دقيقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

فبالمقارنة بعصور الإسلام المفضّلة الأولى يدرك المسلمون المعاصرون بصفة عامة أنهم يعيشون بطريقة أزيحت بعيداً عن مثاليات التنزيل، ولم تعد تعبّر عن ممارسة الإسلام بنموذجية كاملة كما كان فى عهد النبى ﷺ وخلفائه الراشدين ولكنهم يتطلعون بحنين جارف لتلك السنين.

ويمر العالم الإسلامى بأزمة، ولكن انحرافه مختلف جدّ الاختلاف عن أزمة الغرب الصناعى، فليست أساساته الأخلاقية والروحية رهن التحدى بنفس الطريقة، وتحتفظ الغالبية العظمى من المسلمين بإيمانهم التقليدى. الأزمة التى تمرّ بها البلاد الإسلامية أزمة مادية -ويرجع الفقر إلى ما خلّفته القوى الاستعمارية من بؤس فظيع فى بعض بلاد آسيا.

ولكن الإسلام ما زال يقدّم، سواء فى الغرب الغنىّ فى الماديات والفقير فى الأخلاقيات، أو فى بلاد العالم الثالث الفقير فى الماديات، أشفى وأكثر الحلول جذرية ووضوحاً للتحدّى المعاصر [1].

ويوجّه تحذيره لبعض المسلمين الذين يسمّون أنفسهم تقدميين ومحاولتهم اتباع الحداثة الغربية؛ لأنها هى السبب فى الأزمة العالمية الحاضرة، وقد نشأت بروح منافية للإسلام [2] بل والمسيحية. قد حققت انتصارات باهرة فى الدنيا، ولكنها حرمت المبادئ السامية، وبمجافاة السماء عجّلت انهيار إنسانيتها وتهدد بكارثة عالمية لا تستطيع الحضارة الإسلامية على الإطلاق المبادرة بمثل هذا التطور بدون خيانة نفسها.

وهو يتوجّه إلى المسلمين لاسترداد الثقة بأنفسهم، فيذكر أن هناك اتجاهاً دائباً للمبالغة فى الزعم

(١) روجيه دوباسكويه (إظهار الإسلام) ص٢٦، ٢٧.

(٢) نفسه ص١٥٤.

بعقم الحضارة الإسلامية والتهوين من شأنها خلال القرون الأربع الماضية[1]، مع أن أبدع عمارة للمساجد مثل تلك التى بناها سنان فى تركيا، أو مسجد الشاه فى أصفهان ترجع للقرنين السادس والسابع عشر، بل فى الخلافة الأموية تطوّر الفن الاسلامى؛ حيث شيّد الخلفاء أثرين عظيمين يعبران عن المرحلة الأولى للفن الاسلامى المقدس؛ قبّة الصخرة المعلقة فى بيت المقدس، والجامع الأموى فى دمشق، وأحد أعظم الإنشاءات العمارية على مر العصور -تاج محل- بناه أمير مسلم فى أجرا فى الهند فى عهد لويس الرابع عشر، كذلك لم تكن عبقرية الحضارة المغولية ميّتة عندما سقطت الهند تحت السيطرة الغربية.. وباستحضاره للعلوم فى الحضارة الإسلامية كالطب والرياضة والفيزياء والكيمياء والفلك، فذكر أنها شكلت أساس التقدم العلمى المعاصر، وبدون إسهام العلماء المسلمين لم يكن لعلماء أوربا أن يتوصلوا لأفكارهم الحديثة في الفلك والكون[2].

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الإسلام خاتم التنزيل الإلهى ينتشر فى وقتنا الحالى بالعناية الإلهية[*]، ويعطى عصرنا المظلم أشعة الشمس الأخيرة ليوم ذاهب ذابل، تعبيراً عن الرحمة الإلهية التى تنادى البشر حتى نهاية العالم، ثم يقرّر بأنه إذا ظهر ازدياد معتنقى الإسلام اليوم، فإنه يبقى فى تعارض مع الاتجاهات الهدّامة فى الحضارة العلمانية الحديثة، وقد يكون أهم القوى التى تقاومها[3].

ألا يحق لنا بعد هذا العرض المختصر للتعارض الجذرى بين حضارتين، إبداء شفقتنا على أولئك العلمانيين والمتغرّبين الذين ما زالوا يصرّون على مواقفهم بعد أن تبين لنا زهد المهتدين للإسلام للحياة فى ظل العلمانية فى بلادهم، فنبذوها ولجئوا إلى واحة الإسلام؟!

ولا علاج للتنويريّين العرب إلا الكف عن تعلقهم بأذيال حضارة آيلة للسقوط، والتحرّر من أسرها، ثم الإقبال على تدبر القرآن والسّنة بقلب مخلص، وإعطاء تاريخ الحضارة الإسلامية نفس الجهد والاطلاّع الذى أفنوا أعمارهم فيه بدراسة حضارة الغرب.

(١) نفسه ص١٥٢، ١٥٣.

(٢) نفسه ص ١٣٩، ويقول (ومن المثير للاهتمام أن البيروني توصل لدوران الأرض حول الشمس قبل كوبرنيكس بخمسة قرون، ولم تقم ضده ردود الفعل العدائية التي حدثت فى أوربا ضد نفس النظرية الحديثة -القديمة) ص١٤٩.. وعلّمت الجامعات الأوربية الطب الإسلامي حتى نهاية القرن الثامن عشر (كتاب القانون لابن سينا) وابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية قبل مايكل بثلاثة قرون (١٥١).

(*) إن الإسلام إحدى الدول العظمى الحقيقية، فهو يتمتع بأيدلوجية دينية قوية هيمن أصحابها الأولون على العالم المسيحى فى العصور المظلمة، وربما عادت لتفرض نفسها على غرب جف فى عروقه الإيمان القوى المتحدى بفضل قرارات مجمع الفاتيكان الثاني... وصدرت بعده (وثيقة) بعنوان: «توجيهات لإقامة حوار»

(٣) نفسه ص٩٢.

التحذير الشديد من محاكاة ثقافة أوربا:

وقد ورد ذلك على لسان ثلاثة شهود من مسلمي أوربا الذين عاشوا تجربة الحضارة الغربية، بحلوها ومرّها قبل إسلامهم وعلينا الإفادة من خبرتهم:

الأول: محمد أسد. . الذي يرى أن الإسلام له حقيقة خاصة وله مركزة الثقافي المتميّز بين سائر الثقافات والحضارات الأخرى؛ لأن أساس حضارته هو الوحي ويقول: إن الإسلام فيها ظاهر الحدود تمام الظهور للحياة الفردية والاجتماعية ويمكن أن ينتعش حالما يرجع به إلى الحقيقة الخاصة به. . .

ويمكن أن يُهدم باتخاذ المسلمين ثقافة أجنبية تختلف عنه اختلافًا جوهريًّا في أسسها الأخلاقية. . فالحضارة الغربية إذن لا يمكن أن تكون الوصلة الصحيحة لإيقاظ العالم الإسلامي من سباته العقلي والاجتماعي. . ولو مضى هذا العالم في محاكاة أوربا وإلى اقتباس الآراء والمثل العليا الغربية، فستقطع بالتدريج تلك الصلات التي تربطه بماضيه، فهو من أجل ذلك لا يفقد شيئًا من مركزه الثقافي فحسب، بل من مركزه الروحي أيضًا[1].

وهو لا يقصد بالماضي هنا المعنى التاريخي أي انقضاء القرون السابقة، بل يقصد قطع أصول الحضارة الإسلامية بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أي الوحي الإلهي[2]؛ لأنه بدراسته لتاريخ الحضارات وأصولها بمنهج مقارن، اتضح له عجز الباحث عن بيان توقيت محدّد للحضارات، كل ما يدريه هو تطور إحدى الحضارات عن أخرى سابقة لها، ومثال ذلك أننا نستطيع أن نحدد بدء الحضارة الغربية الحديثة، فإن كل ما ندري عنها أنها تطوّرت شيئًا من حطام الحضارة الرومانية وامتزجت بدين شرقي هو المسيحية، بعد أن عدّلته وجوّدته طبقًا لحاجات الغرب واستعدادات وظروف حياته.

= بين المسلمين والمسيحيين»، واختتمت هذه الوثيقة بالاعتراف بمظالم الماضي التي ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية في حق المسلمين. . . ويرى «موريس بوكاي» أنه قدم تعتيمها إعلامياً بشكل مقصود.
أنتوني بيرجس (المسلمون قادمون أو ١٩٨٥)، ترجمة أحمد صديق ومحمود عبد الحليم، ط الزهراء للإعلام ١٤٠٨م - ١٩٨٨م.

(١) محمد أسد (الطريق إلى الإسلام) ص٨٥، ٨٤، ترجمة: عفيف البعلبكي، ط، دار العلم للملايين.

(٢) يقول: «ونحن ندرك بسهولة أن الحضارة الإسلامية أتم ما عرفه التاريخ من أشكال الدولة الإلهية فالاعتبار الديني ووجهة النظر الدينية، يسود هنا كل شيء، ويظهر في أساس كل شيء».
محمد أسد (الإسلام على مفترق الطرق) ص٣١، ترجمة عمر فروخ ط٨، سنة ١٩٧٤، دار العلم للملايين-بيروت.

وليس هناك من العلماء من يستطيع أن يحدد تحديداً قاطعًا حقبة معيّنة من حقب التاريخ أو حتى قرنًا بذاته ليقول: هنا وتحت هذه الظروف بدأت الحضارة الغربية.

وتنسحب هذه الظاهرة على غيرها من الحضارات: حضارة الكلدانيين والبابليين والمصريين، وحضارة إيران وآشور، وعلى كل ما شاهد البشر من حضارات.

وبعد هذه الدراسة المستوعبة لنشأة الحضارات وتطورها، اكتشف الأستاذ محمد أسد أن حضارة الإسلام ظاهرة خارقة لا تخضع في النقد التاريخي لشيء من نواميس الحضارات وقوانينها، فيقول: «فلقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانبجاسها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار، وقد جمعت في فجر نشأتها كل المقوّمات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة، فقامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعي الكامل، وله منهجه المحدّد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع، وهي وليدة حدث تاريخي فذ، هو تنزيل القرآن الكريم، وكان مردّها إلى رجل فذ في التاريخ، هو رسول الله ﷺ، وأدرك أتباعه أن الدين الجديد الذي جاءهم به القرآن الكريم يتطلّب منهم هجرة بائنة إلى ما جاءهم به عما توارثوه من عقائد الحياة، وما ألفوه من مناهج السير فيها»[1].

إن محمد أسد استوعب ذلك نتيجة دراسته للقرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ واللغة العربية وتاريخ الإسلام، واطّلاعه على الكثير من الكتب عنه أو الرد عليه فضلاً عن خمس سنوات قضاها في الحجاز ونجد -وأكثر من ذلك في المدينة، فتمكن بعد لقائه بكثير من العلماء بمعرفة وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم في أيامه.

ولا شك أنه عثر على حديث الرسول ﷺ: **«تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض»** صححه الألباني.

---

(١) محمد أسد، مقال بعنوان (أصول حضارة الإسلام) ص١٤٧، باختصار من مجلة (المسلمون) العدد الثاني ٤٣ السنة الأولى.

لذلك كله كان حريصًا بشدة على توعية المسلمين بضرورة التمسك بهذه الميزة الكبرى التي تنفرد بها حضارة الإسلام، أي ارتباطها الوثيق بالوحي الإلهي- وإلا، لو غفلوا عنه، فإن ذلك سيترتب عليه حتمًا انقطاع حضاري لا مفر منه، فضلاً عن الاضمحلال المؤكد:

قال محمد أسد: «وفي هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الإسلام أن يظل شكلاً أجوف. لقد انقضى بنومه السحري الذي دام أجيالاً، فيجب أن ينهض أو أن يموت (والأولى وصف المسلمين -لا الإسلام- بالنوم)، إن المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق الطرق: إنه يستطيع أن يظل واقفًا، ولكن هذا يعني أنه سيموت جوعًا، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان: «نحو المدنية الغربية»، ولكنه حينئذ يجب أن يودِّع ماضيه إلى الأبد، أو أنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها «إلى حقيقة الإسلام». إن هذه الطريق وحدها هي التي تستميل أولئك الذين يعتقدون بماضيهم وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي»!

وقد قال هذه العبارة في سياق ما قرره من أن الحضارة الغربية لا يمكن أن تكون الوسيلة الصحيحة لإيقاظ العالم الإسلامي من سباته العقلي والاجتماعي، بل إن اتخاذ المسلمين لثقافة أجنبية تختلف اختلافًا جوهريًا من حضارتهم سيؤدي إلى هدم الإسلام.

كذلك اتّضح له من دراسة التاريخ أن هناك فارقًا عظيمًا بين الإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية الرومانية، فقد انقرضت الثانية نهائيًا من هجرات الهون والقوط التي تمت في قرن واحد، ولكن الإمبراطورية الإسلامية المنطوية في الخلافة ظلت صامدة.

بالرغم من الغزوات الخارجية -وأعنفها- غزوة التتار- التي لم تستطع أن تهز شيئًا من النظام الاجتماعي ولا من الحياة السياسية المستمرة في إمبراطورية الخلفاء، مع أنها بلا ريب قد ساعدت على الركود الاقتصادي والفكري في الأعصر التي تلت. وفي مقابل القرن الواحد الذي كان كافيًا لتقويض الإمبراطورية الرومانية، كانت الحاجة

ماسة إلى أكثر من ألف ومائتى عام من الانحلال البطىء، حتى يتم الانهيار السياسي نهائيًا، ذلك الانهيار الذى تمثل فى إلغاء الخلافة العثمانية [1].

والثاني: هو الصحفى السويسرى روجيه دوباسكويه: حيث ذكر أن النظرة العالمية للثقافة الإسلامية تبعث مباشرة من التنزيل أى من الحقيقة الخالدة السامية [2]، وليس من تأملات أو اجتهادات الفلاسفة والمفكرين، ويصف حضارة الإسلام بأنها إلهية، احتفظت دائمًا بوعيها وشهدت على الحقائق العليا التى أسقطت انعكاساتها على العالم السفلى. كان موقفها الأساسى دائمًا، إعمالاً لشهادة لا إله إلا الله، بشكل أو بآخر؛ حيث إنها استحضرت دائمًا العون الإلهى، ولم تعبد أى مخلوق، على النقيض من الفكر المعاصر -خصوصًا العلمانى- الذى يدرك الحقيقة فقط فى النظام المخلوق، ويرى المطلق بطريقة فاسدة تمامًا.. تجسّدت فى الحضارة الإسلامية التى تشبعت بالحس الدينى حكمة منعتها من المغالات: لا تؤله الحضارة الإسلامية الطبيعة، وأنها تعبير من الحقيقة العليا.. وعلى النقيض، فإنها الحقيقة الصارخة أن الحضارة المادية الحالية تمنح قيمة مطلقة للعالم المخلوق، فهى فى الوقت الذى لا تستطيع قراءة آيات الله فيه، وتزيل أى قداسة منه، لتنتهى بتدمير توازنه مع كل العواقب البعيدة -وبشكل صارخ فى البيئة- لهبة الطبيعة.

تملك حضارة الإسلام المقدرة على تحويل الوسط الذى تمتد إليه وتزدهر فيه، وتهيئ أحوالاً للحياة يحسدها الكثيرون من معاصرينا، حتى أولئك الذين يعيشون فى أكثر البلاد

---

(١) نفسه ص٣٦، ولكن لا نوافقه على وصف الدولة الإسلامية فى ظل الخلافة بأنها إمبراطورية فلا يطبق عليها هذا الوصف الذى يشمل تاريخ دول الغرب، لاسيما أن محمد أسد وصفها فى موضع آخر بالدولة الإلهية، وتنبه إلى انفراد الحضارة الإسلامية لأن منشأها الوحى، والأصح القول بأنها دولة عالمية، يقول الدكتور شوقى ضيف: «يذكر القرآن الكريم مرارًا أن كل رسول من رسل الله تعالى أرسل إلى قومه وحدهم ما عدا محمدًا ﷺ إذ قال الله تعالى يخاطبه فى سورة الأنبياء بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وكلمة العالمين جمع عالم بفتح اللام، أى أن القرآن شريعة للعالم كله بجميع أجناسه وشعوبه. وجُمع لفظ عالم للدلالة على الاستغراق، وأنه موجّه للعالم جميعه شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا» د. شوقى ضيف (عالمية الإسلام)، ص١٤، ط١، مكتبة الإسراء ١٩٩٩م.

(٢) دوباسكويه (إظهار الإسلام) ص١٣٤.

تقدمًا، وفوق كل ذلك، يضفى طابعها الروحى مناخًا مقدسًا يؤكد معنى عميقًا لحياة الجميع. تُباح حتى للطبقات المتواضعة فى هذا المناخ التمتع بكثير من المزايا التى تسهّل حياتها المادية، فى حين لا تزال تعتبر نفسها فى هذا العالم عابرة على سفر لعالم آخر دائم.

لم تصل الحضارة الإسلامية للكمال، ولم تخل من الشوائب والبقع السوداء فى الثوب الأبيض.. ومع هذا فهى على الأقل واقعية.. بالطبع لم ينقصها المثالية، ولكنها أخذت فى الاعتبار ضعف الإنسان مع محاولة كبحه، وفى الوقت نفسه تقدّم له أفضل الفرص الممكنة لتحقيق مهمته التى تقوده للخلود [1].

ويقرّر أن الإسلام بحق «دين اليقين»، ويحلل الشهادة التى تبدأ بالنفى «لا إله» ثم تأكيد الحقيقة «إلا الله» فتحدّد مكان المرء أمام الله.

وتقضى الشهادة بالحقيقة المطلقة، ومن ثم الشاملة لله، الامتثال الضرورى –الذى لا محيد عنه– له، والتسليم لمشيئته، وهذا هو تمامًا معنى الإسلام، ومن هنا تأتى الخطوة الثانية، فى ترتيب إلهى يدركه المنطق الإنسانى «محمد رسول الله» ﷺ.. تستمد أهميتها من الشق الأول للشهادة، وتقرر أنه لتحقيق الامتثال والتسليم لله، لا توجد وسائل أفضل من اتّباع رسول الله ﷺ.

ولاتّباع الرسول ﷺ أولاً أن تقبل كل ما فى القرآن وتعمل به، ثانيًا: تمثل لتعاليمه حيث نقل لنا الوحى الإلهى، وتتّخذه أسوة. بأن تكون مسلمًا يعنى أن تسلم لمشيئة الله ليس أكثر من ذلك [2].

---

(١) روجيه دوباسكويه (إظهار الإسلام) من ص١٣٤ إلى ص١٣٦ باختصار وعنون هذا البحث بـ [حضارة التوحيد]، مطابع الشروق سنة ١٩٩٤، وهو صحفى سويسرى شهير.. وله كتابان (صحوة الإسلام) و(الإسلام بين التقاليد والتطور) وحصل عام ١٩٨٨ على جائزة جمعية المؤلفين الفرنسيين.

(٢) نفسه ص١٨/ ١٩ .. وقد أضاف عبارة أخرى أثبتها بأحد تذييلات كتابه ونسبها إلى أحد مسلمى أوربا ويسمى [فريزوف شون].

عن اتباع سنة النبى ﷺ يذكر أنه يقتضى أولاً القوة تجاه النفس، بعدها الكرم نحو الآخرين، ثالثًا: الصفاء والسكينة فى الله ومن خلال الله. يمكن أيضًا القول الصفاء والسكينة خلال الطاعة بأعمق معانيها.. يقتضى أيضًا الاعتدال فى العلاقة مع العالم، والنبل فى أنفسنا ووجودنا، وثالثًا: الصدق بالله وفى الله. ص٦٧ نفسه.

وهو على وعي تام بدور الرسول ﷺ كنموذج للحياة الدينية والروحية، وقيامه بواجباته كقائد سياسي وعسكري للدولة الإسلامية، مؤكداً على حقيقة أن الإسلام لا يفصل بين «ما لله وما لقيصر» . . ففي المنظور الإسلامي كل شيء يرجع لله تعالى، وكل أوجه الحياة الإنسانية تمتثل للشرع الذي ينبع من الكتاب والسنة.

عاش الرسول ﷺ وأنجز مهمته بالاعتبار الكامل للدنيا والآخرة، وأعطى المثل في إمكانية تحقيق الحالة الإنسانية على الأرض بدون إغفال -ولو للحظة- البعد الروحي، وأقام الاتزان الرائع الذي يميِّز المسلم، والذي يسمح له بالتمتع بالحياة الدنيا، دون أن ينسى أننا كلنا راجعون إلى الله تعالى وماثلون أمامه . . وبهذا البيان يقدِّم عصارة الرسالات السماوية السابقة، اختتمت السلسلة النبوية بشكل نهائي. لا يمكن إضافة شيء إلى التنزيل النهائي الكامل، حتى يوم الحساب[1].

ثالثًا: مريم جميلة:

تقول المهتدية مريم جميلة: «إن منهاج الحياة مبني على قيم ثابتة، فالصدق والأخلاق الفاضلة قيم خالدة عامة، فهو موضوعة من الله تعالى لا من الإنسان. فليس من حق الإنسان إذن أن يتلاعب بها، والقرآن بالنسبة للمسلم كتاب الله تعالى، لا كتاب محمد ﷺ يعتقد أن كل كلمة فيه صحيحة حرفيًّا، ويجب أن تُطاع.

والقرآن مصدر كل المعرفة والمجادلة في أي جزء منه تعني رفض الهداية الإلهية، والحديث هو أقوال الرسول ﷺ، والسنة هي أعمال الرسول الكريم ﷺ أساسيان للفهم الصحيح للقرآن، فواحدها ليس له معنى دون الآخر، وطالما أن القرآن هو وحي الله التام المعصوم الأخير للبشر، فالإسلام لا يمكن تعديله أو تغييره. وهو لن «يُمس» أبداً. فالإسلام تام متكامل بنفسه، ولا محل فيه لاختيار الأفضل، والمسلم يعتبر التقدّم هو أن تكون حياته أقرب ما تكون مطابقة لحرفية القرآن وروحه. وهدفه على هذه الأرض ليس هو الفوز الدنيوي بل الإعداد للحياة الآخرة[2].

---

(١) نفسه ص٦٤، ٦٥.

(٢) مريم جميلة (الإسلام في النظرية والتطبيق) ص٤٤، ترجمة: م. س. حمد مكتبة الفلاح، الكويت ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

الميزة الكبرى للحضارة الإسلامية:

هذه الميزة الكبرى تتمثل في العقيدة المنزّلة بالوحي، يقول الدكتور على الخربوطلى: «كان مولد الحضارة الإسلامية في مكة.. حين نزل الوحى على محمد ﷺ في غار حراء يبشره بأنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى العالمين، وأنه حامل لواء الحضارة الإسلامية في العالم أجمع»[1].

وعندما قام الدكتور حسين مؤنس بدراسة عوامل تصدّع وانحلال الحضارات، استخلص منها أن سبب التصدع يرجع إلى أن ضياع الأراضى شيئًا فشيئًا حتى يأتى عليها الأعداء جملة، مع التعرّض لغزو حضارى أقل منها مستوى ولكنه أقوى من الناحية العسكرية المادية، وينتهى بتغيير طبيعة هذه الحضارة تغييراً تامًا، وتقوم جماعات جديدة آتية بعناصر حضارية قليلة، ولكنها تغتذى ببقايا الحضارة الذاهبة، وتنشأ من ذلك حضارة أو حضارات جديدة.. وهكذا حدث للدولة الرومانية عندما انحلت، قامت على أساسها حضارة الغرب الأوربى، وكذلك الدولة الفارسية عندما انحلت وتلاشت وورثت بقاياها الدولة الإسلامية، وحضارة الهند كذلك انحلت، وعلى أساسها قامت حضارة الإسلام في الهند، ثم حضارة الهند المعاصرة، وليس فيها من عناصر الحضارة الهندية القديمة إلا قليل جداً، وحضارات العالم الجديد من أمثال الأندية والأزتيك والمايا، التى تلاشت تمامًا وذابت حضاراتها فى كيان الحضارة الغربية التى غزتها وقضت عليها.

ولكنه استثنى من ذلك كله حضارة الإسلام؛ لأن أساسها ليس عنصراً بشريًا يناله الضعف والبلى، ولكن أساسها العقيدة وهى لا تزال تتجدّد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال، وأداتها هى اللغة العربية، لغة القرآن، وبفضله عاشت وقدّر لها أن تنجو من الضياع، وبفضل الإسلام والعربية ظلت حضارة الإسلام حيّة؛ لأن العقيدة لا تبلى ما دام هناك من يؤسسها، وما دامت العقيدة حية فى عالم الإسلام، فاللغة العربية حية،

---

(1) د. على حسنى الخربوطلى (الحضارة الإسلامية) ص٥، سلسلة (كتابك) العدد ٢٧ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م.

أي أن عنصريْ الحضارة الإسلامية الأساسيين باقيان لا ينال منها كر الغداة ومر العشي وتعاقب الأجناس وتغير الظروف [1]. . وقد شبّه أحد الغربيين عقيدة الإسلام بالشعلة، فقال: «الشعلة التي أضاءها محمد ﷺ لا تزال مشتعلة قوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ»، وأخذ ينصح قومه بقوله: «علينا أن ندرس العرب ونسير أفكارهم لأنهم حكموا العالم سابقًا، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى» [2].

ثم قام الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الإسلام الفاتح) -رحمه الله تعالى- بدراسة في تاريخ البلاد التي فتحها الإسلام بفضائله وقوته الذاتية؛ إذ قال في المقدمة: و«تفكرت نفسي لما كسب الإسلام وما خسر في البلاد والعباد في صراع الزمان، إلى يومنا هذا، فوجدت أن نتيجة الحساب تدعو إلى الاستبشار، فإننا في صراعنا الطويل لم نخسر من الكثير الذي كسبناه إلا القليل: خسرنا الأندلس وصقلية، ومعظم جزائر البحر المتوسط، ولكننا عوضنا هذه الخسائر بمكاسب أخرى، فأدخلنا دولة الروم وبلادها رحاب الإسلام بعد طول صبر وعناء، وامتد الإسلام بنفسه ففتح إفريقية المدارية، وجزءاً طبيعياً من إفريقية الاستوائية، ومدّ ذراعه المباركة فوصلت إلى المحيط الهادي، وضمت إلى أسرة الإسلام بلاد إندونيسيا وماليزيا، وجزءاً لا بأس به من جزائر الفلبين» [3]، ثم ردّد الفكر وشعر بشيء من تأنيب الضمير؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليدخل فيه أبناء آدم -عليه السلام أجمعين-، ورسوله- صلوات الله وسلامه عليه- عندما أنشأ دولة الإسلام في المدينة، وبدأ مغازيه، استطاع في عشر سنوات، أو نحوها أن يدخل في الإسلام جزيرة العرب كلها، وهي وحدها سدس مساحة عالم الإسلام!

---

(١) كتاب الحضارة ص٣٧٣ . . هذا، وقد ذيل تلك العبارة بقوله: «وهذا مبحث واسع يحتاج إلى كتاب قائم بذاته ثم قام -رحمه الله تعالى- بتأليف بعنوان (الإسلام الفاتح)، ط، الزهراء للإعلام العربي عام ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

(٢) روبرت بن بمقدمة كتابه (السيف المقدس) نقلاً عن الشيخ مؤمن فتحي الحداد بكتابه (جدّد إيمانك) ص١٩٣، ط، مكتبة ألفا بمصر ٢٠٠٦م.

(٣) ص٧ (الإسلام الفاتح).

أمّا نحن فقد توانينا وقصّرنا ووقفنا عند جزء من الطريق الطويل، وصرفتنا بعد ذلك شئون الدنيا عن الغرض الأسمى. ويستطرد قائلاً: «وقد أظلنا الخزى عندما نذكر قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾» [التوبة: ١٦][1].

ولكنه أعاد النظر فى الصور فرأى أن ما فتحناه بجهادنا وما فتح الإسلام بنفسه بالحكمة والموعظة الحسنة، فخشعت نفسه؛ لأنه وجد أن الإسلام فتح بنفسه أضعاف ما فتحنا، وأن دعوة الحق فى تاريخنا كانت أمضى من كل سلاح، ورأى الإسلام منذ أكرم الله الأرض به فاتحًا مظفرًا، يجد طريقه إلى القلوب، كما يذاب الماء الطيب فى الأرض، فيحييها، فتخضر وتخرج ثمرًا زكيًّا.

وفى الختام قال: «عن هذا الإسلام الفاتح أكتب هذه الصفحات وأهديها لدعوة الحق»[2].

وقد لفت الدكتور حسين مؤنس الأنظار إلى مدى انتشار الإسلام؛ إذ يتبين أن ثلث مساحة الأرض فحسب هى المساحة التى فتحتها الدول وأدخلت الجيوش فيها الإسلام، أما الباقية فقد دخلها الإسلام، وملأ قلوب أهلها دون جيش منظم، أو سياسة مرسومة لذلك، إنما هو الإسلام نفسه جعله الله تعالى خفيفًا على القلوب، قريبًا إلى النفوس[3].

وخلاصة ما أوضحه من مزايا الإسلام أن عقيدته وشريعته تتضمن من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون على أن يدخلوا فيها، وأن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى بلا واسطة.. والمؤمن بالإسلام لا يؤمن بأسرار أو أمور لا يقبلها عقله.. ولا يحتاج إلا لتدبّر القرآن الذى يحضك على أن تتأمل فى آيات الله تعالى فى الكون، وفى نفسه «وهذا معنى من معانى تسمية الله سبحانه للقرآن بالذكر والذكر الحكيم»[4].

---

(١)، (٢) نفسه ص٨، ٩.

(٣)، (٤) نفسه ص٢٣، ٢٤.

وللقارئ بعض ما تضمنه فهرس الكتاب، الإسلام فى: جزيرة الهند الصينية وإندونيسيا، وشبه جزيرة الملايو، وجزر الفلبين، والصين وروسيا وإفريقيا والسودان.. إلخ.

أما المستشرق «ستانلى ليتبول» فهو فى كتابه (دراسات فى المسجد، يذكر أن سبب انتشار الإسلام وحضارته هو القانون الأخلاقى الذى تحويه العقيدة فيقول: «إن ما حواه الإسلام من مبادئ وتعاليم سامية، كافية لتعلق قلوب الملايين بالإسلام وحضارته»[1].

إن الحضارة الإسلامية تتصف بالحيوية والاستمرار والوحدة، فهذه الحضارة منذ مولدها وحتى اليوم ظلت حية قائمة لم تمت مطلقاً، ولئن تعرضت للذبول حيناً نتيجة لعوامل طارئة، منها الهجمات الاستعمارية الشرسة على شتى أنحاء العالم الإسلامى، فإن مثل هذه العوامل كانت تؤثر فيها تأثيراً مؤقتاً لا يلبث أن يزول بزوال المؤثر.

وعبر أجزاء من العالم الإسلامى -مثل المغرب العربى- (وتضيف إندونسيا وماليزيا) حاول الاستعمار فيها أن يجتث الحضارة الإسلامية - عقيدة وفكراً ولغة من جذورها، ولكنها لم تلبث بزوال النفوذ الاستعمارى أن رفعت رأسها تعتز بتراثها الإسلامى[2].

●●●

---

(١) د. على الخربوطلى (الحضارة الإسلامية) ص٢٤.

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور (حضارة الإسلام) ص١٨، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ط٢، (معهد الدراسات الإسلامية).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه..

كيف تسلل «التنوير الزائف» إلينا مع تيار التغريب والغزو الفكرى؟

سيتضح من هذه الدراسة الموجزة أن التنوير الزائف هو أحد روافد التغريب والغزو الفكرى؛ ومن ثم يجب أن يصبح شغلنا الشاغل هو اتخاذ موقف الدفاع عن ثقافتنا وهويّتنا، لكى تستطيع الأجيال القادمة الصمود والمقاومة.

ويتطّلب ذلك أولاً المعرفة الصحيحة لتاريخنا الحديث منذ تحددت الحملات الصليبية الاستعمارية، وكيف قام الاستعمار بغرض العلمانية على النظام السياسى، وغرس التغريب فى ثقافتنا ونظمنا التعليمية، بل استمر فى غيّه لتزييف وعى الأمة الإسلامية، لكى تفقد هويتها؛ ومن ثمّ تصبح تابعةً له، وخاضعة لسلطانه، وكان للاستشراق الدور البارز فى استفحال أمر التنوير، وما زال يباشر دوره بتأثيره على البعثات التى نوفدها إلى الغرب.

وعن الصلة بين الاستشراق والتنويريين فى بلادنا، يقول الدكتور عبدالله محمد الأمين:

«إن الفكر الاستشراقى بعد أن شكّل العقلية الغربية، وحدّد موقفها تجاه الإسلام - وهو موقف عدائى - اتجه بآلياته ليشكّل العقل المسلم ذاته ليحدد موقفه هو الآخر تجاه الإسلام من خلال توطين الاستشراق فى العالم الإسلامى. ولقد بدأ توطين الاستشراق بالفعل فى العالم الإسلامى منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث ظهر جيل التنويريين، الذين تبنّوا الطروحات الاستشراقية وطبّقوا منهجيته بحذافيرها فى دراسة الإسلام وحضارته. وهم فى الأساس المثقفون الذين تلقّوا دراساتهم فى جامعات الغرب لاسيما فرنسا وبريطانيا؛ حيث درسوا على أيدى

المستشرقين، أو من الذين تتلمذوا عليهم وتأثروا بأفكارهم، ومنهم طه حسين ومحمد حسين هيكل وأحمد لطفي السيد وأحمد أمين [(١)].

إن هدف الاستشراق الأساسي كان دائمًا هو فرض مفاهيم الغرب، وتصدير حضارته في حجم وإطار أكبر من حقيقته. وذلك بهدف التقليل من شأن الشرق خاصة الشرق الإسلامي، والتقليل من حضارته ووضعه في حيز ضيق يكون من شأنه إبراز تلك المفاهيم الغربية كعملاق، يبهر كل من يتطلع إليه من أصحاب الأهواء من مفكري الشرق الإسلامي. . . ولا نستطيع أن نغض الطرف أنه إذا كان الاستشراق له أهدافه وتوجهاته وتعصبه، وأن أكثر من ٩٥٪ من المستشرقين كانوا ضد الفكر الإسلامي.

ولا شك أن أغلب من تخرّج على أيدي المستشرقين قد ترسبت في نفسه عقدة النقص إزاء الغرب مع نظرة دونية للحضارة الإسلامية [(٢)].

أما في الدوائر السياسية فإنه يتم فيها نوع من غسيل المخ تفوق آثاره بكثير الآثار التي يسببها الاستشراق. . من ذلك ما كشف عنه الفيلسوف الفرنسي سارتر (ت ١٩٨٠) عن طريقة تكوين النخب وكيفية ربطها بالقوى الأجنبية. . ويتم ذلك عبر إحضار رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء إلى مدن أوربا، فتتغير ملابسهم وينتقلون إلى أسلوب الحياة الأوربية مع تلقينهم كلمات عن (الإخاء البشري). . أو ليحل المذهب الإنساني محل الأديان المختلفة. . ويقول سارتر: «إننا كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم [(٣)]. . وكان قصارى همهم أن يصبحوا مثلنا فرحين أنهم أشباهنا ولبسوا مثلنا، إنهم نخروا من الداخل ثقافة أهلهم وأفكارهم الجميلة، وأصالتهم الأخلاقية والإنسانية، وتحت أي شعار وبأي اسم؟ باسم مقاومة الخرافات أو مكافحة الرجعية أو الوقوف ضد السلفية [(٤)].

---

(١) د. عبدالله محمد الأمين (الاستشراق في السيرة النبوية) ص٣٠/ ٣١ المعهد العالي للفكر الإسلامي - سلسلة الرسائل الجامعية ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

(٢) د. سامي نجيب محمد، مقال بعنوان (الاتجاه التغريبي ومنهجه والنهضة) ص٤٢٦، كتاب للمؤتمر الدولي السادس للفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم أبريل ٢٠٠١م - محرم ١٤٢٢هـ.

(٣) نفسه ص، ٤٣٠

(٤) (السفير محمد والي) كتابه بعنوان (المستغربون - دراسة في ظاهرة الاستلاب الحضاري نقلاً عن مقالة بعنوان (وجوب إقامة الجامعة الإسلامية) ص٦٢ مجلة (منبر الشرق) ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه . .

التغريب والغزو الفكري

آثرنا عرض مسألتيّ التغريب والغزو الفكري في مبحث واحد؛ إذ يجمع بينهما علاقة مشتركة، فكان هدف الغزو العسكري احتلال الأراضي ونهب الثروات وتغيير الشعوب حتى يسهل قيادتها.

ثم اقترن به الغزو الفكري الذي استهدف تحطيم هويّة الأمة الإسلامية التي اعتزت بها طوال تاريخها، وهي مدعاة فخارها بدينها وشريعتها الإلهية، فاستطاعت بذلك الانتصار الحاسم في معاركها أمام التتار والصليبيين، وقد فهم طلائع الاستعمار من المستشرقين والمبشّرين -هذا العامل الحاسم في الصراع- فوضعوا خطط الغزو الثقافي بغرض تغريب تلك الهوية وتمييعها لتفقد أصالتها ومقدّمات انتصاراتها.

ومن المعروف أن وسائل الغزو الفكري سلكت طرق نظم التعليم والإعلام والآداب والفنون والفلسفات، ولكن الدكتور جلال أمين -وهو عالم اقتصاد- لفت أنظارنا إلى آثار النظريات والإجراءات الاقتصادية أيضاً للغزو الثقافي ودورها البارز في إضعاف هويات الشعوب، كوسائل فيقول: «وفيما يبدو لي أنه خلال المائتي العام المنصرمة، مر العرب بعملية «انسلاخ» من أنفسهم، أو عملية استلاب أو اغتراب هي ما يمكن تسميته بعملية التغريب»[1].

وفي دراسته عن وسائل الغزاة، يتبين له أنه لا أحد ممن يجيء من الغرب لغزو الوطن العربي، يصرّح بالطبع بنيّاته وبواعثه الحقيقية، فعندما جاء نابليون -مثلاً- إلى

(١) د. جلال أمين (العولمة) ص٢٢٣، ط دار الشروق ط٣، سنة ٢٠٠١م.

مصر منذ نحو مائتي عام حاول أن يطمئنا بأنه مسلم صالح، وأنه ما جاء إلى مصر إلا مدفوعًا فقط بالرغبة في نشر مبادئ التنوير!

وعندما جاء الأمريكيون بعد ذلك بمائة وخمسين سنة، ادّعوا أنهم يأتون معهم للمنطقة «بالتنمية الاقتصادية»، كذلك عندما قدم الإسرائيليون أنفسهم إلى العرب فعلوا ذلك تحت لواء ما سموه بـ«عملية السلام»، بينما كان من الواضح للجميع أن السلام كان منتشرًا بالمنطقة بدرجة لا بأس بها على الإطلاق حتى جاءوا هم [(١)]!

وترجع عملية (التغريب) منذ فتح الخديوى إسماعيل باب مصر على مصراعيه للأوربيين، بأشخاصهم وسلعهم وخدماتهم ورؤوس أموالهم [(٢)].

ويسمّى الدكتور جلال أمين الحضارة الغربية بأنها حضارة تفكيكية، أي أنها تعمد إلى تفكيك كل شيء إلى عناصره الأولى، وهو مسلك حميد إذا كان الغرض معرفة العناصر التي يتكون منها الشيء.. أو ما يسمى بالسيطرة على الطبيعة، ولكن قد يكون مسلكًا خطيرًا إذا طبق على الأشياء الحية كالإنسان والأسرة أو الأمّة.

كذلك يتضح من سلوك هذه الحضارة أنه يخالف تمامًا عما تعلنه من شعارات برّاقة كالفردية والحرية الشخصية والتنوير وتحرير المرأة وغيرها، بينما هي -بناءً على قيامها بتفكيك الإنسان وتحويله إلى دجاجة يسهل التهامها- تنطوي على عملية أشبه بالقتل [(٣)].

---

(١) نفسه ص٢٢٨.

(٢) نفسه ص٢١٦.

(٣) نفسه ص٣٩، ٤٠.

لذلك فقد تنبّهت بعض الشعوب إلى ما سيحيق بها لو استسلمت وخضعت لهذه الحضارة، فقامت بالتشبث بثقافتها كاليابان والهند والصين، ومثال ذلك ما قام به غاندى الذى كاد ينجح فى ابتداع شيء مختلف تماماً عن الحضارة الغربية، **أمّا أتاتورك** فقد ارتكب خطأً فادحًا باستعجاله التسليم وإعلانه الهزيمة أمام حضارة الغرب، ولا يزال أحفاده حتى اليوم يحاولون إصلاح الذى ارتكبه [1].

ويذكر الدكتور جلال أمين أن العرب يبدون بدرجة عالية من المقاومة للحضارة الغربية والسوق الشرق أوسطية، ويصف ذلك بأنه صمود جدير بالثناء والدعم [2].

ونحن بدورنا نرى أن المضىّ فى تجديد حضارتنا الإسلامية سيرسّخ هذا الصمود،

---

(١) نفسه ٤٠، ٤١. هذا الوصف العابر يحتاج إلى دراسة أوسع وأشمل؛ لأن نجاح حزب العدالة والتنمية فى الوصول إلى سدّة الحكم كان مفاجئًا.. وقد فسّره أحد المعلقين بأن الانتخابات التركية كانت بمثابة زلزال أصاب الحياة السياسية فى تركيا ولكن شابه النص على احترام المبادئ الجمهورية، وهذا يعنى العمل على التوفيق بين الإسلام والعلمنة (نبيل خليفة وأردوغان وتغير وجه تركيا) ص ٧٨، ولكن الدكتور محمد يحيى كان له دراسة مستقلة أحاطت بأسباب نجاح الحزب وبحث فى الدوافع وراء السماح لوصوله إلى سدّة الحكم، وعلّلها بأنها مناورة سياسية بين المؤسسة العلمانية المسيطرة بواسطة الجنرالات الأتراك حرّاس هيكل أتاتورك العلمانى منذ عام ١٩٢٤م.. وأخذ يتساءل: كيف يطلق عليه أنه إسلامى الطابع والتوجه رغم الإنكار الشديد والنفى المتكرر من قادته؟! ويرى أن هذا الموقف المتذبذب يؤدى إلى إسلام متغرّب -أى مجرد كيان يجرى سلخ أى شريعة أو وضع إلهى أو وحى سماوى وتحول فقط إلى نسق قانونى وضعى بشرى تاريخى نسبى متغير لا قداسة ولا ثبات فيه.. فهو عند الجماهير التركية وعند الإعلام والوسط السياسى التركى والغربى موصوف بأنه إسلامى، لكنه يقول ويتضمن برنامجًا علمانيًا. لذلك رحّب به المعلقون والساسة الأمريكيون وبعض الغربيين يتحدثون عما وصفوه بالنموذج التركى للإسلام الذى يصلح للتصدير إلى جمهوريات وسط آسيا وحتى إيران وباكستان وإندونيسيا وماليزيا وبنجلاديش! (مقال بعنوان حزب العدالة) ص ٣٢ والمقالان منشورات بمجلة (المختار الإسلامى) شوال ١٤٢٣هـ- ديسمبر ٢٠٠٢م.

(١) نفسه ص ٤٠، ويُلاحظ أن هذا الرأى أبداه بكتابه (العولمة) ١٩٩٩م، أما بكتابه (عولمة القهر) الصادر عام ٢٠٠٢ فقد كان له رأى آخر.

بل هو السبيل الوحيد لبنائنا كأمة أسهمت من قبل -طوال قرون- فى قيام نهضة وحضارة الغرب ذاته، ويكفى فى تقديم الدليل على ذلك الرجوع إلى كتاب العالمة الألمانية هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب)؛ إذْ لخصت دور العرب بقولها: «لقد قدم العرب لأوربا سبل الحضارة وقادها فى طريق النور»(١).

الغزو الفكرى:

يعرّف الدكتور جلال أمين الغزو الفكرى بأنه «قهر الثقافة الأقوى لثقافة أخرى أضعف منها، فالذى فعله المهاجرون الأوائل إلى القارة الأمريكية بالهنود الحمر كان نوعًا من «الغزو الثقافى»، وإن كان بالغ القوة، كذلك ما فعله المهاجرون الأوربيون إلى أستراليا لسكانها الأصليين، وسائر صور الاستعمار الأخرى.

ولكننا نتحفظ بتعميم هذا التعريف؛ لأنه إن صحّ مع ثقافات أضعف، فلا يصح تطبيقه على (الثقافة الإسلامية)؛ حيث ظلت صامدة تتحدى، بالرغم من كل أساليب الكذب والخداع وإثارة الشبهات حولها، والدليل أنها ما زالت حيّة، بل إنها الذخيرة الفعالة فى تجديد الحضارة الإسلامية وإحيائها؛ إذ يجب الأخذ فى الاعتبار التفرقة بين «الثقافة» و«الحضارة»، وذلك للاختلاف بينهما لغةً واصطلاحًا لما هو متفق عليه بين الباحثين. ولكن هناك ظاهرة أخرى للغزو الثقافى وهو اعتداء رأسمالى على الهوية الثقافية للأمة المعتدى عليها من أجل استغلالها اقتصاديًّا، ويأتى هذا الغزو باسم تعظيم الإنتاج ونشر الحضارة كما زعم نابليون فى مصر، وبنفس الحجة قهر الاستعماريون الأوائل مختلف الأمم الأقل تقدمًا، وبحجة زيادة الإنتاج غزت الولايات المتحدة أمة بعد أخرى متخفية وراء المعونات الاقتصادية، واستخدمت حجة زيادة الإنتاج أيضًا وتعمير الأرض من جانب الصهاينة لتبرير استيلائهم على فلسطين، وبنفس الحجة انتشر موظفو البنك الدولى وصندوق النقد فى أنحاء الأرض!

(١) هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب) ص٥٤١، وسنعرض لخلاصته بأحد فصول الكتاب.

ويحذّر الدكتور جلال أمين من لافتة «التقدم التكنولوجي»؛ لأنها تنطوي على تهديد للهوية الثقافية، بل هي لون من (القهر الثقافي)، كما أنها ليست شيئًا محايدًا تمامًا كما يظن الكثيرون، بل تحمل في طياتها الخطر الذي يهدد هذه الهوية [(١)].

كما ينصح بالتشخيص الصحيح لما سمّاه مرض (المجتمع التكنولوجي الحديث) حتى لا تضيع فرصة الشفاء الحقيقي منه؛ إذ يجب أن يتبين لنا أننا في معركتنا[(*)] للحفاظ على هويتنا الثقافية لنا أنصار حقيقيون منتشرون في مختلف أنحاء الأرض، يتمثلون ليس فقط في أصحاب الديانات الأخرى التي تتعرض مثل ديننا للقهر، ولا أصحاب القوميات التي تتعرض هويتها الثقافية لغزو ثقافات مغايرة تحمل أسلحة أقوى وأموالاً أكثر، بل إن لدينا نصيرًا وحليفًا حقيقيًا في كل من يرى مثلنا الخطر الداهم الذي ينطوي عليه المجتمع التكنولوجي الحديث، والذي يهدد تفرده وإنسانيته وهويته. فإلى جانب حركات الدفاع عن الطيور والحيوانات المهددة بالانقراض، داخل المجتمعات المتقدمة تكنولوجيًا، هناك بلا شك داخل هذه المجتمعات نفسها من يقلقهم أيضًا الخطر الذي يهدد آدمية الإنسان وثقافات الأمم الأخرى بالانقراض [(٢)].

ويقول: وإن كانت لنا رغبة صادقة في النهضة فلا بد من احترام هويّة الأمة في نفس الوقت؛ إذ ليست النهضة مرادفة للرضوخ لقواعد السير والسلوك التي يفرضها المجتمع التكنولوجي الحديث، وإن كان المفتونون به مولعين بوصف نقادهم بالرجعية والتخلف والحنين إلى كل ما هو قديم، فإنه من الممكن أن نتهمهم بالانتهازية وتبرير أي شيء يحدث بمقولة (مجاراة متطلبات العصر) [(٣)].

---

(١) نفسه ص٤٨، ٤٩.

(*) وعن قضية المحافظة على هويتنا الإسلام، فقد دق الدكتور محمد الجليند ناقوس الخطر للتنبيه على ما يقوم به العلمانيون بالعمل على تزييف وعي الأمة وتغييبه عن الإحساس بهويتها الحضارية منذ مطلع القرن العشرين، ومازال الصراع قائمًا إلى الآن. كتابه (هويتنا الإسلامية في مفترق الطرق) ص٥ المكتبة الأزهرية ٢٠١٢م.

(٢) نفسه ص٦٥.

(٣) نفسه ص٥٧.

وحجتهم السعي نحو "التقدم"، وهي من قبل الشعارات الكاذبة لدفع شعوب العالم الثالث لتقليد حضارة الغرب، والسير وراءها مغمضة العينين، مسلوبة الإرادة، ومن السهل مناقشة هذه الحجة الواهية، فليس من قبيل التقدم أن نعد ممارسة الشذوذ الجنسي علنًا حقًّا من حقوق الإنسان الذي يتذرع الغرب بها، وليس من قبيل التخلف أن نرفض اعتبار العلاقة بين رجل ورجل آخر، أو بين امرأة وامرأة أخرى، أو أن نرفض تغيير مناهج التعليم، بحيث تصبح العلاقة الجنسية جزءًا من المنهج المفروض على أطفال في الخامسة أو السادسة بدعوى تمكينهم من الدفاع عن أنفسهم ضد من يحظر له التحرّش الجنسي بهم!

والواقع أن استخدام منظّمات الأمم المتحدة للترويج لكل هذا باسم حماية حقوق الإنسان، هو في الحقيقة محاولة لفرض هوية على أخرى، أو قهر تراث أمة لصالح تراث أو تجارب أمم أخرى.

إن مثل هذه الشعارات الكاذبة تنتشر من مكان إلى آخر انتشار النار في الهشيم في مناطق العالم، من الصين إلى كوبا، ومن الصومال ورواندا إلى البوسنة، وأبواق شبكات الإعلام اقتحمت أبواب أصغر الأكواخ في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، لتردد الأكاذيب نفسها على أسماع الناس، واكتسبت المؤسسات المالية الدولية وعلى رأسها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي جبروتًا ونفوذًا لم يتحقق مثلهما لمؤسسة دولية من قبل. وتحولت هيئة الأمم المتحدة إلى مجرّد خادم مطيع مهمته نشر هذه الأفكار نفسها من خلال مؤتمرات تعقد في مختلف أنحاء العالم ومنشورات وتقارير تروّج الشعارات نفسها [1].

ويقرر الدكتور جلال أمين أن نصيب العرب بالطبع من هذه الهزائم ليس أقل من نصيب غيرهم، بل لعله كان أكثر وأفدح. فالعرب يعيشون منذ ثلث قرن على الأقل

(١) د. جلال أمين (عولمة القهر) دار الشروق ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ص١٧٢، ١٧٣.

سلسلة من الانكسارات المتتالية؛ والتراجع المنتظم أمام جحافل الغرب المنتصرة في الحرب والاقتصاد والسياسة والثقافة، حتى أصبحوا اليوم أشبه بالأرض المشاع والمتاحة بلا حماية بكل من أراد السلب والنهب، سواء كان المسلوب والمنهوب أرضًا أو ثروات طبيعية أو عمالة رخيصة أو أسواقًا لتصريف السلع، أو مقرّرات تعليمية يجرى العبث بها أو لغة تستبدل بها غيرها، أو دينًا تُكال له الاتّهامات بالباطل، ويوصف ظلمًا بالإرهاب من جانب الإرهابيين الحقيقيين، أو آمالاً لشباب فقدت ثقته بنفسه وأمته لتحل محلها ثقة وهيام بكل ما هو أجنبي [1].

ولكن مع هذه النظرة المتشائمة، يخفّف عنها الدكتور بتفاؤل حذر، يراه فيما يسمى بحركات الصحوة الدينية الآخذة في الانتشار، وليس في بلادنا وحدها، وزيادة حركات حماية الطبيعة، وبوادر الاحتجاج على ما أصاب الروابط العائلية من ضعف. وبما في ذلك الاحتجاج على الإفراط في الحرية الجنسية، وتزايد قوة الشكوك في قدرة النمو الاقتصادي أو التقدم العلمي نفسه على حل كل مشكلات الإنسان.

ويأمل في أن تحل عولمة المستقبل (عولمة إنسانية) بمعنى الكلمة محل (عولمة القهر) [2].

تعقيب على تاريخ التغريب و(المشروع المنسوب إليه):

لا نشارك الدكتور جلال أمين في رأيه أن التغريب بدأ منذ الخديوي إسماعيل؛ لأن التنقيب التاريخي يوضح أنه بدأ منذ محمد على بتوجيه من فرنسا، بل كان له دوره المخزى في محاربة حركة اليقظة الإسلامية بالخارج والداخل، فقد وجّه حملة للقضاء على مذهب الإمام محمد عبد الوهاب، الذي قام بتجديد دعوة التوحيد، وإزالة مظاهر الوثنية والشرك والبدع التي سادت في عصره؛ لذلك وصفه الشاعر محمد إقبال (بالمتطهر العظيم) [3].

---

(١) نفسه ص١٧٣.

(٢) نفسه ص١٨٢.

(٣) محمد إقبال (تجديد التفكير الديني في الإسلام)، ص١٧٥ لجنة التأليف والنشر والترجمة بمصر، ط٢، سنة ١٩٦٨م، ويصف حركته بأنها أول نبضات الحياة في الإسلام الحديث، وكانت مصدر إلهام لمعظم الحركات الكبرى الحديثة بين مسلمي آسيا وإفريقيا كالحركة السنوسية وحركة الجامعة الإسلامية.

ويصف الدكتور طه حسين مذهب محمد بن عبد الوهاب بأنه قديم معنى والواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين، ولكنه قديم فى حقيقة الأمر لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقىّ المطهّر من شوائب الشرك والوثنية، هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبى ﷺ خالصًا لله ملغيًا كل واسطة بين الله وبين الناس..

ولولا أن الترك والمصريين، اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه فى داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها لكان من المرجح جدًّا أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب فى القرن الثانى عشر، والثالث عشر الهجرى، كما وحّد ظهور الإسلام كلمتهم فى القرن الأول [1].

وفى الداخل سبق أتاتورك فى الاندفاع نحو التغريب والتضييق على الأزهر وعلماء الإسلام والاستيلاء على الأوقاف، وإغلاق كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم وغيرها من التصرفات التى أسست العلمانية فى مصر.

وإذا بحثنا فى نتائج تقليد الغرب فى نظمه واستيراد قوانينه وتطبيقها فى مجتمعاتنا، يتّضح أنه حدث ما يسميه المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى (بمظهر التّشكل)- أى اقتباس مظاهر حضارة أوربا وطرح التراث الإسلامى جانبًا، حيث تركزت محاولة (التشكّل) فى محمد على فى مصر وكمال أتاتورك فى تركيا ويقرّر توينبى أن محاولة خلفاء محمد على أن يجعلوا مصر قطعة من أوربا قد أدت إلى الاحتلال الإنجليزى [2].

يُضاف إلى ذلك أنه كان لبعثات محمد على إلى أوربا -وخاصة فرنسا- دور كبير فى نقل الفكر الغربى العلمانى إلى مصر، وجاءوا بأفكار فولتير وروسو ومونتسكيو...

---

(١) الشيخ أحمد بن حجر أبو طامى قاضٍ المحكمة الشرعية بقطر (الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه) ص٩٣/ ٩٤، من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط٢ دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٧٨م.

(٢) د. أحمد صبحى (فى فلسفة التاريخ) ص٢٥٦، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ط٣، سنة ١٩٩٠م.

وجاءت بعثة فرنسية من أتباع «سان سيمون» لتنظيم مرافق الدولة في الهندسة والطب والتعليم على ركيزة عقلية لا دينية [1].

وقد كان حصاد التعليم على أساس لا ديني في ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر حصاداً مراً على يد القسيس (دنلوب) الذي خلع رداء الكهنوت، وأصبح وزيراً للمعارف، فحارب الدين واللغة العربية بدهاء من خلال منهج التعليم الذي أرسى قواعده، وما تزال آثاره ممتدة حتى حصرنا الحاضر!

يصف لنا الأستاذ -أحمد أمين- أوضاع التعليم بمصر فيقول: «فالمدارس المدنية على النمط الأوربي محرومة من التربية الدينية والأدبية.. والمناهج قائمة على فكرة أن أوربا سيدة العالم ومركزه.. وإذا جاءوا للتاريخ الإسلامي اقتضبوه أو حرفوه.. وهذه المدارس لا تأبه بالدين إلا شكلياً، ولذلك يجهلون أصول الدين كل الجهل.. ورأس هذه الحركة الجامعة المصرية التي تقود المدارس الثانوية والابتدائية وليسوا يسألون في كل أمر عُرض: ماذا رأى الإسلام؟ ولكن يسألون: ماذا يرى الأوربيون؟» [2].

مع العلم بأنه شغل العمادة بآداب القاهرة عام سنة ١٩٤٠م. أي أن شهادته لها وزنها وقيمتها الخاصة.

آثار الغزو الفكري على نظام التعليم:

هذا، وقد خضعت الأجيال في ظل الاستعمار لتأثير مناهج التربية والتعليم الذي وضع أسسه الغربية مستر «دنلوب وأعوانه»، وقد كانت الغاية هي القضاء على شخصية المتعلم حتى يخضع للمستعمرين.. فكانت مصر حقل تجارب للإنجليز والفرنسيين في مجال التعليم في المستعمرات [3].

---

(١) د. محمد محمد، حسين (الإسلام والحضارة الغربية) ط مؤسسة الرسالة.

(٢) أحمد أمين (يوم الإسلام) ص١٧٢ باختصار، ط دار الكتاب العلمي - بيروت سنة ١٩٥٢م، ويذكر أن حركة أتاتورك ومحمد علي حركة (لا دينية) ص١٥٠، ويقول: «إن الجامعة المصرية لا تأبه بالإسلام وإنما تؤسس علومها ومناهجها على النمط الأوربي» ص١٥٤.

(٣) نفسه ص٣٦، ٣٧.

وبالرغم من أن لدينا جامعات كثيرة أنشأناها على نسق الجامعات الأوربية، إلا أن هذه الجامعات لم تنجح تمامًا فى تخريج المواطن المسلم الناضج والصالح للعمل فى وطنه، وحتى من يصلح من بينهم تُلجئه الظروف حوله إلى النجاة بنفسه والعمل بالبلاد الأجنبية [١].

ولعل خطة «دنلوب» كانت أقوى تأثيرًا فى تنشئة الأجيال؛ إذ أسهم فى وضع أسس ما سماه الشيخ محمود شاكر «التفريغ» الكامل لطلبة المدارس المصرية، أى تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق فى دمائها مرتبطًا بالعربية والإسلام ومهّد إلى ملئه بماض آخر بائد فى القدم والغموض، لم يفد من ثقافته شىء ألبتة، ليزاحم هذا الماضى الفارغ بقايا الماضى المتدفق الحى الذى يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل، ويجعل أجيال طلبة المدارس فى حيرة مدمّرة بين انتمائيْن، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة فى كتب أسلافهم، وبين الفرعونية التى بادت وبادت ثقافتها، ولم يبق منها إلا أطلال من الحجارة، مهما بلغت من العظمة والجلال فإنها فارغة من ثقافة حية تتدفق فى القلوب والعقول والألسنة، إنما هى آثار لا تغنى شيئًا ولا تؤتى الثمرة، وأيضًا فإن هذا «التفريغ» سوف ينشئ أجيالاً من «تلاميذ المدارس» تنهتك علائقها التى تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا، حتى يتم تفريغها تفريغًا كاملاً من ماضيها كله، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هى علوم الغزاة، وفنون الغزاة، وآداب الغزاة، وتاريخ الغزاة.. ومع كل ذلك فإن هذا القدر من العلوم والفنون والآداب إنما هى قشور ومقتطفات توهم النفوس الظامئة المفرّغة بأنها نالت شيئًا يذكر، والحقيقة أنها نالت غذاء تعيش به موتى فى صورة أحياء لا غير [٢].

---

(١) نفسه ص٣٦.

(٢) محمود محمد شاكر (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) ص١٤٩، ١٤٨ مكتبة الخانجى بالقاهرة ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، وقد أطلق الشيخ شاكر على (دنلوب) وصف القسيس المبشر الداهية، ويقول أيضًا: ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمرًا على ما أراد، بل زاد بشاعة وعمقًا فى سائر أنحاء العالم الإسلامى بظهور دعوات مختلفة ص١٥٣.

ويقول الدكتور فهمي الشناوي: «حتى نهاية العشرينيات من هذا القرن كان كل شيء في مصر إسلاميًا بدرجة ما. هناك أوقاف إسلامية تصرف على جوامع ومستشفيات، ومدارس قاصرة على أبناء المسلمين. . كانت هناك محاكم شرعية قضاتها خريجو الأزهر يحكمون بالشريعة، وإن كان حدود القضاء هذا قاصراً على الأحوال الشخصية فقط، أما ما عدا ذلك فهو في يد الأجانب تقريبًا.

ولم تكن الجامعة المصرية (جامعة فؤاد) قد بدأت بعد التعليم الغربي، فكان كل التعليم تعليمًا واحداً متجانسًا ودينيًا ويُلاحظ أن التعليم الواحد الأزهري الذي كان قائمًا حتى العشرينيات كان له فضل توحيد الأمة لأن منبعها الفكري كان واحداً.

وبظهور التعليم المدني الغربي صار هناك فكران مختلفان تمامًا. وكل يوم يمضي يبرز درجة الاختلاف. وبعد ذلك سيطر التعليم المدني الغربي هذا، وتقلّص تمامًا التعليم التقليدي الأزهري. . وصارت الجامعة الأمريكية والجامعة الفرنسية أكثر قيمة من الجامعات المصرية المدنية[1].

هذا، وقد صوّر الدكتور أبو ريان الغزو الثقافي روافده وآثاره على المسلمين بقوله: «وقعت الشعوب الإسلامية في يد الاستعمار، وأصبحت كعجينة لينة يشكّلها كما يريد، ويصدر إليها حثالة فكره الهابط، ويمنع عنها الأسس المهمة للحضارة الغربية الثقافية والأخلاقية، والعلمية فتمخضت هذه العملية الثقافية الإجرامية عن شكل مهزوز من الحكم العنصري الذي أحكم الغرب إقامته ومساندته؛ ليكرّس به التخلّف القائم ويربطه بقيم مترعة باليأس والقدرية والتشاؤم والضعف والسلبية، وتثبيط الهمم وانعدام الثقة في النفوس»[2].

---

(1) د. فهمي الشناوي، مقال (التحول من الإسلام إلى العروبة) ص٤٦-٤٨ باختصار مجلة (المختار الإسلامي) جمادى الآخرة ١٤١٨هـ- أكتوبر سنة ١٩٩٧م ويذكر أن الاتجاه القومي العربي ابتدعه نصارى العرب في الشام بالذات بدلاً من الخلافة الإسلامية. . منهم أديب إسحق وقسطنطين رزيق، ويلاحظ أن ساطع الحصري من أصل يهود الدونمة وهو تركي، ويهمه جداً هدم الخلافة الإسلامية (ص٥٨).

(2) د. محمد على أبو ريان (الإسلام في مواجهة تيارات الفكر الغربي المعاصر) ص٢٥، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٨٥م.

ومن العوامل التى ساعدت على ذلك هو بث النظرية العنصرية لدى أمثال «جوبينو» و«رينان»، ومضمونها أن الشعوب الإسلامية من جنس (سام) لا تصلح للحضارة أو العلم، ولأن تحكم نفسها، فلا بد من أن يسوسها الغرب ويحكمها [١].

وللرد على هذه العنصرية البغيضة نرى توجيه أنظار أصحابها إلى التاريخ العلمى للمسلمين، حيث تدحض فرية سمو العنصر الآرى على العنصر السامى والوثيقة التى نقدمها هى كتاب العالمة الألمانية هونكه بعنوان: «**شمس العرب تسطع على الغرب**»؛ حيث تبرهن على أن الجذور العلمية لحضارة الغرب مصدرها حضارة العرب.

الجذور العلمية لحضارة الغرب ومصدرها حضارة العرب:

«مختصر كتاب شمس العرب تسطع على الغرب»:

حدّدت المستشرقة هونكه الغرض منذ البداية فى مقدمة الكتاب بأنها أرادت أن تعيد العبقرية العربية، وإتاحة الفرصة لمواطنيها، فرصة العودة إلى تكريمها، كما أرادت أيضًا تقديم الشكر للعرب على فضائلهم.

وكشأن المؤرخين وفلاسفتهم كانت منبهرة من هذه القفزة السريعة المدهشة فى سلّم الحضارة التى قفزها أبناء الصحراء من اللاشىء، وأصبحت ظاهرة جديدة بالاعتبار فى تاريخ الفكر الإنسانى. لقد أتى سادة الحضارة الجديدة من قلب الصحراء الجدباء ليتبوءوا فجأة مركز الزعامة بين حضارات العالم، مدة ثمانية قرون. وأمام السؤال: كيف حدث هذا؟.. ما هى المقوّمات التى احتاجها هذا الشعب ليبعث من جديد؟ وما هى العوامل التاريخية والاجتماعية والروحية والفكرية التى كان لا بد لها أن تجتمع لتخلق هذه المعجزة التى حققها العرب [٢]؟!

كذلك تصحّح معلومات المؤرخين المعادين للعرب على غير حق الذين يزعمون أن أولئك العرب كانوا قطّاع طرق. كلا، إن الظاهرة الجديرة بالدراسة هو أن سبب

(١) نفسه ص٣٧.

(٢) نفسه ص٣٥٦.

ضعفهم كان يتمثل فى التنازع بين القبائل؛ ومن ثم تفككوا ولم يكن لهم شأن يُذكر . .

وتقول : «ثم جاء الإسلام فجمع هذه القبائل ليجعل منها فى سنوات قلائل شعبًا عظيمًا ، آخت بينه العقيدة ، وربطت عناصره المحبة ، فتهافتوا جميعًا فى مناصرة الدين الجديد ، وتناسوا خلافاتهم ، وساروا يداً واحدة ، يحدو كل فرد منهم أمل باسم مشرق فى أن تُكتب له الشّهادة فى سبيل الله . وبهذا الروح القوى الفتى شقّ العرب طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة وضع أساسها الرسول ﷺ بنفسه ، وظلت دائمًا مسئولة أمام الحكومة المركزية مباشرة . إن انتصاراتهم السريعة المتلاحقة أكبر دليل على الروح الجديد الذى سرى بينهم ، وهذا الإيمان هو الذى يفسر لنا ذلك البعث الجديد»[1]!

كذلك تصوّر أثر خلق العربى وإيمانه ولغته فى شعوب البلدان المفتوحة فتقول : «واستطاع العربى بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته ، لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلقه الكريم ، وسلوكه الحميد . فكسب بذلك لدينه عدداً وفيراً لم تكن أية دعاوة مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب قبله»[2] .

وتوضّح دور اللغة العربية التى وجدت تجاوبًا من الجماعات وامتزجت بهم ، فأعطت للأجناس المختلفة فى القارات الثلاث وجهًا واحداً مميزاً ، ثم تعلن على ذلك بقولها : «حقًّا إن قدرة هذه العقلية العربية على طبع الشعوب لرائعة»[3]!

وخلال حكم العرب للأندلس الذى دام حوالى ٨٠٠ سنة (ويحدّدها بعض المؤرخين بألف سنة) ، خلقت الأسر العربية الحاكمة للأندلس حضارة زاهرة ، تلك الحضارة التى كانت أجمل وأعظم من أن تقارن بغيرها[4] .

---

(١) هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب) ص٣٥٥ .

(٢) نفسه ص٣٦٧ .

(٣) نفسه ص٣٦٨ .

(٤) نفسه ص٤٧٤ ، ٤٧٥ .

وهي تتساءل في دهشة وتعجب: «أو ليس من العجب أن نتساءل: لماذا نفسّر كما يحلو لنا، والعرب قد احتلوا فعلاً جزءاً من أوربا هو الأندلس؟ فلم يقضوا على المسيحية التي يزعمون أن شارل مارتل(*) قد حماها، ولم يقضوا على المدنية الغربية التي لم يكن لها وجود!!

ثم تصوّر بواقعية وصدق ما فعله العرب في الأندلس؛ إذ حوّلوها في مائتي عام من بلد جدب فقير مستعبد إلى بلد عظيم مثقف مهذب، يقدس العلم والفن والأدب، وفي عبارة موجزة: «لقد قدّم العرب لأوربا سبل الحضارة وقادوها في طريق النور»(1).

وقد أصابت في هذا الوصف الدقيق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

ويقول ديفونويب في كتابه (اعتذار إلى محمد ﷺ والإسلام):

«يجب أن نعترف بأن علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التي أنعشت أوربا منذ القرن العاشر مقتبسة من القرآن، بل إن أوربا مدينة للإسلام

(*) وهي تقصد بذلك معركة بواتيه أو (بلاط الشهداء) عام ١١٤هـ=٧٣٢م التي انتصر فيها شارل مارتل. ويرى المؤرخ جيبون أن تلك المعركة موقف حاسم في تاريخ العالم كله، فلو انتصر المسلمون فيها لساقوا فرنسا وغرب أوربا، ثم أوربا كلها، ولكان القرآن الكريم يدرس في جامعة أكسفورد.
ويذكر الأستاذ شوقي أبو خليل أن العديد من الكتّاب الغربيين الذين رأوا روعة الإسلام وحضارته أينما حل، اعتبروا أن تلك المعركة كانت نكبة كبيرة أصابت أوربا، وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان شوقي خليل: عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ص٩٩، دار الفكر - دمشق ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(1) زيغرد هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب) وهذه العبارة مهداة إلى التنويريين من بني جلدتنا، بينما عنوان الفصل الثاني من كتابها بـ (الغرب يسير في طريق مظلم) ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي سنة ٢٠١٤م، ويبدو أن الناشر تصرف في عنوان الكتاب لأسباب خاصة؛ لأن المؤلفة صرحت بعنوان آخر هو (شمس الله تسطع على الغرب) ص٧ من كتابها (الله ليس كذلك) ترجمة د. غريب محمد غريب، دار الشروق ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

بأكثر من ذلك؛ لأن الدين الذى أمر بالدستور والديمقراطية ونهى عن الاستبداد فى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، و﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قد فتح أمام الإنسانية الحقوق المدنية.

ولتذكر أوروبا أنها مدينة للمسلمين بحفظ آداب الغرب القديمة، حينما كانت هى فى ظلام دامس فحفظوا آثار فلاسفة اليونان وآثار علوم الطب والهندسة، وبالجملة فالمسلمون هم أساتذة أوروبا»[1].

التغريب ومشروع النهضة الحديثة:

يجمع المتغربون على اتّخاذهم مشروع محمد على لبناء الدولة الحديثة[2] كما يذكر د. حامد عمّار، حيث أنشأ محمد على نظام التعليم الحديث من أجل طموحاته السياسية والعسكرية فى تأسيس دولته. ومع هزيمة طموحاته فى التوسع وتوقيع معاهدة لندن ١٨٤١ انكمش الجيش وانكمش معه ما بدأه من مدارس ومعاهد، واستمر الانكماش فى عهد خلفائه من الأسرة العلوية، باستثناء عصر إسماعيل الذى سعى لأن تكون مصر قطعة من أوربا.

ويصف رفاعة الطهطاوى[*]: بأنه كان رائداً ثقافيًّا وتربويًّا، وظل مشدوهًا ومتفاعلاً مع أحوال المجتمع الفرنسى.. وكان صاحب مشروع

(١) أنور الجندى (الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى) ص١١٢، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

(٢) د. حامد عمار -وصفاء أحمد (المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين فى القرن الواحد والعشرين) ص١٩، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠١٥م.

(*) الطهطاوى وعمر مكرم (مقارنة مختصرة): عند ذكر رفاعة الطهطاوى تسنح الفرصة لوضع القياس الذى نستطيع أن نستخدمه للتمييز بين زعماء النهضة الإسلامية ودعاة الإصلاح الأصلاء- وبين أولئك الذين استمدّوا مشاريعهم من الوافد الأجنبى المحتل فأسهموا فى زعزعة كيان الأمة بسبب قصور وعى أو غفلة.. وصف الدكتور لويس عوض الطهطاوى بأنه رائد التنوير فى الفكر المصرى المعاصر، ووصفه د. رفعت السعيد اليسارى بأنه رائد الفكر الاشتراكى! وهو حكم متخبط وغير صحيح؛ إذ الواقع أن الطهطاوى بعد ست سنوات كاملة فى فرنسا (تعرض فيها لعملية غسيل مخ) عاد إلى مصر حيث عمل فى خدمة على وسعيد وإسماعيل.. وكان موظفًا فى جهاز السلطة التعليمى فهو حقًا (مثقف السلطة).. =

حضارى وثقافى لتحديث، مصر فكريًا، التقى بمشروع محمد على لبناء الدولة الحديثة [1].

وتشاركه فى الرأى د. هالة مصطفى ولكنها تحرص على إيجاد العلاقة بين الحملة الفرنسية (وهى فى حقيقتها غزو عسكرى وحملة صليبية حديثة) وبين مشروع النهضة المصرية والعربية الحديثة [2]! فهى تقول:

«أقام محمد على فى بدايات القرن ١٩ أهم وأول تجربة فى العالم العربى والإسلامى لبناء دولة قومية حديثة ثم ميلاد الحركة الإصلاحية.. وكان هو البداية لنشأة النهضة العربية الحديثة وبداية التجديد فى الفكر العربى» [3].

= وكان رفيق الحال فى ثم مات تاركًا لورثته ٢٥٠٠ فدان عدا المبانى والعقارات! (د/ محمد مورو: عاجل إلى الحركة الإسلامية (ص ٦٩/ ٧٦) ط دار العروة ودار الحنان- القاهرة مايو ١٩٩٠م مع تجاهله لمسألة النفوذ الفرنسي فى مصر تمامًا!

أما عمر مكرم: فقد نادى بالجهاد والثورة ضد الفرنسيين رافضًا الاشتراك فى ديوان الحكم الذى أقاموه.. وقبل ذلك أمر الناس بحمل السلاح والتأهب للجهاد عندما ما جاءت حملة فريزر واستعمر الإنجليز مدينة الإسكندرية ووقف فى وجه محمد على لأنه أخل بالشروط الذى أخذها عليه يوم توليه السلطة.. وكان مصيره النفى إلى طنطا. لهذا استحق أن يوصف بأنه خاتمة العلماء المجاهدين (محمد موسى الشريف: عظماء منسيون فى التاريخ الحديث، ص ٦٠/ ٦٦ جـ٣، دار التوزيع والنشر- القاهرة ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م)

(١) نفسه ص ١٩.
وتكرر فى الكتاب عبارات الجابرى عما يُسمى عند العلمانيين كافة بالتفكير الماضوى نتيجة التمسك بالحقائق المطلقة الثابتة.. مع التحجر والجمود... إلخ.

(٢) وتقول: «وبالتحديد منذ أواخر القرن ١٨ عقب الحملة الفرنسية على مصر وقيام محمد على وبدء مشروع النهضة» ص٧، كتاب (الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم) ط دار مصر المحروسة بالقاهرة، سنة ٢٠٠٢م.

(٣) د. هالة مصطفى (الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم) ص٢٢، ٢١، (ط دار مصر المحروسة بالقاهرة ٢٠٠٢م). وتصف الطهطاوى بأنه إحدى القمم الفكرية، وأنه عندما كان فى فرنسا استوعب مؤلفات أشهر فلاسفة عصر النهضة والتنوير الأوروبى، وكان لذلك أكبر الأثر فى تشكيل حياته الفكرية (ص٦٠)، وكان منذ عودته موضع تقدير من محمد على وابنه إبراهيم باشا.. وفى تأملاته الفكرية عن الحضارة الأوربية قد أدى به إلى المطالبة بإعادة تفسير الشريعة الإسلامية فى اتجاه التوائم مع احتياجات العصر!

وتستند صاحبة هذا الحكم على أخطاء فاحشة وتزوير للتاريخ الصحيح الثابت عن وصف محمد على وجرائمه المشينة. ومما يزيد من غرابة هذا الرأى الادّعاء بأن محمد على أقام تجربة لبناء دولة حديثة، وليستثمر الأفكار التى غرستها حملة نابليون فى التربة المصرية! وسرعان ما يتهاوى هذا القول أمام الوقائع التاريخية الثابتة والتى أوردها الجبرتى بكتابه.

وتصدمنا تلك الباحثة صدمة شديدة مشوبة بالألم عندما تقول: «**وعلى الرغم من الأثر البالغ الذى لعبته الحملة الفرنسية فى نشر الأفكار الليبرالية التى حملتها الثورة الفرنسية، ورغم الدور التنويرى والتقدم العلمى الذى استقدمته معها**»، ثم ختمت ذلك القول بعبارة مراوغة وغير مفهومة؛ إذ قالت «فإنها فى المقابل أظهرت قوى التجاذب والتنافر التى كانت تتنازع ضمنًا مصر الحديثة فى علاقاتها بأوروبا وبمجمل الحضارة الغربية»[1]!

وسنفنّد هذا الرأى البالغ الشذوذ والغرابة والمخالف تمامًا للتاريخ الواقعى الذى سجّله الجبرتى! بالاستناد إلى عدة مصادر تاريخية موثقة ومعروف أصحابها بالصدق وتحرّى الدقة:

أولاً: سنختار عرض بعض الأعمال الوحشية التى ارتكبها جيش فرنسا، فعندما قامت ثورة القاهرة الأولى قامت المدفعية الفرنسية من فوق ربا المقطم والقلعة تصب قذائفها على المدينة، وأخذت تنهال القنابل على الأزهر والأحياء المجاورة له، فمات ألوف السكان تحت الأنقاض، وكان الأزهر والأحياء المجاورة له مسرحًا لهذا التدمير، واضطر مشايخ الأزهر إلى طلب الهدنة، فقبل بونابرت ذلك. ثم دخل الجنود حتى وصلوا إلى الجامع الأزهر فاقتحموه **بالخيل وعسكروا فيه طول الليل.**

(١) نفسه ص ٥٠.

وقد قُتل في هذه الثورة من الأهالي عدد يقدر بأربعة آلاف، وجرى التنكيل بالثوار. فصدر أمر بونابرت بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين اعتقلوا ومعهم أسلحة، وإغراق جثثهم في النهر، وقبض على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة، ثم إعدامهم جميعاً[(١)].

أما دخول «الجامع الأزهر» فإن له دلالة لا تخفى على من علم بدوافع الحملات الصليبية المليئة بالحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، وهي نفسها التي دفعت عساكر فرنسا إلى اقتحام المسجد وجعلوه إصطبلاً للخيل، فكان القصد الاعتداء على أغلى ما يملكه شعب مصر: أي دينه وتراثه وشرفه، فقد دخلوا «وربطوا خيولهم بقبلته.. وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة، ونهبوا ما وجدوه من متاع.. ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيها وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه عروه، ومن ثيابه أخرجوه»[(٢)].

هذا، وقد علّق الشيخ محمود شاكر على ذلك بقوله: «وكان ما كان بعد ذلك وقبل ذلك، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها، بحقد وشراسة، وبالطبع وظاهر جداً أن «الحملة الفرنسية» بقيادة نابليون، ومعها مستشرقوها وعلماؤها لم يتكبدوا المشقة فما فوقها بقطع البحار والبراري والقفار، إلا ليخرجوا هذه الأمة من الظلمات إلى النور، أي عصر الجهالة المظلمة إلى عصر العلم المضيء، أي لنبدأ «عصر النهضة الحديثة» في بلادنا نحن، أو كما يقال!! هكذا ينبغي أن نقول لأبنائنا في المدارس والجامعات[(٣)]!!

---

(١) د. عبد العظيم رمضان (الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة) ص٥٨، ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م.

(٢)، (٣) محمود شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص٩١ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، كما أحال إلى كتاب (ودخلت الخيل الأزهر) للأستاذ محمد جلال كشك وهو دأب الاستعمار الفرنسي قبله كان في الجزائر (يهدم الجوامع ويحولها إلى ثكنات أو إصطبلات) محمد جلال كشك (الغزو الفكري) ص٣٦ الدار القومية بالقاهرة، ووجهة نظره أن الحملة الفرنسية لم تكن إلا غزواً استعمارياً، ليس مبعثه نشر مبادئ الثورة الفرنسية ص١٣٩، وهذا هو الوصف المطابق لأفعالها الإجرامية في مصر.

وفى ثورة القاهرة الثانية بذل الثوار ما فى وسعهم من مقاومة الجيش الفرنسى، مما أثار عجب أحد مهندسى الحملة وهو (مارتان) ما قام به سكان القاهرة ووصفه بأنه يصعب تصديقه، فقد صنعوا البارود وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع . . وأنشئوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل . . فظل القتال مستمراً نحو شهر (من ٢٠ مارس إلى ١٥ من ابريل سنة ١٨٠) ولم يتمكن كليبر من الاستيلاء على بولاق إلا بعد قتال عنيف انتقل من بيت إلى بيت، وأسفر عن تدمير الحىّ كله . . .

وعندما توقف القتال تعهد كليبر بالعفو التام عن جميع أهالى القاهرة . . ولكنه لم يحافظ على وعده، فقد فرض على أهالى القاهرة غرامة باهظة قدرها اثنا عشر مليونًا من الفرنكات ونكل بكثير من زعماء الحركة وعلى رأسهم محمد السادات [١] .

ومن يقرأ كتاب د. ليلى عنان (الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير) -الجزء الأول- كتاب الهلال -مارس١٩٩٨- يستطيع تفسير تصرفات القادة والجنود فى الجيش الفرنسى، فهم ممن أفرزتهم الثورة الفرنسية . . ومن سماتهم الصلف، حيث يرون أنفسهم على قمة الإنسانية ومن حقهم وواجبهم السيطرة على البشرية كلها، وفى استطاعتهم فرض قوانينهم على الجميع على غرار ما فعلته روما فى تاريخها من قبل ! . . فلم يقم أولئك بنشر الأفكار الليبرالية، والعمل على التقدم العلمى كما توهّمت الباحثة الدكتورة هالة مصطفى بكتابها (الإسلام والغرب) كما أشرنا آنفًا .

ومن الواضح تمامًا أن الباحثة لم تجشّم نفسها عناء الاطّلاع على تاريخ الجبرتى المعاصر للحملة الفرنسية [٢] والتى وصفها الوصف المطابق لواقعها، لقد وصف أول

---

(١) نفسه ص٢٠، ٢١ .

(٢) يقول المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى عن أثر الحملة الفرنسية على الجبرتى : «لقد عاش الجبرتى ليعاين التدمير المأسوى الذى داهم النظام المستقر عندما باغت نابليون مصر عام ١٧٩٨ بغزوها واحتلالها» ص١٨ من مقدمة كتاب (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس)، بقلم المحقق أحمد عبده على، ط مكتبة الأداب بمصر ١٤١٩هـ-١٩٩٨م . هذا، ولا تعليق لنا بعد وصف توينبى بالتدمير المأسوى لهذه الحملة لا بالتنوير كما يشيع المتغربون!

سنة الاحتلال الفرنسي بقوله: «أول سنيّ الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب المصنوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب»[1].

ولنقارن هذا الوصف الصادق عند بداية الاحتلال بالعبارات التى وصف بها فرحته الكبرى بجلائه عن مصر فقال: (فلما أصبح الخميس خامسه) اجتمع الناس من جميع الطوائف وسائر الأجناس، وهرع الناس للفرجة وخرجت البنت من خدرها، وأكثروا الدور المطلعة على الشارع بأغلى الأثمان، وجلس الناس على السقائف والحوانيت صفوفًا. فكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا، وموسمًا وبهجة وعيدًا، عمت فيه المسلمين المسرات، ونزلت فى قلوب الكافرين الحسرات، ودقت البشائر وقرت النواظر، فلله الحمد ولله المنة على هذه النعمة، ونرجع من فضله أن يصلح فساد القلوب، ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب، ويلهمهم سلوك سواء السبيل»[2].

---

(١) الجبرتى جـ٣، ص٢ نقلاً عن محمد جلال كشك (الغزو الفكرى) ص١٤٥، ط٢، الدار القومية للطباعة بالقاهرة، ذو الحجة سنة ١٣٨٥هـ-مارس سنة ١٩٦٦م.

هذا، وقد فضحت الدكتورة ليلى عنان زيف الأسطورة التي نسجت خيوطها لتصنع ما سمي تنويراً فرنسياً لمصر... واستمرت فى دراستها على مصادر فرنسية أى (أقوال شهود من أهلها) الذين اعترفوا بهدفهم الاستعماري، وبالفظائع التى اقترفها جند الحملة فى السنوات الثلاث التى قضوها فى مصر... وهى تنصح القارئ العربى بتوخّى الحذر، بل الريبة أيضًا، إذا تناول قراءة تاريخنا بأقلام قوم لا يرون فينا إلا جنسًا أدنى لا بد من استعماره بحجة تنويره وتحضيره! وكان عنوان الجزء الثانى (الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ). كتاب الهلال- أكتوبر ١٩٩٨م.

(٢) نفسه ص ١٤٦، ١٨٩، ١٩٠.

ويقول الأستاذ جلال كشك: «معركة الجزائر كانت من الجانب الفرنسى.. معركة صليبية يلعب الصليب فيها دور الرمز للمحتلين.. بل إن وزراء فرنسيين لم يتورعوا على أن يصفوا الحرب الجزائرية بأنها صراع بين الهلال والصليب (ص١١٠)، وكان الإسلام هو المحرك الثورى والموحد للجماهير.. ومات مليون شهيد.

وبعد، فلا نجد عذراً لأحد إذا أعاد الحديث عن طبيعة الحملة الاستعمارية الفرنسية، بعد أن حسم الجبرتي الأمر نهائيًّا بوصفها تلك الأوصاف (المحن -الأهوال -حصول التدمير وعموم الخراب)، وندعو القارئ إلى مشاركتنا الرأي في محاولة إدراك الحكمة من السماح للجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) لتكون موضوع الندوة الافتتاحية على مدار اليوم الأول لمؤتمرها السنوي السادس والعشرين، والذي دارت أعماله على مدى يومي ٨و٩ مايو سنة ٢٠١٠، حيث قرّر المؤتمر تناول تأثير الحملة الفرنسية على مصر على الحضارة الإنسانية الحديثة!!

مع إصرار المكلّف بإلقاء الكلمة الافتتاحية لتلك الندوة على أن الجدل ما زال محتدمًا، سواء في مصر أو في فرنسا أو في بقية أنحاء العالم، عن الحملة الفرنسية على مصر ودوافعها وطبيعة دورها وأهدافها وتأثيراتها على مصر والعالم[1]!!

بعض الصفحات السوداء للحملة الفرنسية:

ونحن مضطرّون أمام هذا الخداع والتزييف الصريح للتاريخ إلى عرض مختصر لبعض الصفحات السوداء في تاريخ الحملة كما رواها الجبرتي: قال (وانقضت هذه السنة (١٢١٥هـ) بحوادثها التي لا يمكن ضبط كليّاتها فضلاً عن جزئياتها: فمنها توالي الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنوع المظالم، وعم الخراب فهدموا تلك الجهات والحارات والدروب والدور والحمامات والمساجد... حتى بقي ذلك كله خرابًا متصلاً واحداً (ص٢٠٧).. وهدموا أبنية رأس الصوة. وهدموا أعالي المدرسة النظامية.. ونبشوا القبور.. وهدموا الجامع المعروف بالسبع سلاطين.. وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها وجعلوا جامع الزمر قلعة

(١) مجلة (الهلال) سبتمبر سنة ٢٠١٠م (الحملة الفرنسية على مصر.. رؤى يابانية) ص١٠٢.

ومنها تخريب دور الأزبكية وردمها بالأتربة . . وهدم خطة قنطرة الموسكى . . . ومنها توالى خراب «بركة الفيل» ودروبها وقصورها وبيوت الأمراء، وأخذوا أخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران . . . وكذلك ما كان بها من الرصاص والحديد والرخام (ص ٢٠٩).

- ومنها أنهم هدموا مصاطب الحوانيت التي بالشوارع . . ووصلوا فى الهدم إلى باب زويلة (ص ٢١١).

- ومنها قطع الأشجار والنخيل من جميع البساتين والجناين الكائنة بمصر وبولاق ومصر القديمة والروضة (ص٢١٣).

- ومنها هدم القبب والمدافن الكائنة بالقرافة تحت القلعة . . وأزالوا جانبًا كبيراً من الجبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة (ص ٢١٤).

وهناك صفحات أخرى ملطخة بالعار؛ إذ كان من خطة فرنسا إشاعة الفسق والفجور من خلال بيوت الدعارة وما شابهها . . يقول الجبرتى : (لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه . . . فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواجر . . ولما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق ، وفتكوا فى أهلها . . وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات وصرن مأسورات عندهم وأجبروهن على خلع الحجاب . . وتداخل مع أولئك المأسورات من النساء الفواجر حتى كثرت الفواحش من النساء (ص ٢١١، ٢١٢) عبد الرحمن الجبرتى (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) تحقيق : أحمد عبده على - مكتبة الآداب بمصر بالاشتراك مع صديقه شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

إن حديثه عن أثر فرنسا فى الحضارات الإنسانية الحديثة يثير الشك بمدى إحاطته بتاريخ فرنسا الاستعمارى . إن ما فعلته فى مصر كررته بطريقة أفظع بالجزائر . . وضحاياه المليون شهيد أو أكثر ليست منّا ببعيد، ولكن ما يفوقه شناعة وجرمًا ما ذكر به الإمام عبد الحميد بن باديس مواطنيه؛ إذ أعلن كيف هاجمت هذه الدولة المتشدقة بالحرية والإنسانية قبيلة العوفية ليلة ١٦/ ٤/ ١٨٣٢، وهى نائمة فى الخيام قبل الفجر، فذبحت هؤلاء العزل الآمنين ذبحًا لا رحمة فيه، حتى قال المؤرخ كريستيان فى كتابه (إفريقية الفرنسية) ما ترجمته : وهكذا وقع قتل كل نفس حية فى القبيلة دون تمييز

من جنس وسن، وعند الرجوع من هذه الحملة المخجلة كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة الرماح دون حياء..

كما بيّن ابن باديس كيف كانت تساق حيوانات الفلاحين غصبًا للبيع، وكان من بين الغنائم أساور نساء في الأيدي المقطوعة، وأقراط فتيات لا يزال تلتصق بها قطع من الآذان.. أما حرائق الكهوف في الجبال الجزائرية، فمن أفظع حوادثه ما فعله الأفاقون من جنود الاحتلال: حين أوقدوا النار ليلة كاملة أمام كهف يضم قبيلة بأجمعها، وما جاء الصباح ودخل الجند الكهف حتى وجدوا ثمانمائة من جثث الضحايا البريئة بين نساء وشيوخ وأطفال تحت أقدام الثيران والحيوانات التي انطلقت تلتمس النجاة من النار، فداست كل عزيز ثم لقت حتفها مع الناس!.. هذه الفظائع وأمثالها كانت أدلة ابن باديس، وحججه القاطعة على نذالة الطغيان الفرنسي[1].

وبعد، فتلك بعض صفحات تاريخ فرنسا الاستعماري الملطخة بدماء ضحايا الحضارة الإنسانية الحديثة وما خفي كان أعظم، ومع كل هذا ترتفع أصوات بعض ساستها -ممن فقدوا الحياء- يحذرون من الإرهاب!!!

أمّا محمد علي المستبد الغادر فإن الحديث عنه يطول، نجمله في سرد بعض أعماله.. ففي عهده اغتصبت فرنسا الجزائر (عام ١٢٤٦هـ-١٨٣٠م) دون أن يحرّك ساكنًا لنجدة إخوانه الجزائريين، بل واصل علاقته مع فرنسا وواصل فتح الطريق أمامهم في مؤسسات مصر، وفي عهده تم تصفية الزعامات الشعبية (علماء الأزهر)، وتم تصفية فصائل الجهاد الإسلامي (مذبحة المماليك بالقلعة) ومذابح الإنكشارية.. واستُخدم محمد علي لضرب الدولة العثمانية- أي الخروج على دولة الخلافة ومحاربتها.. أي تمزيق وحدة العالم الإسلامي بعد إجهاض قوته السياسية والعسكرية والاقتصادية[2]. ودأب في مصر على سحق الإرادة المصرية والزّعامات.

---

(١) د. محمد رجب البيومي (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين). جـ١، ص١١٧، ط مجمع البحوث الإسلامية ربيع الثاني سنة ١٤٠٠هـ-فبراير سنة ١٩٨٠م.

(٢) د. جمال الدين عبد الهادي (مصر بين الخلافة العثمانية والاحتلال الإنجليزي منذ عهد محمد علي وحتى عهد محمد توفيق) ص١٠، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٩٩٥م.

أمّا واقعة تولّيه السلطة وانقلابه على الشيخ عمر مكرم فإنها تثير الاشمئزاز بسبب الغدر والانحطاط الأخلاقي الذي تردّى إليه محمد على؛ إذ تعهّد أولاً بحكم مصر بشروط الشعب المتمثل في علمائه الذين كان يتزعمهم عمر مكرم (وهو الذي بلّغه سدّة الحكم)، فلما رأى هذا العالم انحراف محمد على واستبداده بالسلطة ونكثه ومخالفته الميثاق المحرر بينه وبين الشعب، أخذ ينتقده ويعارضه فكان مصيره النفي إلى دمياط [1]!!

هذا غيض من فيض.. ويبقى علينا واجب تزويد الباحثة الدكتورة ببعض النعوت التي أطلقها الشيخ محمد عبده، على محمد على، فمن أقواله:

«ما الذي صنع محمد على؟.. لم يستطع أن يُحيي ولكن استطاع أن يميت.. كان يستعين بالجيش على إعدام كل رأس من خصومه.. واتّخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السّلاح من الأهلين، فقسد بأسهم وزالت ملكة الشجاعة منهم.. أخذ يرفع الأسافل ويعلّيهم في البلاد والقرى، كأنّه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم.. ملأ مصر بالأجانب والدخلاء يستعين بهم على إقراره ونفوذه، وأذلّ المصريين بإطلاق يد هؤلاء الدخلاء فيهم.. يقولون: إنه أنشأ جيشًا كبيرًا فتح به الممالك ودوّخ الملوك وأنشأ أسطولاً ضخمًا.. فهل علّم المصريين حبّ التجنيد.. لا- بل علّمهم الهروب منه؛ لاعتقادهم أنهم يُساقون إلى الموت.. ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابي.. دخل الإنجليز مصر بسهولة ثم استقرّوا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس نصبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها. وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين في مصر. وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير» [2].

آثار ديكتاتورية محمد على:

يقول الأستاذ محمد جلال كشك: «إن خطيئة أو جريمة «محمد على» تشبه إلى حد ما جريمة عبد الناصر، وهي تدمير الرأسمالية المصرية بشقّيها الاقتصادي والفكري، وهي قيادة الأمة التي بوسعها أن تمتص الهزيمة العسكرية وتحد من نتائجها.. وقد دمّر محمد

---

(١) فتحي رضوان (دور العمائم في تاريخ مصر الحديث) ص٢٣/ ٢٤، ط الزهراء للإعلام العربي ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٢) د/ محمد محمد حسين (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) جـ١ ص١٨ باختصار، مكتبة الآداب بالقاهرة ١٣٨٢هـ.

على الرأسمالية المصرية من ناحية «بالاشتراكية» أو ما سُمى بنظام الاحتكار وهو اشتراكية بالثُلثُ إذا سمحنا لأنفسنا بتسمية تأميمات عبد الناصر الاشتراكية. بل إن اشتراكية «محمد على» كانت أشمل وأنجح، فقد كانت الدولة هى الزارع والتاجر والصانع والمدرسة، ونجح محمد على فى إقامة مصانع أكبر (نسبيًا) وأكثر إعجازًا وبدون قروض.. وكان الثمن هو دمار التجار والصنّاع والحرفيين، أو أسلاف البورجوازية الصناعية، كذلك دمّر محمد على القيادة الفكرية والسياسية للبورجوازية أو الرأسمالية الوطنية بديكتاتوريته (انظر كتابنا: ودخلت الخيل الأزهر سنة ١٩٧٠)، وإذا كان المثقفون المدافعون عن ديكتاتورية عبد الناصر بحجة إنجازاته، وقد سقطوا فى مزبلة التاريخ، فإن قباحة موقفهم تبدو أشد بمقارنتها بموقف عبد الرحمن الجبرتى شيخ المثقفين وأبو التاريخ المصرى الحديث.. الذى لم يغفر لمحمد على ديكتاتوريته قط، وقال فى عبارته المشهورة: «لو أوتى شيئًا من العدل لكان من ملوك التاريخ الكبار بل من أكبرهم»، لم يكن الجبرتى فى هذا الموقف من رفض ديكتاتورية محمد على يمثّل شرف الفكر فحسب، بل أيضًا عبقرية المؤرخ الذى قرأ سطور ما لم يقع بعد.. ذلك أن كل منجزات «محمد على» قد انهارت بسبب ديكتاتوريته لأنها قتلت قيادة الأمة، وأخرجت الأمة ذاتها من الصراع..

فلما انهزم الحاكم المستبد أصبح الوطن منزوع السلاح.. وفتحت البلاد للإنتاج الأجنبى الذى لم يجد مدافعًا، أو لم يجد طبقة لها مصلحة فى مقاومته.

وتحولت مصر إلى سوق للإنتاج الأوربى، وسقطت أول محاولة لإنجاز الثورة الوطنية التى لبّها ومغزاها هو بناء مجتمع صناعى، أو كما يُقال: كل ديكتاتور يذهب وتذهب معه منجزاته ولا تبقى إلا سيّئات ما ارتكب»[1].

اليقظة الإسلامية الحقة: نشأتها ومصيرها:

والآن، بعد أن تبيّن لنا أن تصوّر مشروع النهضة الذى تبناه التغريبيون قائم على المغالطات وقلب الحقائق، أو أنه قائم على أساس واه لا يصمد أمام التحقيق العلمى والدراسة المستندة على المصادر الموثقة، مع التأنى فى إصدار الأحكام لإقامتها على

(١) محمد جلال كشك (ثورة يوليو الأمريكية - علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية) ص٨٤، ط٢، الزهراء للإعلام العربى - ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

أســس سليمة مقنعة، وتوافر النية والإخلاص فى الأخذ بيد الأجيال الجديدة للتعرّف على «اليقظة الإسلامية» التى ظهرت بواكيرها قبل الحملة الفرنسية على مصر، وجاءت فأجهضتها واقتلعتها من جذورها.

وسيتضح لنا ذلك كله إذا اتخذنا من كتاب الشيخ محمود شاكر (**رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا**) مصدراً لتصحيح التاريخ وكشف اللثام عن التغرير الفاضح الذى طفحت به حياتنا الأدبية المهلكة على حدّ قوله!

ونبدأ بعرض القضية من أولها:

إن «جذور قضيتنا» كما يسمّيها الشيخ محمود شاكر كامنة فى نذير «الاستشراق» للمسيحية الشمالية.. فقد قام المستشرقون بعمل دائب وسياحة فى دار الإسلام، وأخذوا يمدّون الملوك بكل ما علموا فى سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة.. ولم ينس الفرنسيون هزيمتهم وأسر ملكهم لويس التاسع فى «دار ابن لقمان» بالمنصورة.

وظل المستشرقون يقدّمون التقارير والمذكّرات إلى ساستهم من رجال الاستعمار لوأد «اليقظة» الوليدة فى مهدها؛ حيث بيّنوا لهم الخطر الداهم الذى يهددهم إذا ما تم تمام هذه «اليقظة»، ويجب وأدها قبل أن يستفحل أمرها وتصبح قادرة على الصراع والحركة والانتشار [1]. وأمام هذا النذير المروّع تحرك الاستعمار الذى كان يرى بعين الاستشراق. أما إنجلترا فأسرع مستشرقوها إسراعًا حثيثًا إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية حيث قام «محمد بن عبد الوهاب» وأخذت تتدسس إلى يقظة لتحتويها.. ومن وراء الستار كانت تؤلب بينها وبين الانتشار. أما فرنسا التى طردتها إنجلترا من الهند كلها سنة ١٧٦١م، فآبت إلى ديارها تلعق جراحها، وجعلت تعد العدة وتفكّر فى اختراق دار الإسلام فى مصر، لوأد «اليقظة» المحفوفة العواقب التى بعثها «البغدادى» و«الزبيدى» و«الجبرتى الكبير» و«البغدادى» فى مصر، و«الشوكانى» فى اليمن، فهى «يقظة» يخشى أن تؤدى إلى يقظة دار الإسلام كلها بما فيها اليقظة المتفجرة المتحركة الجديدة فى جزيرة العرب، فإذا تم اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير [2]!

---

(١) محمود شاكر (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) ص١١٧/ ١١٩.

(٢) نفسه ص١٩٩.

إن هؤلاء العلماء الخمسة يعبرون عما يسميه الشيخ محمود شاكر بـ «الثقافة المتكاملة» . فقد هب (ابن عبد الوهاب) يكافح البدع والعقائد التى تخالف ما كان عليه سلف الأمة من صفاء عقيدة التوحيد، وهى ركن الإسلام الأكبر، ولم تقنع بتأليف الكتب، بل نزل إلى عامة الناس فى بلاد جزيرة العرب، وأحدث رجّة هائلة فى قلب دار الإسلام. وهب «المرتضى الزبيدى» يبعث التراث اللغوى والدينى وعلوم العربية وعلوم الإسلام [1]، وهب «الشوكانى الزيدى الشيعى» مُحيياً عقيدة السلف، وحرّم «التقليد» فى الدين، وحطّم الفُرقة والتنابذ الذى أدى إليه اختلاف الفرق بالعصبية . أما خامسهم وهو «الجبرتى الكبير» فكان فقيهاً حنفيًا كبيراً نابهًا، عالمًا باللغة وعلم الكلام وتصدّر عالمًا مفتيًا وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره، ولكنه فى ١١٤٤هـ (١٧٣١م) ولّى وجهه شطر (العلوم) التى كانت تراثًا مستغلقًا على أهل زمانه وقضى على ذلك عشر سنوات (١١٤٤-١١٥٤)حتى ملك ناصية الرموز كلها: فى الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كلها، حتى النجارة والخراطة والحدادة والسمكرة والتجليد والنقش والموازين، وصار بيته زاخراً بكل أداة عن صناعة وكل آلة، وصار إمامًا عالمًا أيضًا فى أكثر الصناعات، ولجأ إليه مهرة الصناع فى كل صناعة يستفيدون من علمه، ومارس كل ذلك بنفسه وعلم وأفاد، حتى علّم خدمه فى بيته .

ويقول عنه عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ (تاريخ الجبرتى ١-٣٩٧):

[وحضر إليه طلاب من الإفرانج وقرأوا عليه علم الهندسة، وذلك فى سنة تسع وخمسين (١١٥٩هـ-١٧٤٦م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة [2]، وذهبوا به إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجرّ الأثقال، واستنباط المياه وغير ذلك . .] ودوّت أسماء هؤلاء الخمسة فى أرجاء دار الإسلام وأشتات غيرهم، مؤذنة بيقظة جديدة، وإحياء لعلم الأمة ولغتها وثقافتها، واستعادة لسيطرة الأمة على أسباب حضارتها الزاهرة القديمة، وكان الشيخ محمود شاكر حريصًا على

(١) نفسه ص٨٣ .
(٢) نفسه ص٣٨ .

تسجيل التواريخ التى ظهر فيها العلماء الخمسة، ليقرّر أن (عصر النهضة) عندنا واقع بين منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى [1].

كذلك تنبّه إلى الفرق بين الشمال المسيحى والجنوب الإسلامى.. ويصوّره بأن الفرق بيننا وبينهم كان خطوة واحدة تستدرك بالهمّة والصبر والتصميم لا أكثر، بل أكثر من ذلك فإن اليقظة الأوربية كانت أبعد فى أول الطريق وتتكئ اتكاء شديداً على ما كان عندنا من العلم المسطور فى كتبنا (لكن الفرق بين اليقظتين هو أن يقظتنا كانت هادئة سليمة الطوية منبعثة من داخلها، ليس لها هدف إلا استعادة شبابها ونضرتها فى حدود الإسلام.. أما يقظتهم فكانت متفجرةً بحقد قديم.. وهدفها إعداد العدة لاختراق دار الإسلام بالدهاء والمكر والخداع بعد أن قام (الاستشراق) بالتجسّس على ما يجرى فى دار الإسلام، وكان نذيره يحذّر المسيحية الشمالية من اليقظة الإسلامية الجامعة بين علوم اللغة و(علوم الحضارة)، وهى (يقظة) تضم «الجامع العتيق» بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص -رضى الله عنه- و«الجامع الأزهر حيث عاشا جميعًا متواصلين اثنى عشر قرنًا موئلاً للعلم والعلماء، فاليقظة التى تأتى من قبلهما سوف تؤدى إلى يقظة دار الإسلام كلها[2].

وأسفر عن ذلك قيام نابليون باختراق قلب دار الإسلام من الشمال ليداهم «اليقظة» التى أرّقت منام الاستشراق؛ ليبطش بها فى عقر دارها بطشة جبّار لا يُبقى على شىء [3]. وكان ما كان من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها، بحقد وشراسة.

وبعبارة شديدة السخرية (سبق اقتباسها ونعود إليها) يكشف بها اللثام عن التغرير الفاضح الذى طفحت به حياتنا الأدبية الفاسدة المهلكة، فيقول: «**إن الحملة الفرنسية ومستشرقيها وعلماءها ما جاءوا إلا ليخرجوا هذه الأمة من الظلمات إلى النور**.. أى لنبدأ عصر النهضة الحديثة فى بلادنا نحن أو كما يقال!! هكذا ينبغى أن نقول لأبنائنا فى المدارس والجامعات!! ألم أقل لك آنفًا إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات، والحسرات والآهات»؟

(١) نفسه ص٨٤.

(٢) نفسه ص٨٩.

(٣) نفسه ص٩٠، ٩١.

ويتضح بجلاء وللمتابع للصحوة الإسلامية المعاصرة أيضًا ثبات سنة الله تعالى بدفع الحق والباطل، وذلك إذا ما أعدنا بالذاكرة ما فعلته الحملة الاستعمارية على مصر بقيادة نابليون بالصحوة آنذاك، والأمارات على ذلك أن الصحوة المعاصرة قد تمّ الإعداد لسحقها وتبديدها حسب وصف الشيخ الغزالى.

يقول الشيخ محمد الغزالى: «والحق أن الصحوة الإسلامية تكتنفها أخطار هائلة، يشارك فى صنعها مبشّرون ومستشرقون وساسة وعسكريون وأدباء وإعلاميون وملاحدة وكتابيون، ومصارحون ومداهنون، وأناس غرباء وأناس من جلدتنا، وقد عرّفها بأنها تنامى الوعى بأهمية العودة إلى منابع الإسلام ووزن السلوك بميزان الشرع»[1].

الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لصد التغريب:

منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى العصر الحاضر ساد التيار التغريبى العلمانى الوافد مع الاستعمار الفرنسى بقيادة نابليون فى مصر، الذى جدّد الحملات الصليبية بدوافعها العدائية للإسلام والمسلمين، ثم الاستعمار الإنجليزى الذى سلخ مصر من الخلافة العثمانية ليضمها إلى الإمبراطورية البريطانية. أى أن الحملتين تعبّران عن تجديد الحروب الصليبية، والفارق بينهما أن فرنسا جاءت بشعار مضلّل بزعم الأخذ بأيدينا إلى الحضارة، بينما كان عداء الإنجليز سافرًا، فقد قال مستر جلادستون علنًا (بوجوب إعدام القرآن وتطهير أوربا من المسلمين)[2].

وانتهزت أوربا ضعف الخلافة العثمانية فى عصرها الأخير فاتفقت على تقسيم الشرق إلى مناطق نفوذ، فتقدّم الإيطاليون إلى طرابلس واحتلوها.. ثم تقدّم الفرنسيون إلى الجزائر واحتلوا تونس ثم مراكش، واحتل الإنجليز مصر وذهبوا إلى السودان.. ثم قصدت أوربا إخضاع فارس وأفغانستان، واقتسمت روسيا وبريطانيا النفوذ فى فارس.. (وهكذا قسّمت أوربا الشرق وحطمته كل تحطيم ولم تسمح بأى حركة إصلاحية لأنها عدّت الإصلاح عدوًا لها)[3].

---

(١) محمد الغزالى (مائة سؤال عن الإسلام). حـ٥، ص٩١، هدية مجلة الأزهر، جمادى الآخرة سنة ١٤٢٩هـ.
(٢) أحمد أمين (يوم الإسلام) ص١١٢.
(٣) نفسه ص١١٧.

وأمام هذا الواقع الأليم كان ضرورياً أخذ الأهبة للدفاع عن الدين والأوطان؛ مما دعا كثيراً من المصلحين إلى «الجامعة الإسلامية»[1]، ويعنون بها الرابطة التى تربط بين المسلمين فى مختلف الأقطار من فرس وترك وعرب، وقد كانت كلمة مفزعة لأوربا فى القرن الماضى، حيث رأى المصلحون أنه إذا كان الأوربيون يتكتلون على الباطل لمحق المسلمين فأولى أن يتكتل المسلمون على الحق لدفع كارثة الاستعمار، وقد كان أول من نادى بها فى العصر الحديث جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ومصطفى كامل الذى كان يرى ارتباط مصر بالدولة العثمانية باعتبارها أقوى الدول الإسلامية، وكان يحمى هذه الدعوة أيضًا السلطان عبد الحميد الذى حاول إحياء الخلافة الإسلامية فى شخصه.

وعندما أحسّ الأوربيون بخطر هذه الدعوة حاربوها بكل قوتهم: بصحفهم ومؤتمراتهم، واستنجد بعض الأوربيين بالشعوب المسيحية طالبين إعانة سنوية، والنهضة بالمبشرين ونشر الرسائل، وإنشاء مجلة لمقاومة فكرة الجامعة الإسلامية، وقام رئيس المبشرين (زويمر) بعقد مؤتمر فى سبتمبر سنة ١٩٩١م، وكان موضوعه (الجامعة الإسلامية وكيفية مقاومتها)[2].

ومنذ ذلك الحين انقسمت بصفة عامة حياتنا الثقافية إلى تيارين:

أحدهما: التيار الإسلامى منذ الاستمساك بفكرة الجامعة الإسلامية، وظلّ يمثله المجددون والإصلاحيون، أمثال الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ومصطفى كامل، ومن سار على دربهم فى العصر الحديث، ومنهم أعضاء (مصر الفتاة) بقيادة أحمد حسين. يقول الدكتور على شلبى (أما عن علاقة مصر الفتاة بالحزب الوطنى فإننا نجد أن مصر الفتاة تشعر منذ البداية أنها تعمل بوحى من مبادئ مصطفى كامل- كذلك

---

(١) أحمد أمين (يوم الإسلام) ص١٤١، ويقول: «ومن المؤسف أن حاجة المسلمين إلى الجامعة الإسلامية هى اليوم كما كانت ولم تتقدم كثيراً ولم تكف أوربا عن مناهضتها، وكل حادثة من الحوادث الكبار تؤيد الرأى القائل بأن المسلمين لا تقوم لهم قائمة إلا بهذه الجامعة، وآخر حادثة كانت هى حرب فلسطين، فإن العالم العربى لم يتحد على مقاومة اليهود، كما اتحدت إنجلترا وأمريكا على مناصرتهم، فضلاً عن عدم اتحاد العالم الإسلامى، ولو ظل الأمر على هذا النحو فلم يتعظوا بهذا ولم يلموا شملهم، فستضيع كل يوم بلاد إسلامية جديدة، فهل يتعلم المسلمون هذا الدرس بما أصابهم من فشل؟ أو سيبقون كما هم حتى يلدغوا من جحر واحد مرتين وثلاثًا لا قدر الله (ص١٤٣).

(٢) نفسه ص١٣٩.

عندما تأسست جمعية مصر الفتاة لقيت الترحيب الحار من جانب الحزب الوطني . . .
ولا يرى كلا الطرفين فاصلاً واضحًا بينهما إذ يعبر كل منهما عن الآخر مكمّلاً له . .
هذا بينما كان التيار العلماني الليبرالي ممثلاً في أحمد لطفي السيد يتبنى فكرة «القومية المصرية» بدلاً من «الجامعة الإسلامية» التي نادى بها الحزب الوطني . د/ أحمد شلبي (مصر الفتاة ، ودورها في السياسة المصرية) ص ٥٧٥٠ وص ٤١٤/ ٤١٦ الهيئة العامة المصرية للكتاب ٢٠١٠م .

التيار الثاني: وهو من صنع الاستعمار ، وهو تيار تغريبي وعلى قمته أحمد لطفي السيد استطاع أن يحدث ثغرة ويخلق تياراً منفصلاً لنشر المفاهيم الغربية ، واستمدّ قدرته على الحركة من النفوذ الإنجليزي ليحمل لواء الدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة وبين الشريعة والمجتمع ، وكان سنده كتاب (الإسلام وأصول الحكم) المنسوب لعلي عبد الرازق . وعن طريق مؤسّساته وإرسالياته وجامعاته التابعة له والقائمة في قلب العالم العربي والإسلامي والتي تضم المئات من أبنائه ، فضلاً عن سيطرته على مناهج التربية والتعليم وعلى الصحافة والحياة الثقافية برجاله ونفوذه [1] . وقد مر بنا الدور المشين الذي قام به (حزب الأمة) بقيادة أحمد لطفي السيد .

وما زال هذا التيار ماضياً في طريقه بإصرار بل زاد ضراوة الآن مع ما يسمى بـ (ثورة المعلومات) ؛ مما أثار قلق الدكتور جلال أمين ؛ لأن المعلومات يمكن استخدامها لإفادة الإنسان من التحذير من الميكروبات مثلاً ، ولكن مع تجربتنا مع الحضارة الغربية تبين أنها تستخدمها لقهر الإنسان وتقييد حريته . . فضلاً عن أن المعلومات التي تأتي إلينا ليست محايدة ، بل قد تحمل بعض عناصر الثقافة المتعارضة تمامًا مع ثقافتنا ، وتتبع في بثها طريقة تضعضع ثقتنا في أنفسنا ، بل كثيراً ما تروّج لنمط حياة مضاد لنمط حياتنا ويشيع فينا الشك في صلاحية أسلوبنا في الحياة وجدارته . . ومما يزيد في الحزن والأسى أن ما يحدث لمصر والعرب في ميدان السياسة والاقتصاد من إذلال لا نظير له، ومع ما تتعرض له اللغة العربية والتقاليد العربية الإسلامية من انحسار أمام اللغات الأوربية

(١) أنور الجندي (اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ، (منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى) ص٣٢ ، ٣٣ ، ط دار الاعتصام بدون تاريخ .

والتقاليد الغربية، وذلك باسم «الحرية» تارة وباسم «حقوق الإنسان» مرة، وباسم «السلام» مرة، وباسم «التنوير»[1] مرة.

كيف حوربت الجامعة الإسلامية؟

ابتدع الأوربيون لمحاربة قيام الجامعة الإسلامية فكرة الجامعة العربية التي دعا إليها كثير من كتّاب الغرب وساسته تخوفًا من الجامعة الإسلامية التي رأوا فيها الخطر الأكبر؛ إذ اقترنت في أذهانهم بفكرة الخلافة العثمانية وأغرت هذه الفكرة كثيراً من المسلمين، فراحوا يؤيدونها ويدعون لها دون أن يذكروا أنهم أخذوها من الأوربيين، وكان من هؤلاء السيد على يوسف صاحب (المؤيد)، وتأثرت بها الأذهان إلى ما بعد سنة ١٩٣٢، أما أحمد لطفي السيد فقد دعا إلى فكرة جديدة «الجامعة المصرية»، وهذه الجامعة المصرية تقوم على أساس النزعة الفرعونية، وأن أهل هذه البلاد لا صلة لهم بعروبة ولا إسلام وكان هذا الكلام قرّة عين الاستعمار.

ثم ظهرت من جديد فكرة الجامعة العربية ومع أنها تُبعث مرة أخرى من الأطماع الإنجليزية إلا أن المصريين والشرقيين تحمّسوا لها وحرصوا على الانتفاع بها ضد الاستعمار من دسائس الإنجليز.

وفي ذلك يقول الأستاذ فتحي رضوان: «وتنبّه مصطفى كامل إلى هذه المحاولة، وأثبت أن نيّة بريطانيا لا تهدف إلى إنشاء جامعة عربية للعرب ولمصلحة العرب، بل جامعة عربية تعيش في ظل إنجلترا وتحت سلطانها، وكان هذا التنبؤ من مصطفى كامل من أكثر من خمسين عامًا، فتحقّق ما تنبأ به، وثبت أنه يجب على جميع الدول العربية أن تكافح النفوذ الأجنبي لتخلص الجامعة العربية للعرب، وتكون أداتهم في تحقيق العزة والكرامة»[2].

---

(١) د. جلال أمين (التنوير الزائف) ص٩٥ وص١٢٢: كذلك يذكرنا بالأيام العصيبة في حرب سنة ٦٧، ومطبع في ذهنه آثار رواية كاتب تيجرى مع ما يحدث لمصر الآن، هذه الرواية عنوانها (عندما ينهار كل شيء) ص١٢٠.

(١) الشيخ محمد الغزالي (حقيقة القومية العربية، وأسطورة البعث العربي) ص١٢٥، ط٣، دار الكتب الحديثة -مصر ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

إن الإنجليز الذين طالما حاربوا الإسلام رحّبوا بقيام الجامعة العربية، ظانين أنها سوف تكون أداة صالحة لاستقرار المنطقة على نحو يتمشّى مع أهدافهم البعيدة.. لكننا نحن العرب رحبنا بقيام الجامعة لتخدم قضايانا، وتنمّي وحدتنا لا لتخدم خصومنا وتؤمن رغباتهم، ويبدو أن القومية العربية وُلدت من فترة طويلة في هذا الجو نفسه: الغزاة الأجانب يحسبونها عوضًا عن الإسلام وصارفًا عن التفكير فيه.

ويقول الشيخ الغزالي: «والعرب لا يعرفون هذا، ولا يصدقّون سماسرة الاستعمار الذين يشرحون هذه القومية على أنها مقطوعة الصلات بالدين، وعلى أنها مانعة من العود إليه والاستقاء منه... وهناك مستحدثون في المجتمع العربي لهم أمانة العلماء في البحث، وإن فاتهم أحيانًا موانع الصواب فيما يكتبون»[1].

هذا باختصار ما أورده الشيخ محمد الغزالي بكتابه، ولكنه استند أصلاً إلى مقال للدكتور عبد اللطيف حمزة أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة في جريدة الأهرام بعنوان (الجامعة الإسلامية والجامعة العربية).. ومما ورد به أن المعنى الأول لفكرة (الجامعة الإسلامية والجامعة العربية)؛ ومما ورد به أن المعنى الأول لفكرة الجامعة الإسلامية في أذهان المسلمين فهو النهوض ببلاد الإسلام نهوضًا تستيقظ من سباتها، وتتخلصّ من النفوذ الأوربي الذي كان عاملاً حقيقيًّا في تخلّفها، لا في تقدمها كما زعم القوم.

وأما المعنى الثاني لفكرة الجامعة الإسلامية فهو ما وقر في مشاعر الغربيين وأفكارهم من أن الإسلام يعاود زحفه القديم، ويهدّد كيانهم الروحي ونفوذهم السياسي.. ثم إن النزاع الدامي الذي نشب طويلاً بينهم وبين الأتراك لا يتيسر محوه من الذاكرة، ومن ثم قاوموا فكرة الجامعة الإسلامية مقاومة عنيفة وأوجسوا خيفة من ترك دعاتها يجمعون العواطف حولها، خصوصًا إذا قام هذا الجمع على حشد قوي للمسلمين وراء الترك أي وراء الخلافة.. ومن ثم اقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بفكرة الخلافة العثمانية، ووجد

---

(١) نفسه ص١٢٦، ومما ينبغي التنبيه إليه أن (ساطع الحصري الراعي للقومية العربية) ليس عربيًّا بل هو تركي ومن طائفة يهود (الدونما)!! مقال: (التحول من الإسلام إلى العروبة) ص٥٨ د. فهمي الشناوي: مجلة المختار الإسلامي، جمادى الآخرة ١٤١٨هـ- أكتوبر سنة ١٩٩٧م.

المسلمون فى هذه الفكرة السبيل الوحيد لإنقاذهم من براثن الاستعمار الأوربى، واقتنع بهذه الفكرة الزعيم مصطفى كامل، ورأى فى بقاء الدولة العلية يومئذ أمراً لازمًا للتوازن الدولى، لولا ما أصابها من ضعف جعل ممتلكاتها طعمة للاستعمار الأوربى [1].

وما دام موضوعنا هو (التنوير) فمما لا شك فيه أنه أثر من آثار التغريب الذى بدأ منذ محمد على، وكان بوسع المجدِّدين فى العالم الإسلامى أمثال محمد عبد الوهاب والأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم ممن يمثّلون التيار الإسلامى ويعبِّرون عن اليقظة فى العصر الحديث، كان بوسعهم إزالة هذا التنوير الوافد مع الاستعمار الغربى بجناحيه العسكرى والثقافى لو أتيح لهم الإمساك بزمام الأمور، ولكن ضُيِّق عليهم الخناق، واستطاع الاستعمار بذر بذور الانشقاق فى الأمة بتشجيعه التيار العلمانى، فأنشأ حزب الأمة بقيادة لطفى السيد وحارب الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل الذى تبنى فكرة (الجامعة الإسلامية)، وجاهد تحت رايتها (وهذا موضوع يطول شرحه ويحتاج إلى دراسة مستقلة). وكانت الفكرة بديلاً عن الخلافة التى ألغاها أتاتورك (وهو من طائفة الدونمة اليهود الذين يتظاهرون بالإسلام نفاقًا). يقول الأستاذ فتحى رضوان (هوت الخلافة الإسلامية بعد أربعة عشر قرنًا متصلة، وقد اتخذت هذه الخلافة خلال خمسة قرون من هذه القرون الأربعة عشر تركيا موطنًا حتى سقطت فى ٢ مارس سنة ١٩٢٤م، واستيقظ المسلمون ذات صباح فإذا هذا البناء الضخم يتناثر وينهار؛ وإذا هذا الاسم الرنان يتوارى من التاريخ، وإذا هذا التاج الرفيع يتدحرج... ولم يجد العرب والمسلمون من ينظم لهم دموعهم قصيدة تروى أحزانهم وتصفها سوى شاعرهم المجيد أحمد شوقى، فراح يبكى لهم، ويفرج عن أوجاعهم. ومما قاله فى رثاء الخلافة:

الهند والهة ومصر حزينة ... تبكى عليلاً بدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحى من الأرض الخلافة ماح؟!

وبقدر ما بكى المسلمون على الخلافة، فرح الغرب باختفاء هذا الاسم الذى اقترن آخر الأمر بتركيا التى وقفت قرونًا طويلة سدًّا منيعًا فى وجه الزحف الاستعمارى [2].

---

(١) نفسه ص١٢٣، ١٢٤.

(٢) فتحى رضوان (مشهورون منسيون) ص ١٠٢/ ١٠٤ (كتاب اليوم - رمضان ١٣٩٠هـ- أكتوبر سنة ١٩٧٠م).

ولكننا بصدد استكمال الحديث عن التغريب الذى ظهر أمره، واشتهر نهاراً وجهاراً بواسطة المستغربين من بنى جلدتنا، وأعلنوا أن مشروعهم (مشروع نهضة) وأقاموه على أساس مشروع محمد على.

خطورة الثقافة الغازية على ثقافات الأمم:

ويمضى الدكتور جلال أمين فى بسط وجهة نظره؛ حيث يرى أن المجتمع التكنولوجى الحديث تعدى مرحلة ما يسمى بالغزو الثقافى، بل ما تم فى ظله هو **«نفى الثقافة أصلاً»**؛ إذ إن الثقافة الغازية فى هذه المرة تتسم بعدائها المستحكم للتفرّد، أى بعدائها لأية هويّة، بل تسحق التفرّد والتميز سحقًا وكأنها «بلدوزر» يسير على الثقافات جميعها [1].

ويضرب على ذلك بأمثلة، مثل «البلوجينز» فإنه فضلاً عن غزوه للعالم بأسره، فيمكن اعتباره أيضًا نفيًا للثقافة أصلاً. ومثل هذا ينطبق على الهامبورجر والماكدونالد، ومختلف المأكولات والمشروبات السريعة.. وبعد وصفها بالتفصيل، يقول فى النهاية بسخرية: **«نعم ثقافة أمريكية، ولكنها أيضًا ليست ثقافة أصلاً»!**

ويؤكد أيضًا أن الغزو الثقافى الذى يتم فى عصر التكنولوجيا الحديث يختلف عن غيره من صور الغزو الثقافى التى عرفها تاريخ الإنسانية من قبل [2]!

وتتلخص دراسة الدكتور جلال أمين فى رفضه لما يسميه البعض التوافق مع حضارة العصر وفقًا لمتغيراته؛ وذلك لأن هذه الحضارة -أى حضارة الغرب- تريد فرض سيطرتها على العالم بما فى ذلك بلاد العرب والمسلمين، وأن الاستعمار القديم غيّر ثوبه بلباس مستحدث؛ لأن الاحتلال لم يعد مقبولاً سياسيًا أو أخلاقيًا؛ ومن ثم سمح **(بالاستقلال) فى أمور مظهرية بحتة**، ولكن ظل الاستعمار الجديد متفقًا مع الاستعمار القديم، من حيث القهر وفرض الإرادة من دولة على أخرى، بل وأحيانًا بدرجة أشد قسوة [3]!

---

(١) نفسه ص١٦٨.

(٢) نفسه ٦٤، ولخطورة أثر الغزو الثقافى والتحذير من الوقوع فى براثنه أطلق عليه الشيخ محمد الغزالى (الاستعمار الثقافى) وكيف نجح بإغراء لفيف من حملة الأقلام بالتمرد على دينهم واستنكار مقرراته. ص٩٥ من كتابه (الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا) مؤسسة الشرق - عمان ١٩٨٥م.

(٣) د. جلال أمين (عولمة القهر -الولايات المتحدة والعرب والمسلمين قبل وبعد أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١) ص٣٠، دار الشروق ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

كذلك ظل الهاجس الذى يشغله، بل هو مدار اهتمامه فى كتابيْه (العولمة) و(عولمة القهر) الحرص على المحافظة على الهويّة، وعدم التفريط فيها بأى صورة من الصور، مؤكداً أن الاحتفاظ بالهوية ليست دعوة للرجعيّة.

إنه يوجه نقداً شديداً لبعض المثقفين العرب الذين ظنّوا أن المعركة حسمت لصالح العدو فوضعوا أنفسهم فى خدمته، أو البعض الآخر الذين سكتوا أو تقوقعوا، مع الاكتفاء بالخوض فى معارك صغيرة هناك وهناك بغرض إرضاء الضمير أو التفريج عن النفس.

وفى رأيه أن هناك نوعًا مختلفًا تمامًا من المثقفين العرب هم الأفضل فى نظره، وإن كانوا قلة نادرة، ويعلّق الآمال على تزايد عددهم، هؤلاء يدركون أن المعركة قد تم حسمها، ولكنهم يرفضون بأن الحرب انتهت؛ ومن ثمّ فهم يعملون ما فى وسعهم لتحسين نتائج أى معركة مقبلة، أو على الأقل لوقف التدهور الذى يزيد صعوبة كسب أى معركة مقبلة، كما أنهم لم يفقدوا الأمل فى المستقبل، ويرفضون اعتبار الانتصار الحالى لقوى القهر وكأنه يمثل نهاية التاريخ. فالتاريخ الإنسانى فى نظرهم أغنى الاحتمالات ممن يظن هؤلاء القائلون بنهاية التاريخ، والإنسان فى نظرهم لديه القدرة على تجاوز محنته الحالية، والدخول فى عصر جديد قد يكون للعرب منه مصير أفضل بكثير، ويرفضون بإصرار الاعتقاد بأن علينا قبول الأمر الواقع مهما كان كريهًا[1].

ويقول فى عبارة حاسمة: «إنى على استعداد للاعتراف بعيوبى ونقائصى، وللإقرار بأن أفكارى وتراثى وتاريخى وحاضرى، كل ذلك فيه من العيوب ما يتطلب الإصلاح، ولكنى لست مستعداً للتضحية بشخصى لصالح شخصية مختلفة عنى، وليست أفضل منى»[2].

ويعتريه الغضب المستطير عندما يرى الإهانات توجه إلى دينه وقومه، وذلك عندما يُقرن اسم الإسلام كل يوم بالإرهاب، مرّة بالقول: إنه دين إرهابى بطبعه، ومرّة بالقول بأنه ليس إرهابيًا بالضبط ولكن فيه كلام يشجع على الإرهاب، ومرة بالقول بأنه دين لا بأس به فى الأصل ولكنه أصبح إرهابيًا بعد ذلك[3]! ثم يقول:

---

(١) نفسه ص١٧٥.

(٢) نفسه ص١٧١.

(٣) نفسه ص١٤٠.

«عندما يوقن المرء من ذلك فلا بد أن يعتريه الغضب والذهول؛ إذ يرى أن الفكرة العبقرية التى طرأت على ذهن الجامعة العربية، التى تمثل سائر العرب هى عقد مؤتمر عن (حوار الحضارات)»... ثم يتساءل متعجبًا: «فما هو هذا المسمى «بحوار الحضارات» على أى حال، الذى يصدّعوننا بالكلام فيه؟» (١).

ومثار الغرابة أن الأولى بمثل هذا المؤتمر أن يعقد لمناقشة الإجراءات العاجلة والواجب اتخاذها للرد على الصلف الأمريكى، فإن العرب والمسلمين يُضربون ضربًا مبرحًا، ويهانون بشكل غير مسبوق، ليس فقط فى أفغانستان وفلسطين بل وفى العالم بأسره.. أو للمطالبة بالإفراج فوراً ودون تأخير عن العرب والمسلمين المعتقلين فى أمريكا لمجرد «الاشتباه فيهم» أو ربما على أساس لهم «ملامح شرق أوسطية» (٢).

أما المقال المعنون بـ(صراع الحضارات) لهنتجتن الأمريكى، فيرى الدكتور جلال أمين أنه كان مؤشراً لنيات السياسة الأمريكية فى تلك الحقبة الجديدة التى تلت سقوط الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة، ويرفض هذا العنوان لأن الذى بين الشعوب العربية أو الإسلامية وبين الغرب ليس فى الحقيقة «صراعًا» بل هو «اعتداء»، والعلاقة هنا ليست متساوية بل العلاقة أشبه بالعلاقة بين الذئب والحمل فى القصة المشهورة.. واستخدام كلمة «حضارات» فيه خبث أيضًا، وكأنه كأى احتكاك عرفه التاريخ بين حضارة وأخرى؛ إذ إن واقع الأمر هو اعتداء اقتصادى أو عسكرى أو سياسى أو ثقافى أو كل ذلك معًا (٣).

ويؤكّد هذا المعنى بتوسّع الدكتور حامد ربيع بقوله: «إن قوة الإنسان الحقيقية ليست بأن يسرع بالتخلّى عن هويته إزاء أول لطمة تصيبه نتيجة لتمسكه بذاته الحضارية، وإنما قوته هى فى أن يزداد تمسكًا؛ لأن الذات الحضارية لا يمكن أن تتغير أو تتبدل. إنها

(١)، (٢) نفسه ص ١٤٠، ١٤١.
(٣) نفسه ص ١٤٢.

تولد معنا وتنساب فى دمائنا وتشب خلال حياتنا، وتونع مع إيناع شخصيتنا، وتظل هى وحدها تمثل استمرارية وجودنا المعنوى عقب اختفائنا العضوى، إنها القوة منها تستمد الإيمان بالوجود والثقة فى الماضى والتطلع إلى المستقبل، أليست هى آباءنا وأجدادنا الذين تربطنا بهم رابطة الدم والأصل؟ وأليست هى أبناءنا وأحفادنا الذين سوف يحملون اسمنا من بعدنا ويواصلون سيرة الوجود عقب انقطاع حياتنا؟ وإن لم تكن هذه الرابطة التى تخلق قنطرة بين الماضى والحاضر والمستقبل هى سندنا فى الحياة فماذا تبقى لنا فى الوجود نتمسك به ونستمد منه القوة والشجاعة والهيبة، وبصفة خاصة القناعة بوظيفتنا فى الوجود الإنسانى؟»[(١)].

هذا وقد لخص الشيخ محمود شاكر جهود المستغربين بأنهم سعوا لكى يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغَلَبة على عقولنا، وعلى مجتمعنا وعلى حياتنا وعلى ثقافتنا، وبهذه الغَلَبة يتم انهيار الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة، وصحّحوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الإنسانية والأدبية والأخلاقية والعملية والعلمية والفكرية، وردّها إلى طريق مستقيم علمه من علمه وجهله من جهله[(٢)].

مع العلم بأنه وقف فى وجه التغريب بصرامة منذ معركته الشهيرة مع طه حسين، وخاصة معارك فى جبهات شتى ليضيّق المنافذ التى تسلل منها الشوائب الفكرية، وسد الثغرات التى لا يُستهان بها رافضًا إطلاق وصف «التراث» على حضارتنا؛ لأن كلمة تراث تطلق على نتاج حضارة بادت واندثرت ثم تتناولها بالحديث. أما حضارتنا فما زالت مستمرّة باقية وليست تراثًا[(٣)].

كيف انشطرت الثقافة الإسلامية؟

قد يبدو هذا الوصف غريبًا لأول وهلة، ولأنه من وضع الشيخ محمود شاكر، فسنعرض بإيجاز شديد لتاريخ المحنة التى تعرضت لها ثقافتنا الإسلامية.

---

(١) د. حامد ربيع (قراءة فى فكر علماء الإستراتيجية) الكتاب الخامس ص٥٩، دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

(٢) عايدة الشريف (شاهدة ربع قرن) ص٨٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٣م.

(٣) نفسه ص٨٩.

أفرد الشيخ محمود شاكر كتابه الشهير (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) لعرض هذه القضية البالغة الأهمية ويرجع إليه الفضل فى كشف الستار عن الطعنة التى وجهها الاستشراق -وهو طليعة الاستعمار- إلى الثقافة الإسلامية.

ويشاركه فى هذا الرأى: الشيخ محمد الغزالى الذى يفرّق بين الثقافة الذاتية للأمة الإسلامية، وهي تختلف عن العلم (كالهندسة والفيزياء والطب والعمارة.. وغيرها) فإن العلم لا وطن له.. أما هذه الثقافة فهى تصوّر شخصية الأمة وملامحها الفكرية والنفسية وتشمل العقائد والأهداف والشرائع والأخلاق.. وهى إكسير الحياة للأمة ومن هنا اتجه الاستعمار العالمى إلى ضرب هذه الثقافة، وتوهين معاهدها وشل حراكها وأبقاها صورة هامدة.. وذلك ما حدث لجامعة القرويين والزيتونة والأزهر والجامعات الإسلامية في ليبيا والسودان وأقطار أخرى.. ونتج عن ذلك أمران خطيران: اضمحلال العقل الإسلامى وضعف الدراسات الدينية.. ولما كان قادة العرب من خريجى التعليم المدنى - أكثر من ٩٩٪ منهم بعيد الذهن عن ثقافتنا الذاتية، لذلك فإن النهضة الإسلامية تتعثر. كتابه: (مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية) ص٣٣، ٣٤ ط دار الشروق ١٩٨٣.

وهذا الكتاب جدير بعناية رجال التربية والتعليم وعلماء اللغة والدين والدعاة، بل كل مشتغل بثقافتنا.

ويقتضى التمهيد الإشارة إلى ما رأيناه من اتفاق كلٍّ من محمد أسد ودوباسكويه على ما تتميز به الثقافة الإسلامية من مكانة خاصة لا تشاركه فيه أية ثقافة أخرى لأنها ثقافة التنزيل.

وهذا ما ذهب إليه أيضًا الشيخ شاكر وأضاف إليها ميزة ثانية وهى صفة الشمول فوصفها بأنها «ثقافة شاملة» أو «متكاملة»[1] طوال تاريخها إلى أن قام الاستعمار فى العصر الحديث فقسّمها إلى شطرين بواسطة الاستشراق.

---

(١) محمود محمد شاكر (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) ص ٩٩. مكتبة الخانجى بالقاهرة، ط٢ ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

وتتصل هذه القضية بقضية أخرى لا تقل عنها أهمية - بل تفوقها- وهو أن الغاية الأولى للحملة الصليبية على مصر بقيادة نابليون كانت لوأد (اليقظة) التي حمل عبء البدء بها «الجبرتي» الكبيرة وتلاميذه، وكذلك «البغدادي» و«الزبيدي» وتلامذتهما، فكان لا بد للاستشراق وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت به الحملة من أجله، فهو الهدف الأكبر: «وأد اليقظة» في عقر دارها، وما أصاب القاهرة من التدمير الشنيع وسفك الدماء وقمع ثورة القاهرة بفجور وشراسة.. كل ذلك أدى إلى تشتيت شمل تلامذة «الجبرتي» و«البغدادي» وضياعهم في الهرج والمرج.

ولنبدأ بسرد رواية هذه المأساة من أولها فنقول: يقرر الشيخ محمود شاكر أن رأس كل «ثقافة» هو «الدين» بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، وبقدر شمول هذا الدين لجميع ما يكبح جموح النفس الإنسانية ويحجزها من أن تزيغ عن الفطرة السوّية العادلة..

والعامل الحاسم الذي يمكن لثقافة الأمة بمعناها الشامل أن تبقى متماسكة مترابطة تزداد على الأيام تماسكًا وترابطًا هو «الأصل الأخلاقي» الذي يتسم بالوضوح والشمول والتغلغل والسيطرة على نفوس أهلها جميعًا[1].

وأسلافنا -نحن العرب والمسلمين- قد منحوا هذا «الأصل الأخلاقي» عناية فائقة شاملة، لم يكن لها شبه عند أمة سبقتهم. ولم يتح لأمة لحقتهم وجاءت بعدهم أن يكون لها عندهم شبيه أو مقارب.

وهذه العناية بالأصل الأخلاقي هي التي حفظت على الثقافة الإسلامية تماسكها وترابطها مدة أربعة عشر قرنًا، مع كل ما مرّ عليها من القوارع والنكبات ووقائع الدهر على طول هذا المدى.. وبقاء هذا التماسك على طول القرون، هو وحده إحدى عجائب الحضارات والثقافات التي عرفها البشر[2].

---

(١) محمود محمد شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص٣١ مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، وهو يرى أن إنشاء مدرسة الألسن، ليست من فكر الطهطاوي، ولكنها ثمرة من ثمار (الاستشراق) ودهاته الذين احتضنوه وربوه وغذوه ونشأوه مدة إقامة في باريس (١٤٥).

(٢) نفسه ص٣٣.

وقد حرص الشيخ شاكر على أداء أمانة القلم وأمانة العلم وحق القارئ عليه ؛ حيث استرسل فى عرض قضية الثقافة الإسلامية التى كان الأزهر مهدها على قرون متطاولة حتى أحدث رفاعة الطهطاوى صدعًا مبينًا فى ثقافة الأمة، وقسّمها إلى شطرين متباينين : «الأزهر» فى ناحية و«مدرسة الألسن» فى ناحية، فحقّق بذلك لدهاة (الاستشراق) أهم ما يتوقون إليه من وأد «اليقظة» الواحدة المتماسكة التى كان الأزهر مركزها منذ عهد «البغدادى» والزبيدى (الجبرتى الكبير)، وفى وقت كان فيه محمد على الجاهل يحطّم أجنحة الأزهر . . ويدبّر كل مكيدة لإسقاط هيبته وهيبة مشايخه، ويعزلهم عن جمهور الأمة عزلاً . . ومرّت الأيام والسنون، وهذا الصدع يتفاقم حتى انتهينا إلى ما نحن عليه اليوم من الانقسام والتفريق، وذهبت «الثقافة المتكاملة» فى دار الإسلام فى مصر أدراج الرياح [١] .

وهذا ما تم على يد الطهطاوى، ثم جاء القسّيس المبشر (دنلوب) فوضع أسس التفريغ الكامل لطلبة المدارس المصرية، أى تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق فى دمائها مرتبطًا بالعربية والإسلام وحوّل انتماءهم إلى الفرعونية [٢]، ونحن نرى أنه مما يخفّف من آثار تلك المكيدة بل يقضى عليها تمامًا- هو الاستمساك بالقرآن الكريم وزيادة الحرص على تربية النشء على ذلك منذ الصغر، وهى من مسئولية الأسر والآباء فـ (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، ثم التدرج فى مراحل التعليم جميعها، وينبغى أن تكون للتربية الإسلامية الأولوية .

ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم يمثل قمة الثقافة الإسلامية، ومن دأب العلماء المجددين الدعوة إلى تدبره وإقامته، . . . وعلى سبيل المثال يقول الإمام رشيد رضا :

« . . . فيا أهل القرآن، لستم على شىء حتى تقيموا القرآن، وتهتدوا بهديه فى الإيمان والأعمال وتبذلوا فى سبيله الأنفس والأموال، وإلا فقد رأيتم ما حلّ بكم بعد ترك هدايته من الخزى والنكال، وضياع الملك وسوء الحال، فإلى متى هذا الغرور والإهمال، وحتى متى تتعللون بالأمانى وكواذب الآمال؟» [٣] .

---

(١) نفسه ص١٤٦ .

(٢) نفسه ص١٤٨، ١٤٩ .

(٣) تفسير المنار جـ٥ ، ص٤٣٧ ، مكتبة القاهرة -ميدان الأزهر بمصر .

هذا، ومما يعوضنا عن الإحساس بالانشطار الذى أحدثه الاستعمار الثقافى هو تدبّر القرآن والعمل به.. يقول الشيخ رشيد: «لو أن المسلمين استقاموا على تدبّر القرآن والاهتداء به فى كل زمان، لما فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولما ظلم واستبدّ حكامهم، ولما زال ملكهم وسلطانهم، ولما صاروا عالة فى معايشهم وأسبابها على سواهم»[١].

وكان هذا الإمام معنيًّا أيضًا عناية شديدة بسنة النبى ﷺ، وقد أصدر كتابًا بعنوان (الوحى المحمدى)[٢].

آراء المهتدين للإسلام فى الغرب حجة على العلمانيين:

إننا نرى أنهم أصحاب القول الفصل فى حسم الجدل فى القضايا المثارة بين الاتّجاهيْن الإسلامى والعلمانى[٣]، منذ الغزو الاستعمارى فى العصر الحديث أى الحملة الصليبية بقيادة نابليون على مصر أولاً، ثم الاحتلال البريطانى الذى دام نحو سبعين عامًا (١٨٨٢-١٩٥٤)، ثانيًا، فإن خبرتهم عميقة ومتشعبة وزادوا عليها بدراستهم الواعية لحضارة الإسلام وتاريخه، ولم تحل أحوال المسلمين المتردّية دون العكوف على دراسة القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ؛ ومن ثمّ اعتنقوا عن تجربة واقعية، بأن الحضارة الإسلامية تملك عناصر التفوّق على غيرها من الحضارات، ويتضح ذلك من القضايا التالية:

---

(١) نفسه ص٢٩٧.

(٢) قمنا بعون الله تعالى بتلخيصه، وقد قامت بنشره الدار العربية شارع منشا -إسكندرية.

(٣) ولا يفوتنا أيضًا توجيه العلمانيين إلى شخصيّات من بنى جلدتنا سبق لهم خوض التجربة إذ فُتنوا فى بداية حياتهم بالنموذج الغربى ثم تحولوا إلى التراث الإسلامى من جديد، أمثال د. عبدالرحمن بدوى ود. محمد حسين هيكل، ود. محمد عمارة، ود. عبدالوهاب المسيرى والدكتور رشدى فكار، وغيرهم، ونخص بالذكر أيضًا الدكتور طه حسين الذى صرح بذلك للشيخ محمود شاكر، كذلك يروى الشيخ محمد الغزالى واقعة لها مغزاها إذ قال (... ثم أخذ يتعطف نحو الإسلام، وقد اعتمر وزار المسجد النبوى، وقال لى الصديق الأستاذ محمد فتحى إنه كان معه على حافة القبر الطهور، قال: وكنت أمسك بذراعه وكان بدنه ينتفض بقوة..!!) ص٨٦ من كتابه (مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية) ١٩٨٣.

أولاً: ينظم الإسلام حياة الإنسان المادية والروحية:

فقام محمد أسد بجهد كبير في دراسته للقرآن ومحاولة فهمه، وقد أذهله قوة الخطاب القرآني وعمق توجهاته الإنسانية، حيث تتعاظم فيه روح العمل وتتلاشى السلبية والرهبانية.. فأدهشه وأدهشنا ذلك الاتساق والتكامل بين الحاجات الروحية والمتطلبات الاجتماعية والمزج بين الروح والجسد.. وبين العقل والإيمان.. وبين التقوى والاستمتاع بالحياة الدنيا.. ووصل إلى نتيجة مؤداها أن الإسلام هو الذي جعل المسلمين عظماء، وأدرك عمق الفجوة بين تعاليم الإسلام ومبادئه وبين أحوال المسلمين المتردّية [1]. لذلك فإن أحكامه وآراءه تستند إلى اطلاع ووعي بعقيدة الإسلام وشريعته وتاريخه، كما له عناية خاصة بالسنة، ويحث دائمًا على ضرورة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيصف السنة بأنها: الهيكل الحديدي للإسلام.

يقول محمد أسد: «لقد بدا لي واضحاً أن تدهور المسلمين لم يكن راجعًا إلى قصور في هذا الدين العظيم، ولكنه راجع إلى إخفاق المسلمين عن أن يحيوا بمقتضى تعاليمه ومبادئه.. وفي التاريخ الحضاري لم يكن المسلمون هم الذين جعلوا الإسلام شيئًا عظيماً، وإنما الإسلام هو الذي جعلهم عظماء» [2].

إن هذه النتيجة الذي قرّرها بحسم جاءت ثمرة دراسة شاملة، فقد ترجم وعلّق على الجزء الأول من مجموعة أحاديث البخاري، وأصدر كتاب صحيح البخاري (سنوات الإسلام الأولى) ١٩٣٨م، وكذلك ترجم القرآن الكريم كله بكتابه (رسالة القرآن) ١٩٨٠م.

---

(١) محمد يوسف عدس، مقال بعنوان (محمد أسد في الطريق -سيرة عقل يبحث عن ذاته) مجلة (المختار الإسلامي) العدد ٣٠٠ شعبان سنة ١٤٢٨هـ - أغسطس سنة ٢٠٠٧م.

(٢) محمد يوسف عدس، مقال بعنوان (محمد أسد في الطريق -سيرة عقل يبحث عن ذاته) ص٦٣ مجلة المختار الإسلامي العدد ٣٠٠، شعبان ١٤٢٨ - أغسطس سنة ٢٠٠٧م.

ووصل فى كتابه (مبادئ الدولة والحكومة فى الإسلام) أنه فى إطار الدستور (والتشريع) الذى يعكس هذا الأصل الملزم، تكتسب الدولة الإسلامية عدة سمات شديدة الشبه بالديمقراطية البرلمانية وحكم القانون، بما فى ذلك مؤسستا الرئاسة والحكمة العليا الأمريكيتان [1].

ثانيًا: اختلاف التصوّر فى منهج التجديد والنهضة:

إن خير مثال لبيان أن تصور كلا الطرفين : الإسلامى والعلمانى نقيض الآخر هو ما تعبّر به السيدة مريم جميلة المهتدية للإسلام؛ إذ تصوّر بأن تلك الطبقة المثقفة منهمكة فى تزويد بلادهم بنسخ من الأنظمة الغربية، وتعلل ذلك بأن هذه الطبقة لم تعد قادرة على إقناع نفسها بقناعة تامة، إن الإسلام هو الدين الكامل فى أعلى وأتمّ صورة، وأنه الحضارة بعينها فى أكمل مفهوم. . وأن الهيكل الاجتماعى الكامل للإسلام يعتمد على القاعدة الأساسية لسيادة الشريعة، وهى التى جاء بها الرسول ﷺ باسم الخالق العظيم، والتى تعتمد عليها سعادة الإنسان [2].

ويرى دوباسكويه أن ما تزهو به حضارة العصر، مثل حقوق الإنسان والحرّيات والتسامح والعدل وغيرها من القيم والمبادئ سبقته إليها حضارة الإسلام.

لقد ظلت دولة المسلمين التعبير الكامل لمثاليات الإسلام وتنفيذه فى المجتمع البشرى طيلة حكم الخلفاء الراشدين، أو المهديين الأربعة. حاز مجتمع المؤمنين كل الصفات التى تؤهله لنشر الدعوة فى العالم [3]. ولقد استعار الغرب من الحضارة الإسلامية ما مكنه من إنهاء العصور الوسطى ليبدأ عصر النهضة [4].

---

(١) مراد هوفمان (يوميات ألمانى مسلم) ص٦٧، وقد علق على ترجمته للقرآن الكريم بقوله: «إن هذه الترجمة العبقرية إلى الإنجليزية بلغة شكسبير لتمثل حدثًا أدبيًّا وعلميًّا وتاريخيًّا مهمًّا» كذلك وصفه بقوله: «إن هذا الرجل العظيم فى دفاعه عن مقوماته الروحية والأخلاقية، بدأ بعد تجاوزه سن الثمانين فى الانتقال من المدينة إلى طنجة ومن هناك إلى لشبونة وإسبانيا؛ ليؤكد للجمع أن محمد أسد لا يزال صادقًا مع نفسه: ناقدًا ويقظًا ومفعمًا بالحيوية».

(٢) مريم جميلة (الإسلام فى النظرية والتطبيق) ص١٣٠.

(٣) دوباسكويه (إظهار الإسلام) ص١٦٣.

(٤) نفسه ص١٥٤.

ويقول الفيلسوف رينيه جينو: «لا يقدّر معظم الأوربيين أهمية تأثير الحضارة الإسلامية عليهم تقديراً كافياً ولا طبيعة استعارتهم منها، بل يذهب البعض بعيداً إلى درجة الإغفال الكامل لها بسبب ذلك التاريخ -الذى يزيّف الحقائق- الذى تعلموه ولا يمنحون أى اعتبار للثقافة الإسلامية إلا يتخبط وهم أكثر اعتياداً على تشويهها عند كل فرصة» (١).

كذلك استخلص هؤلاء المسلمون المهتدون فى الغرب من خبرتهم عن كلتا الحضارتين أن حضارتهم فى حاجة إلى الإسلام لإنقاذها من أزماتها (٢)، ومن ثمّ فإن تصوّرهم للتجديد والنهضة على النقيض تماماً من تصوّر العلمانيين ببلادنا وخلاصته إعادة تفسير الشريعة الإسلامية فى اتجاه التواؤم مع احتياجات العصر! ونحن نرى أن الاستجابة لهذا المطلب الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخنا هو فى حقيقته هدم للشريعة!

وكان اقتراحهم هو البدء بما يسمى بالحركة الإصلاحية بالمدرسة الليبرالية ويمثّلها لطفى السيد، والاعتماد على الإسهامات التى قدمها الطهطاوى للفكر السياسى والاجتماعى الحديث فى مصر، ويمزج لطفى السيد بين المبادئ الإسلامية والفلسفة الإغريقية وأفكار التنوير الفرنسية والليبرالية البريطانية، وعندما تم تشكيل «حزب الأمة» لم يكن المقصود بالتسمية (**الأمة بالمفهوم الإسلامى**)، وإنما (**الأمة المصرية**) أى المصريون الذين يعيشون فى مكان مشترك، وكان يرى أن «الدين» ليس هو أساس القومية.. كما شهدت الحقبة الليبرالية مرحلة الانتقال من «الخلافة» إلى «القومية المصرية»، وكان على رأسهم على عبد الرازق (١٨٨٨-١٩٦٦) وعمله الشهير «الإسلام وأصول الحكم» (٣). مع العلم بأن هذه الشهرة كانت صدى أجوف لضجة إعلامية مصنوعة لا يستحقها الكتاب وذلك لدعم جريمة أتاتورك بإلغائه الخلافة. يُنظر

---

(١) نفسه ص، ١٥٧

(٢) يقول روجيه دوباسكويه: «يبدو أنه لا شيء على الأرض يمكنه الهروب من الأزمات التى تزلزل العالم الحديث لا تكفى الحديث عن أزمة حضارة بعد أن اكتسبت الظاهرة أبعاداً عالمية. يبعث الظلام الوشيك شعوراً متزايداً بعدم الاطمئنان..» (إظهار الإسلام) ص٩.

(٣) د. هالة مصطفى (الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم) ص١٠٧ ط، دار مصر المحروسة سنة ٢٠٠٢. وقد رأينا أن الطهطاوى لم يقدّم أى إسهامات بل كان انشاؤه لمدرسة الألسن طعنة قاتلة للثقافة الإسلامية.

كتاب الدكتور محمد ضياء الدين الريس [الإسلام والخلافة فى العصر الحديث - نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم] حيث قام بالرد عليه وصحح أخطاءه موضحًا الحقائق لإزاحة الأوهام والمبالغات التى أثيرت حوله لا سيما بواسطة مجلة (الطليعة) ذات الاتجاه الماركسى لغرض خبيث لا يخفى على أحد. والدكتور الريس هو أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة وجامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة.

ثالثًا: التعارض التّام بين الثقافة الإسلامية والفكر العلمانى:

إن التعارض التام بين الفكر المعاصر -وخصوصًا العلمانى- وبين الثقافة الإسلامية التى نبعت مباشرة من التنزيل، وليس من تأملات أو اجتهادات الفلاسفة والمفكرين، وقد وصُفت حضارة الإسلام بأنها إلهية، إعمالاً لشهادة لا إله إلا الله، واستحضرت دائمًا الإله، ولم تعبد أى مخلوق على النقيض من الفكر العلمانى الذى يدرك الحقيقة فقط فى النظام المخلوق، ويرى المطلق بطريقة فاسدة تمامًا [1].

ومما يساعد المسلم على مقاومة الأسلوب التقليدى للحياة الحديثة هو محافظته على شعائر الإسلام ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ ومن ثم تنقذه من الغفلة المعتادة عن الخالق تعالى، وهى طابع الحياة الحديثة. وبذلك يصبح المسلم مسلمًا نفسه لمشيئة الله تعالى، على نقيض الرجل العلمانى العصرى الغارق فى إمكانات الحضارة الكميّة، ومع ذلك يعيش فى حالة عدم رضا لا يجد لها علاجًا شافيًا [2].

ويؤيده عبد الهادى هوفمان -المتحدث الرسمى باسم الحزب المسيحى بألمانيا- إذْ قال: «إن الأساس الأول للخلاف بين المسلم والمواطن الأوربى يكمن فى مفهوم مصطلح «التنوير» ذاته، فالمسلم يرى أن التنوير بالنسبة له قد تحقق بنزول القرآن وبتحرير المسلم من الجاهلية، بينما الأوربى الغربى يرى أن التنوير هو التحرير الكبير للإنسان وللعلوم وللسياسة من الوصايا الكنسية التى دامت ١٧٠٠ عام، كذلك التحرز

(١) روجيه دوباسكويه (إظهار الإسلام) ص ١٣٤.

(٢) نفسه ص ٢٠/ ٢١.

من تعسف الحكم المستبد، وانطلاقًا من هذين المفهومين فإن الإحساس بالحياة لدى الغربي مصبوغ بالتفاؤل لخلعه سلطان الكنيسة. أما المسلم فإن إحساسه بالحياة مصبوغ بالرضا والسعادة بدينه، فإذا طولب المسلم بأن يشعر بالتنوير الغربي به -أي يقلّده- فإنه يجد ذلك غير مفهوم بل خروجًا عن القصد [1].

ونرجّح أن عبد الهادي هوفمان قد هُدي إلى الحق بتدبرّه أيضًا لبعض آيات القرآن الكريم التي تذكر (النور)، وما أكثرها.. منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

الهزيمة النفسية أمام حضارة الغرب وسُبُل علاجها:

يشخّص الأستاذ أحمد أمين هذا الداء بأنه يرجع إلى التخلي عن النظرية الدينية إلى الحياة التي يتميز بها المسلمون عن الأوربيين، فإن كثيراً من المسلمين-وخاصة المتنورين منهم- يريدون أن يقلدوهم تقليداً تامًا في كل شيء، ويرجع هذا الخطأ الذي وقعوا فيه إلى ما عندهم من مركّب النقص؛ إذ ظنوا أن الغربيين متى فاقوهم في العلم وجب أن

---

(١) محمد عبد العظيم علي (سر إسلام رواد الفكر الحر في أوربا) ص٨٤ دار المنار -المنصورة ٢٠٠٢م.

وعبد الهادي هوفمان هذا هو الدكتور مراد هوفمان الدبلوماسي الألماني، ومن مؤلفاته (الإسلام كبديل) و(الإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في صعود) و(يوميات ألماني مسلم) ومن أقواله في هذا الكتاب: «لولا الوحي لظللنا عميانًا»، «يواجه المجتمع في الغرب خطر التدمير الشامل للأسس الأخلاقية التي ينمو عليها هذا المجتمع ذاته، أي القيم وأنماط السلوك المتجذرة في إيمان أجدادنا بالله» ص٨٠، «إن نمط الحياة الإسلامي يتفق مع طبيعة الإنسان كما أرادها الله، وإن الإسلام هو الحل الأمثل لمشاكل اليوم الصحية» ص١٨٢، «إن هناك أملاً مشروعًا في أن يستطيع الإسلام- بتجنبه لتجاوزات المضامين الغربية والماركسية اللينية -أن يصبح البديل الأفضل»: البديل «الوجه الإنساني» ص١١٨.

يقلدوهم في كل شيء. وفاتهم أن المهارة في ناحية لا تقتضي المهارة في النواحي الأخرى [1].

ويقصد بالنظرة الدينية تلك المتضمنة الإيمان بالآخرة، فإن المسلم يدخل في حسابه دائمًا الحياة الآخرة بعد الموت، ويضمها دائمًا إلى حساب الدنيا، وهو دائمًا يتساءل هل هذه الأعمال يكافئ الله عليها في الآخرة بالثواب أو العقاب؟ وأخلاقه التي يسير عليها أيضًا مبنية على حساب هذه الآخرة، وهو كثير السؤال عن غاية هذا العالم ومصيره، وأنه مسيّر بقوة عظيمة هي قوة خالقه -عز وجل- وأنه سيحاسب في الآخرة على ما قدمت يداه في دنياه [2].

أما الغربي فإنه يحيا حياة مادية بحتة. . . عمل في مصنع أو شركة أو وظيفة بحساب حسابها المادي فقط بمرتب وأجر، كيف يناله وكيف ينفقه وكيف ينعم بهذه الحياة ويحظى بالنعيم المادي، وكل الأخلاق الحسنة المرسومة له أخلاق تجارية تعلمه كيف ينجح. . ولذلك فإن أهم قوائم الفضائل عنده المحافظة على المواعيد والترتيب والصدق في القول والعمل. . إلخ. والذي يسيطر على هذه الحياة ويرسم خططها ويخترع آلاتها هو العلم، والعلم نتيجة العقل والقضايا المنطقية، وهي أمور كذلك مادية بالمعنى الواسع [3].

ونرى أن مركّب النقص في تعليل الأستاذ أحمد أمين سببه هو الاستعمار، فقد كان شغله الشاغل -كما يذكر جارودي- هو أن يقوّض ثقة الشعوب المستعمرة في نفسها؛ لذا يسعى جاهدًا ليدمر اعتزاز الشعوب بماضيها [4]، ومن وسائله نشر مفتريات الذين يزعمون لحضارتنا كل عيب ونقيصة، ويتعمّدون أن يحذفوها من قائمة الحضارات الأصلية، ويتعمدون أن يصرفوا أنظار جيلنا الحديث عن روائع

---

(١) أحمد أمين (يوم الإسلام) ص١٧٤.

(٢) نفسه ص١٧٥.

(٣) نفسه ص١٧٤.

(٤) جارودي (محاضرات في مجلة «الطليعة» بالقاهرة سنة ١٩٧٠.

آثارنا الحضارية ليجذبوهم إلى حضارة الغرب.. وهذا هو هدف الاستعمار الذى سعى إليه جاهداً، وهذا هو صنيع أذنابه ودعاته الذين ما برحوا على تمجيد حضارته عاكفين على تقليدها [1].

ولكن من دواعى الاطمئنان أن هؤلاء أخذوا «يتقلصون» شيئاً فشيئاً بتأثير حماقات هذه الحضارة وجرائمها على أصحابها وعلى الشعوب المستضعفة [2].

هذا ما انتهى إليه رأى الدكتور مصطفى السباعى، ونحن نوافقه عليه مقترحين التوسع فى نشر ما اعتبره من حماقاتها وفق السبل التالية:

أولاً: استرجاع مواقفها المخزية هنا، وما أكثرها فى العصر الحديث، ولا ننسى الحروب الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان، وفى وصف موجز سماها الدكتور زكى نجيب محمود (الحضارة الغازية)، ونستحضر غزوة نابليون والاستعمار الإنجليزى والاستعمار الفرنسى الاستيطانى للجزائر وتونس والمغرب الشبيه بالاستعمار الصهيونى لأرض فلسطين المغتصبة، واستعمار هولندا لإندونيسيا طوال ثلاثة قرون.. وإبادة المسلمين فى البوسنة والهرسك، وحروب العراق وأفغانستان.. ورفع شعار (الإسلاموفوبيا) لبث الكراهية والذعر من الإسلام والمسلمين! هذا على المدى القصير، ولكن على المدى الآجل فعلى العلماء ورجال التعليم والتربية تعديل المناهج، بحيث تعيد الثقة للأجيال فى حضارتها الإسلامية وفضلها على العالم. وما أكثر الدراسات فى هذا الغرض لاسترداد الثقة المفقودة بفعل المستعمر.

ثانياً: العكوف على دراسة الكتب والمؤلفات التى تجمع على الأزمة المستعصية للحضارة المعاصرة، ومنها:

رينيه جينو (أزمة العالم المعاصر)، شبنجلر (أفول الغرب)، توينبى (الإسلام والغرب والمستقبل)، كولن ولسن (سقوط الحضارة)، أدريين كوخ (آراء فلسفية فى أزمة العصر)،

(1) د. مصطفى السباعى (من روائع حضارتنا) ص٢٠، ط١، المكتب الإسلامى -بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
(2) نفسه ص١٥.

-جارودى (إرهاب الغرب ' ج زآن، و(عصر الانحطاط الأمريكى)، د. حسين مؤنس (الحضارة) و(الإسلام: الدين الناجح)، د. توفيق الطويل (الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية «دراسة مقارنة») و(فى تراثنا العربى والإسلامى)، العالمة الألمانية هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب)، د. مراد هوفمان (الإسلام كبديل) و(الإسلام فى الألفية الثالثة «الدين الصاعد»)، جارودى (الإسلام دين المستقبل)، (والوحى المحمدى) لرشيد رضا، (والإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان، وغيرها.

ثالثًا: تعديل المناهج بالمدارس والجامعات، بحيث تتضمن المؤلفات والمصادر التى تبعث فى النفوس الثقة والأمل فى المستقبل.

وينبغى أن نتذكّر أن مفاتن حضارة العصر تخفى وراءها الجاهلية بالمصطلح القرآنى، وهذا ما رجّحته عالمة الأديان آرمسترونج بدراساتها للتطورات التى حدثت بحضارة الغرب بسبب الحداثة، أن هناك تشابهاً بين عصر الجاهلية قبل الإسلام وجاهلية العصر الحاضر.

وبعد أن شرحت لفظ الجاهلية قبل الإسلام وجاهلية العصر الحاضر رجّحت بأن اللفظ لا يشير إلى زمن تاريخى، وإنما إلى حالة من العقل بسبب العنف والإرهاب فى القرن السابع فى الجزيرة العربية.. واقترحت فى كتابها دراسة سيرة الرسول ﷺ للإفادة منها للخروج من مأزق حضاراتها، كما تعلل إطلاق اسم (أبى جهل) على أبى الحكم ليس لأنه جهل الإسلام، فقد عرفه جيداً، ولكن لأنه حاربه بغطرسة وانفعال أعمى[(١)].

يقول الإمام أبو الحسن الندوى: «إن قصة إخفاق الحضارة الغربية قصة معادة مكررة، ولكنها قصة يجب أن تروى وتتلى، وتعاد وتكرر، وهى قصة تهم الإنسان فى كل مكان وتتصل به، وبحياته من أقرب طريق، ولأن فى الشرق من لا يزال يؤمن بعصمة هذه الحضارة وقدمها، ولا يصدّق أن مثلها يخفق ويخيب، أو أنها أفلست فى معنوياتها، وهو يراها تبرهن عن وجودها وقوّتها فى الشرق والغرب»[(٢)].

(١) آرمسترونج (محمد -صلى الله عليه وسلم- نبى لزماننا) ص٢٦، مكتبة الشروق الدولية.

(٢) محاضرة ألقيت فى نادى الاتحاد لجامعة لندن فى ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٣هـ ١٠/١٠/١٩٦٣م. ص٥٩ من كتابه «حديث مع الغرب» ط المختار الإسلامى.

ووفق هذا التحليل الصحيح، نستطيع أن نضع أيدينا على أصل الداء، وهو أن هدف الاستعمار طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كان محاولته نقل المجتمعات الإسلامية من أصلها، وهو الإسلام إلى تبعية له في: الفكر والسلوك وتصورّ في الحياة، كي يسهل ربطها في الاقتصاد، وجعلها أسواقًا مفتوحة لمصنوعاته، ومصادر لحاجته من المواد الخام ولحاجته أيضًا إلى القوى البشرية الرخيصة في الأجر والدؤوبة على العمل فيها.

يقول الدكتور محمد البهي: «واستقلال هذه المجتمعات ليس هو استقلالاً في التوجيه السياسي، وإنما قبل ذلك: يجب أن يكون استقلالها عن التبعية الفكرية، والاقتصادية والسلوكية إنما هو عودتها بوعي إلى أصلها، الذي حاول الاستعمار أن يطمسه أو يشوهه.. فاعلية التكافل وضرورة الإيمان بالله تعالى»[1].

وتقول السيدة مريم جميلة المهتدية للإسلام: «فمهما كانت دلائل النهضة الإسلامية تبدو ضعيفة في الوقت الحاضر فإنني لا أزال أعتقد أن هناك أملاً كبيراً باقيًا لنا، شريطة أن نبتدر العمل المناسب في الوقت الملائم، وهذا الشعاع من التفاؤل مبنيّ على الفروض التالية:

أولاً: ان المصدرين الأساسيين للإسلام -وهما القرآن والسنة- سليمان لم يدخلهما التحريف. فلا يوجد دين آخر يزعم لنفسه هذه المزية.

ثانيًا: ولما كانت تعاليم الإسلام شاملة محيطة في نظرتها وتامة في بنائها كل التمام، لم يسمح الإسلام (بالانتقائية) أو الموافقة لأية ثقافة تتعارض مع أصوله، فالإسلام منفرداً يقدم سبيلاً مرشداً تامًا للحياة بكليتها، والإسلام لا يعرّفنا ما سنعمله فحسب، بل يُعلمنا كيف نعمله.. بينما التعاليم الموجودة للأديان الأخرى جميعها تعاليم محدودة محصورة لا ارتباط بينها.

---

(١) د. محمد البهي (الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة) ص١٦٨، مكتبة وهبة بالقاهرة ط٣، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

ثالثًا: ولقد وجدت العزيمة على حفظ الإسلام ونشره نقيًّا صافيًا كما جاء بالفعل على مدار التاريخ الإسلامي، وفى جميع بلدان المسلمين وفى وقت واحد، على أيدى المجددّين المتابعين، ومع أن «المتحضّرين» من بيننا يحاولون فرض شروحهم المشوهة للإسلام على الأمة بكاملها، وذلك بمساعدة العلماء الغربيين والسياسيين وتشجيعهم، إلا أنهم لحسن الحظ يقابلون بمقاومة عنيدة فى كل جانب من قبل أولئك الذين لم يغتروا بهذا النفاق، وصمّموا على حفظ الإسلام الصافى سليمًا.

رابعًا: إن الغالبية العظمى من مراكش إلى إندونيسيا تريد الإسلام، فإذا ما وجدت لهم القيادة المحرّكة، فإنهم سيكونون مستعدين للسير وراءها بكل حماسة.

ثم تتساءل فى النهاية قائلةً: «فإن كانت هذه هى الحالة، فلِمَ لم تظهر القيادة المسلمة فى أى بلد مسلم؟».

وتجيب بأن علينا أن نتأكد أن ذلك لا يرجع إلى أية مزية جوهرية فى الثقافة الغربية، كما أنه لا يعود إلى نقص فى الإسلام.

والجواب على ذلك يمكن أن يوجد بالتبصُّر فى طبيعة الاستعمار الأوربى، وبما جاء على لسان اللورد كرومر بأن الحكومة البريطانية لن تسمح بحال من الأحوال بقيام دولة إسلامية مستقلة، ولو للحظة واحدة[1].

«التعرف على توقعات بعض الغربيين لحضارة الإسلام»

لعل من سبل العلاج للهزيمة النفسية: التّعرف على تلك التوقعات وأسبابها:

ومن وسائل العلاج ما يقترحه الدكتور عبدالله خاطر قراءة التاريخ بتدبر ودراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للتعرف على ما حدث للمسلمين؛ إذ يعطى الأمل فى تخطى الواقع، ويضرب على ذلك أمثلة: منها حرب التتار، وغزو القرامطة وأخذهم الحجر الأسود.. وسيطرة الصليبين على بيت المقدس.. ويقول (واقرأوا هذه

(١) مريم جميلة (الإسلام فى النظرية والتطبيق) ص٢٥٠/ ٢٥١، ترجمة س. حمد - مكتبة الفلاح بالكويت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

الحادثة فى عام ٥٨٣هـ كيف دخل المسلمون بيت المقدس وأقاموا صلاة الجمعة فيه بعد أن أوقف لمدة واحد وتسعين عامًا . . إذ لم يضعف المسلمون ولم ينهزموا امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] [كتاب : الهزيمة النفسية عند المسلمين ص٣٤ كتاب «البيان» ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .

توقع توينبى أن تصبح حضارة الإسلام حضارة المستقبل:

إذ عندما سُئل : ماذا يكمن فى الحضارة الإسلامية من طاقات غير قائمة فى الحضارة الأوربية الحديثة حتى تتوقع لها أن تكون حضارة المستقبل؟ كان ردّه : «إن الحضارة الأوربية تحمل فى طياتها التناقض بين الفكر والعمل، بين أفكار المساواة والإخاء والحرية التى ورثتها من الثورة الفرنسية، وفى التفرقة العنصرية التى تمارسها الآن بالفعل، والتى تشكّل خطرًا عليها بزيادة وعى الشعوب الملّونة . هذا بينما طابع الحضارة الإسلامية الاتساق بين الفكر والعمل بصدد المساواة؛ إذ تمكن فى أزهى عصورها أن يصل إلى مراكز السلطة فيها الرقيق والعبيد .

الأمر الثانى : تحريم الخمر، وقد لا يدرك الكثيرون قيمة التحريم بالنسبة للحضارة . ولكن من يشاهد عن قرب سكان المناطق الاستوائية يدرك أن توقف نشاطهم راجع إلى شرب الخمر إلى حد كبير . ولقد فشل الإداريون الأوربيون فى علاج هذه المشكلة التى لا تحلها القوانين المفروضة . إن الامتناع عن شرب الخمر لا يتم إلا بوازع دينى»[(١)] .

ولا نظن أن التنويرين العرب قرءوا بعض كتب الفيلسوف الفرنسى جارودى -الذى تنبأ بدوره- بعد دراسته الواسعة فى مجال الأديان بمنهج مقارن -أن الإسلام دين المستقبل . . وللقارئ بعض المقتطفات من أقواله تحت عنوان : **[ما الذى يجب أن نتعلمه من الإسلام فى الوقت الحاضر]؟**

---

(١) د. أحمد صبحى (فى فلسفة التاريخ) ص٢٥٨ مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية ط٣، ١٩٩٠م. ويقصد بالرقيق مثل المماليك وكافور الإخشيدى .

يجيب: يحتم أن نتخلى عن وسادتنا العلوية والوضعية المستقاة من عصر الأنوار الذى حرم الواقع والفكر من بعده التسامى؛ إذ رأى فى الإسلام وفى كل نوع من أنواع الإيمان وجهًا من وجوه (الظلام)[1]!

وفى المحاضرة التى ألقاها فى نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة مساء الأربعاء ٧/ ٤/ ١٩٩٣ بعنوان [الإسلام فى مواجهة التدهور الثقافى الغربى]، قال فى المقدمة: إن اختيار ما أضافه الإسلام، وما يمكن أن يضيفه إلى الحضارة العالمية -من وجهة النظر الغربية- يتضمن ثلاثة أنساق من التأمل:

١- الوعى بحقيقة التدهور المعاصر للغرب ومصادر هذا التدهور.

٢- تحليل عوامل إشعاع الإسلام فى عصره المزدهر، ودوره الثانوى الحالى على المسرح العالمى المعاصر.

٣- وضع فُرص لشروط نهضة الإسلام حتى يصبح هو روح الكفاح ضد «وثنية السوق» التى تقود العالم إلى انتحار كونى[2].

وأيضًا بسبب عكوف التنويريين فى بلادنا على كتب فلسفة بعينها يتداولونها فيما بينهم، وتعبر فى الغالب عما يُسمى فى أوربا بـ«عصر التنوير»، هذا الموقف صرفهم عن الاطلاع على ما يخالف آراءهم التى جمدوا عليها، ولو تخلوا عن هذا التعصب بحثًا عن الحق بتجرد، لعثروا -بالإضافة إلى ما بيناه سلفًا- على ما يفتح آفاقهم على آراء علمية ناضجة وجديدة بناءً على دراسات موضوعية منهجية بمعنى الكلمة، ونقصد بعض مؤلفات الدكتور مراد هوفمان، فمنها كتاب (الإسلام كبديل) و(يوميات ألمانى مسلم) و(الإسلام عام ٢٠٠٠م)، ثم كتابه الموسوعى بعنوان (الإسلام فى الألفية الثالثة- ديانة فى صعود)؛ إذ أورد فى مقدمته التساؤلات التالية:

- ما النتائج المرتقبة فى حالة نجاح العالم الإسلامى فى أن ينهض من جديد؟ وبالتالى

(١) روجيه جارودى (الإسلام دين المستقبل) ص١٨٧ ترجمة عبد المجيد بارودى، ط دار الإيمان ١٩٨٣م.

(٢) د. حامد طاهر (فى مرآة الغرب: كيف يرانا الغرب؟ وكيف يرى نفسه؟) ص٥٩، دار الهانى بالقاهرة ٢٠١٢م.

يكتسب قوة جاذبية في الغرب؟ هل يمكن أن يصبح هذا الدين -وهو نظرى وعقائدى -بالفعل ديناً يسود العالم؟ هل يصبح الإسلام فى هذه الحالة العلاج والشفاء الذى سينقذ الغرب من نفسه؟ وهل سيصبح الغرب قادراً على الاعتراف بالإسلام كدواء يصلح لشفائه، دواء يساعد الغرب على تخطى أزمته وإنقاذ حضارته؟ ثم قال فى النهاية:

هذه هى خلفية هذا الكتاب، وهذه هى الأسئلة التى يطرحها هذا الكتاب محاولاً الإجابة عنها [1].

وأخيراً -وليس هو آخر من توقّع ازدهار الإسلام. تقول السيدة موجيريني (الحاصلة على الدكتوراه ١٩٩٤ عن التيار السياسى الإسلامى): إن للإسلام مكانه الطبيعى فى المجتمع الأوربى.. وإن الإسلام أصبح يشكل أحد أبرز ملامح حاضر ومستقبل الأوروبيين.. الإسلام هو الديانة الثانية فى بلجيكا وأصبح جزءاً لا يتجزأ من المجتمع البلجيكى.. وبدأت الحكومة السويدية فى الاعتراف بالإسلام وتدريسه فى المدارس الحكومية جنبًا إلى جنب مع المسيحية.. فى ألمانيا يدخل الإسلام كل ساعتين مسلم جديد. وفى عام ٢٠٥٠م ستكون ألمانيا جمهورية إسلامية لا محالة.. وفى فرنسا فى دراسة لوزارة الداخلية أن ٣٦٠٠ فرنسى يعتنقون الإسلام سنوياً، وببلوغ عام ٢٠٢٥م سيبلغ عدد المسلمين فى بريطانيا ٢,٥ مليون مسلم.. وقدمت الـ (سى إن إن) تقريراً بعنوان النمو السريع للإسلام فى الغرب، ذكر أن أعداد الذين يدخلون فى الإسلام فى العالم الغربى كبير جداً وهو فى تسارع.. وأصبحت نسخ القرآن الكريم المترجمة من أكثر الكتب مبيعاً فى الأسواق الأمريكية والغربية. د. هشام الحمامى (تفجيرات بروكسل وجردة حساب بسيطة)، المختار الإسلامى ص٦٠/ ٦١ رجب ١٤٣٧هـ مايو ٢٠١٦م.

ونضيف قول روبرت كابلان الخبير الأمريكى بشئون العالم الثالث: «فى هذا الجزء من العالم سيكون الإسلام -بسبب تأييده المطلق للمقهورين والمظلومين -أكثر جاذبية.

---

(١) د. مراد هوفمان (الإسلام فى الألفية الثالثة - ديانة فى صعود) ص١٣ ترجمة عادل المعلم -ويس إبراهيم، ط مكتبة الشروق ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

فهذا الدين المطرد الانتشار على المستوى العالمي هو الديانة الوحيدة المستعدة للمنازلة والكفاح. فالتصور الإسلامي هو الذي يناقض تمامًا في منطلقاته مع كل الأسس والغايات التي ينطلق منها الأفكار البراجماتية وما بعد الحداثية الموجّهة للعولمة الأمريكية. وهو التصور الذي يمتلك الإجابة عن الأسئلة المصيرية الباعثة على القلق الإنساني، ولا يحتاج إلى هذا الإلهاء الحسّي الذي تقدمه البراجماتية في النموذج الاستهلاكي الغربي الذي تبشر به العولمة.

كما أن الإسلام بمنظومته الرسالية لا يستطيع أن يقف مكتوف الأيدي أمام ما تمارسه العولمة الأمريكية من سحق الشعوب وتحطيم الكينونة الروحية للإنسان.

وبعد سقوط الأيدولوجيات الغربية يظل الإسلام الأيدولوجية الوحيدة القادرة على استنهاض شعوب العالم الفقيرة والمستضعفة، وإنقاذها من مظالم العولمة، بل إنقاذ الطبقات الفقيرة والمستضعفة في بلاد الغرب الأمريكي ذاتها»[1].

•••

(١) عفاف الشناوي (اتجاهات فكرية جديدة ترسم ملامح العالم) (مجلة الأهرام العربي) ص٣٦، ٩ من نوفمبر سنة ٢٠١٦، ٥ من صفر سنة ١٤٣٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه . .

الاستعمار الصهيونى لفلسطين ومصيره

وما ينطبق على المتغربين الذين ما زالوا مبهورين بحضارة العصر ينطبق أيضًا على دعاة التطبيع مع إسرائيل؛ لأنها تأتى فى سياق التشابه مع الحضارة الغربية باعتبارها حضارة إبادية لا تتردد فى إزالة الآخر من طريقها، وما زال التاريخ يذكر المستوطنين الأمريكيين البيض بإبادتهم للهنود الحمر(1).

وهو ما يتصل بموضوعنا عن المهزومين نفسيًّا أمام الاستعمار الاستيطانى الصهيونى المغرومين بجمع المعلومات والنبوءات التى تبين مدى قوة العدو وبطشه ودقته وسيطرته وتحكمه، وهم ليسوا موضوعيين بما فيه الكفاية؛ ولذا فإنهم لا يذكرون النبوءات الصهيونية الكثيرة التى لم تتحقق، مثل نبوءة بن جوريون بإقامة دولة مسيحية بلبنان . . وإزالة دولة الأردن، وبعد ذلك سوف تسقط سوريا (وإذا اجترأت مصر على محاربتنا فسوف نقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة، وهكذا تنتهى الحرب ونقضى قضاءً مبرمًا على مصر).

وكل ذلك لم يتحقق، فإن شعب لبنان -مسلمين ومسيحيين- تصدوا للغزو الصهيونى، والأردن ما زالت شامخة . . وردت مصر الغاصب فى أكتوبر سنة ٧٣ على عقبيه . . والصخرة الصامدة - فلسطين ذاتها وأصحابها الفلسطينيون -لم تفتر عزائمهم عن المقاومة (2).

وقد قام الدكتور عبد الوهاب المسيرى برصد ظواهر التآكل الذى أصاب الكيان الصهيونى من الداخل، وذلك بمنهج علمى موضوعى يستند إلى الإحصائيات من جوانب مختلفة، منها أن الشباب الإسرائيلى الذى وُلد على أرض فلسطين المحتلة يكن

---

(1) د. عبد الوهاب المسيرى (انهيار إسرائيل من الداخل) ص١٨٠، ط. دار المعارف بمصر سنة ٢٠٠٢م.

(2) نفسه ص٤٠، ٤١.

الاحتقار الشديد لنموذج يهودي (الدياسبورا) (أي يهود العالم خارج فلسطين)[1]، ويرفض يهود أمريكا تنفيذ النبوءة الصهيونية بالهجرة إلى أرض الميعاد، مكتفين بإرسال إسهاماتهم بالبريد الإلكتروني، بل لم تعد المنظمة الصهيونية من يهود العالم الغربي الهجرة إليها[2].

كذلك أثبتت الأيام فشل محاولة تطبيع اليهود؛ بحيث يصبحون شعبًا واحدًا؛ لأن كل جماعة يهودية ظلت محتفظة بعقائدها الدينية وعاداتها الشعبية، كيهود الفلاشا المنتمين إلى الحضارة الإفريقية، أو اليهود المهاجرين من الولايات المتحدة الأمريكية، أو الوافدين من الاتحاد السوفييتي (ولم يفشل الصهاينة في دمج المنفيين وحسب، ولا في تخليق شعب واحد، بل فشلوا تمامًا في تعريف اليهودي)[3].

ويعتقد قادة مركز أبحاث الأمن القومي أن البعد الديموجرافي والتكاثر الطبيعي المرتفع وسط السكان العرب داخل الكيان الإسرائيلي، وخاصة الضفة والقطاع سيقوضان الديمقراطية في الدولة العبرية، ويهددان بخطر فقدان مناطق جغرافية، مثل الجليل والنقب الشمالي «حسب زعمهم»[4].

ولا يزال الفلسطينيون واقفين يصارعون المحتلين، بالرغم من أن الجيش الإسرائيلي جرب كل شيء: البنادق والطائرات والدبابات والمدافع الثقيلة والتصفية الجسدية وتحطيم أحياء بأسرها والحصار وتحطيم المنازل وقطع الأشجار.. بالرغم من هذه الجرائم لم يفلح الجيش في تحطيم العمود الفقري للانتفاضة... لقد حُطم اقتصاد الفلسطينيين، وأصبحت حياتهم جحيمًا، ومع هذا يؤيد الجمهور الفلسطيني الاستمرار في الكفاح[5].

---

(١) نفسه ص٥٢.

(٢) نفسه ص٤٨.

(٣) نفسه ص٥١، وهناك أيضًا الانقسام الأكبر، وهو الانقسام الديني العلماني.. والانقسام الغربي الشرقي (ص٢٠١).

(٤) نفسه ص٩٢.

(٥) نفسه ص١١٠، ١١١.

ونجم عن ذلك كله فشل الجيب الاستيطاني الإحلالي الصهيوني في إبادة السكان الأصليين[1].

من أجل ذلك -وغيرها من العوامل التي عددها الدكتور المسيري- تحول شعار (من النيل إلى الفرات)؛ لأنه يحتاج إلى قوة احتلال عسكرية نظامية كبيرة لا يمكن لإسرائيل أن تحتفظ بها، خاصة مع تصاعد المقاومة العربية المستمر تحوّل هذا الشعار، وأصبح البديل التحدث عن الأمن الصهيوني الذي يمتد من النهر (نهر الأردن) إلى البحر الأبيض المتوسط، وانكمش الحلم الصهيوني، وبدأ الحديث عن إسرائيل الكبرى اقتصاديًّا بدلاً من إسرائيل العظمى جغرافيًّا[2]، وكان الدكتور عبد الوهاب المسيري واضحاً في تقرير أنه ليس معنى ذلك انهيار المجتمع الإسرائيلي بغير مقاومة، فقد ثبت أن كثيراً من المجتمعات يمكنها أن تعيش في حالة أزمة لسنين طويلة طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج، وينبه إلى ما ذكره من عوامل تآكل في المجتمع الصهيوني هي عوامل يمكن توظيفها لصالحنا. . (واجتهادنا في قراءة الحقائق يؤكد أن الجهاد ضد العدو ضرورة)[3].

ويأتي الدواء الشافي في حديث الرسول ﷺ لعلاج هزيمتنا النفسية ببشرى سارة ستتحقق حتماً بمشيئة الله تعالى:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»**. رواه مسلم.

وفي شرح الحديث يقول الشيخ محمد على الصابوني: «وإذا كانت فلسطين قد ضاعت، وإذا كانت القدس قد ذهبت، بسبب تآمر أعداء الإسلام عليها، وتعاون

(1) نفسه ص٧١ .
(2) نفسه ص٤٧، ٤٨ .
(3) نفسه ص١٨٢، ١٨٣ .

بعض الخونة معهم ؛ مما أدى إلى ضياع فلسطين وذهاب المسجد الأقصى ، فإن الرسول ﷺ ليبشرنا هنا فى هذا الحديث الشريف بأن المعركة لم تنته بعد ، وأن النهاية ستكون بانتصار الإسلام والمسلمين ، وستظهر بعض العجائب والأمور الخارقة فى ذلك الحين ؛ حيث يتكلم الجماد ، وينطق الشجر والحجر ، فيقول : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى ورائى تعال فاقتله ، إلا الشجر الخبيث الذى يشبه اليهود فى خبثهم ولؤمهم ، ألا وهو شجر (الغرقد) ، فإنه لا ينطق إذا اختفى وراءه أحد من اليهود .

وهذه نقطة مهمة ينبغى التنبه إليها . . وهى أننا ما خسرنا المعركة ولا أضعنا فلسطين إلا حينما دخلنا المعركة بغير عقيدة ، وقاتلنا تحت شعار (العصبية) الجاهلية ، وتركنا شعار (الدين)» [1] .

وهو أيضًا تعليل الشيخ محمد الصواف الذى يرى أننا دخلنا فلسطين باسم النعرة القومية وشعارنا فيها العروبة ، وليس الإسلام الذى يخيف شبحه ، ويهز اسمه قلوب أعدائه فيجعلها واجفة ، وترتعد له فرائص الكافرين فى كل مكان . وفى معاركنا باسم الإسلام ، ولم ينكس لنا علم ولم نهزم فى معركة بل نُصرنا بالرعب مدة شهر ، وكانت الغلبة والانتصار شعار جيوشنا المظفرة فى كل الميادين . . والتاريخ شاهد عدل على ما نقول [2] .

وفى شرح هذا الحديث أيضًا قال الشيخ أمجد الزهاوى عالم العراق : «المقاتلة مفاعلة ولا تكون إلا بين متكافئين ، ولو لم تقم إسرائيل فكيف يتحقق لنا مقاتلة اليهود وهم فى ذمتنا»؟ وهم أقلية فى كل البلاد الإسلامية فلا يجوز للمسلمين مقاتلتهم ، أما وقد قامت إسرائيل وتجمعوا فيها فقد وجبت مقاتلتهم ، وسيتحقق وعد رسول الله ﷺ .

---

(١) محمد على الصابونى (من كنوز السنة : دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف) ص٨١ ، دار الفتح الإسلامى ، الإسكندرية سنة ١٣٩٠هـ .

(٢) محمد محمود الصواف (المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام) ص١٠٤/ ١٠٥ ، ط ، دار الثقافة للطباعة - مكة المكرمة ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م .

وهذا الحديث من معجزات ودلائل النبوة. أما متى يكون ذلك فعلمه عند الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠][(١)].

وفي ضوء قوله تعالى ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ يذكر الدكتور حسان حتحوت أن العنصرية قائمة في اليهود بعضهم والبعض. العنصر الأشكينازي وهو اليهودي الأوروبي الأبيض يرى نفسه أرقى من السيفارديم. وبينما يشكل السيفارديم سبعين بالمائة من اليهود فقد رسم نظام التعليم والمصروفات الدراسية بحيث لم يسمح لهم بأكثر من ستة بالمائة في الجامعات وثلاثة بالمائة عند التخرج.

أما اليهود الأحباش الذين طنطنوا بهم فحثالة المجتمع، لدرجة أنه عند التبرع بالدم تنتقى زجاجات دم اليهود الأحباش فتراق ويرمى بالدم حتى لا يستعمل، وعندما اكتشفت هذه الفضيحة أحدثت مرارة كبيرة لدى الأحباش وإحساسًا بالاضطهاد والتفرقة العنصرية... بل إن اليهود الأرثوذكس أصدروا من قريب فتوى بأن اليهود المحافظين واليهود الإصلاحيين ليسوا يهودًا[(٢)].

●●●

(١) محمد محمود الصواف (المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام) ص٣١٧. ط دار الثقافة والطباعة - مكة المكرمة ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.

(٢) د. حسان حتحوت (رسالة إلى العقل العربي المسلم) ص١٩٥/ ١٩٦ ط دار المعارف ١٩٩٨م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه . .

التصوف.. بين تاريخه وحاضره

نبذة تاريخية عن التصوف وأدواره:

اختلف الباحثون القدامى والمحدثون فى أصل كلمة (تصوف)، ولماذا سُمِّى الصوفية بهذا الاسم . . ويرى السراج الطوسى مؤلف كتاب (اللمع) أن لفظ الصوفية مشتق من الصوف؛ إذ إن الصوفية اختاروا لبس الصوف الغليظ الخشن؛ ليتناسب مع قوم تركوا الدنيا وزهدوا فى أغراضها . . ويشاركه فى الرأى ابن تيمية فإن اسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف، يقول ابن تيمية: «وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم القراء، فيدخل فيهم العلماء والنُّسَّاك، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء. أى لم يكن يطلق لقب صوفى على أحد من المسلمين فى عصر الرسول ﷺ والصحابة، فالتصوف اسم طارئ فى الإسلام ناشئ فى الملة، وحادث فيها، وأغلب الظن أن هذا الاسم استخدم فى أواخر القرن الثانى أو القرن الثالث، وإن كان صاحب (اللمع) يعلن أن هذا الاسم كان معروفًا فى وقت الحسن البصرى (ت ١١٠هـ)، فقد رُوِى عنه أنه قال: «رأيت صوفيًا فى الطواف فأعطيته شيئًا فلم يأخذه، وقال: معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى»[1].

ويرى ابن الجوزى النسبة فى زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد . . .[2].

ويميِّز ابن الجوزى بين السابقين ومن تلاهم من الصوفية، فيذكر أن أوائلهم لبَّس إبليس عليهم فى أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد

---

(١) د. عبد الفتاح فؤاد (ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى) ص٢٣٥، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الإسكندرية سنة ١٩٨٠م.

(٢) ابن الجوزى (تلبيس إبليس) ص٢١١ ط، المكتب الإسلامى (بيروت -دمشق - عمان)، تحقيق وتعليق: (عصام الحرستانى) ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

طمعه فى القرن الثانى فزاد تلبسه عليهم إلى أن تمكّن من المتأخرين غاية التمكّن . . فمنهم من خرج به الجوع إلى خيالات فاسدة . . ثم تشعب بأقوام منهم الطرق ، ففسدت عقائدهم ، فمن هؤلاء من قال بالحلول (أى الحلاج) ، ومنهم من قال بالاتحاد [١] .

وقد خصص فصلاً كاملاً بعنوان (مسالك الصوفية فى الشطح والدعاوى . . مخاريق الحلاج . .) ووصف عقيدته بالقبح والتخليط . . ومن خداعه قوله لأصحابه : (لا يهولنكم هذا فإنى عائد إليكم بعد ثلاثين يومًا) . . كما ذكر تعليق شيخه ابن عقيل على تلك المخاريق بقوله : (وإنما أوردت مثل هذا ليعلم أنه قد ارتفع القوم إلى التلاعب بالدين فأى بقاء للشريعة مع هذا الحال [٢]) ؟!

وقد ذمّ ابن عقيل مسالك الصوفية فى تأويلاتهم التى يوجب الشرع ذم فعلها . . وهم أول من وضعوا أسماء وقالوا : حقيقة وشريعة ، وهذا قبيح لأن الشريعة ما وضعه الحق لصالح الخلق ، فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع فى النفوس من إلقاء الشياطين ، وكل من رام الحقيقة من غير الشريعة فمغرور مخدوع [٣] .

واعترض على قيامهم بالغناء بالقضبان ، وقبولهم الطعام والنفقات من الظلمة والفجار وغاصبى الأموال . . واستصحاب المردان فى السماعات . . ومخالطة النسوة الأجانب . . ويذكر أيضًا أفعالاً أخرى منحطة ، ثم يعلق بقوله : «وإنما هم زنادقة جمعوا بين مدارع العمال مرتعات وصوف ، وبين أعمال الخلعاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع . ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاؤوا بوضع أهل الخلاعة» [٤] .

كذلك تتبعّ الدكتور توفيق الطويل انحرافات الصوفية حتى العصر الحديث ، وأثبت أن التصوف كان مسئولاً عن الانحطاط العلمى والخلقى والاجتماعى فى مصر ،

(١) نفسه ص٢١٤ .
(٢) نفسه ص٥٠٦ ، ٥٠٧ .
(٣) نفسه ص٤٩١ .
(٤) نفسه ص٤٩١ .

واستمرار الصوفية فى الغناء والتواجد والرقص فى حلقات الذكر . . ولما أفتى شيخ جامع الأزهر حينئذ الأستاذ المراغى بأنها لا تتفق مع قواعد الإسلام . . واتفق الرأى على تكوين لجنة يرأسها مفتى الديار المصرية الشيخ عبد المجيد سليم، وصدر قرار بتأليفها لوضع كتاب جامع عن البدع الفاشية والمنافية للإسلام . . عندئذ ثارت ثائرة الصوفية وأعلنوا احتجاجهم [1].

وكان علماء العصر لا يسلّمون بأن للشريعة باطنًا وظاهرًا، ونادوا بتحريم التأويل ودعوا إلى الوقوف عند ظاهر الشرع؛ لأن التأويل مهد السبيل لشعوذة الدجالين الذين أعلنوا آراء مخالفة للدين [2].

ولم يكتف الصوفية بالتأويل لأفعال مخالفة للدين، بل تجرؤوا على ذمّ السنة أيضاً، فإن سمعوا أحداً يروى حديثًا قالوا: مساكين أخذو علمهم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت. فمن قال: حدثنى أبى عن جدى قلت: حدثنى قلبى عن ربى (فهلكوا وأهلكوا بهذه الخرافات قلوب الأغمار) [3].

ويمضى ابن عقيل فى ذم الصوفية معترضاً على بغضهم لأصحاب الحديث. . . وتلبيسهم بألفاظ معسولة ليس تحتها سوى إهمال التكليف وهجران الشرع . . وطعنهم فى منهج أصحاب الحديث، يعنى الطعن فى النبوءات، فمن قال: حدثنى قلبى عن ربى، فقد صرح بأنه غنى عن الرسول ﷺ، ومن صرح بذلك فقد كفر، فهذه كلمة مدسوسة فى الشريعة تحتها هذه الزندقة . . ومن رأيناه يزرى على النقل علمنا أنه قد عطل أمر الشرع، وحقيقة القائل حدثنى قلبى عن ربى أنه من إلقاء الشياطين، فقد قال الله -عز وجل- ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وهذا هو

---

(١) د. توفيق الطويل (التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى) ص١٨٤، ١٨٥- الناشر مكتبة الآداب بالحماميز ١٣١٥هـ-١٩٤٦م.

(٢) نفسه ص١٩٤.

(٣) ابن الجوزى (تلبيس إبليس) ص٤٩١.

الظاهر، لأنه ترك الدليل المعصوم، وعول على ما يلقى فى قلبه الذى لم تثبت حراسته من الوساوس[1].

تعقيب:

إنّ أولئك لم يعرفوا قدر أصحاب الحديث، بينما هم الذين حافظوا على سنة الرسول ﷺ، وقد أجمع أهل السّنة أنه لولا أهل الحديث لاندرس الإسلام، قال حفص بن غياث (١١٧-١٩٤): لولا أن الله جعل الحرص فى قلوب هؤلاء -يعنى طلبة العلم- لدرس هذا الشأن.

وقال أبو داود (٢٠٣): لولا هذه العصابة لاندرس الإسلام، يعنى أصحاب الحديث الذين يكتبون الآثار.

وقال أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى (١٩٤-٢٥٦): كنا ثلاثة أو أربعة على باب علي بن عبدالله (١٦١-٢٣٤) فقال: إنى لأرجو أن تأويل هذا الحديث عن النبى ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم» إنى لأرجو أن تأويل هذا الحديث أنتم؛ لأن التجار قد شغلوا أنفسهم بالتجارات، وأهل الصنعة قد شغلوا أنفسهم بالصناعات، والملوك شغلوا أنفسهم بالمملكة، وأنتم تحيون سنة النبى ﷺ.

وقال بشر بن الحارث (١٥٢-٢٢٧): لا أعلم على وجه الأرض عملاً أفضل من طلب العلم والحديث لمن اتقى الله، وحسنت نيته فيه، وأما أنا فأستغفر الله من كل خطوة خطوت فيه.

وأنشد أبو زيد الفقيه (١٧٥-٢٦٢):

كل الكلام سوى القرآن زندقة ... إلا الحديث وإلا الفقه فى الدين

والعلم متبع ما كان «حدثنا» ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

(١) نفسه ص٤٩٣.

وفى العصر الحديث نفى الفيلسوف رسل نفيًا قاطعًا أن يكون التصوف طريقًا للمعرفة.. ويقول: «إن التصوف لا يصل بنا إلى أية حقائق على الإطلاق.. إن ماهيّة التصوف هى الانفعال، والانفعالات ذاتية، بمعنى أنها لا تزودنا بأية حقائق موضوعية من العالم الخارجى» ص٢٨، من كتاب (التصوف والفلسفة) لولتر ستيس، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح، مدبولى ١٩٩٩.

وعندما سُئل الأوزاعي (٨٨-١٥٧) عن رأيه في قوم يبغضون حديث نبيهم ﷺ قال: ليس من صاحب بدعة تحدثه عن رسول الله ﷺ بخلاف بدعته بحديث إلا أبغض الحديث[١].

وقال أبو حاتم الرازي: «لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة».

وقال عبدالله الخريبي (٢١١): سمعت من أئمتنا ومن فوقنا: إن أصحاب الحديث وحملة العلم هم أمناء الله على دينه وحفاظ سنة نبيه ﷺ ما علموا وعملوا.

وقال محمد بن حاتم: إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضّلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها، قديمهم وحديثهم، إسناد، وإنّما هي صحف في أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاءهم به أنبياؤهم، وتمييز بين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوا عن غير الثقات، وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهًا وأكثر حتى يهذبوّه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عداً، فهذا من أعظم نعم الله على هذه الأمة نستوزع الله شكر هذه النعمة، ونسأله التثبيت والتوفيق لما يقرب منه ويزلف لديه، ويمسكنا بطاعته، إنه ولي حميد.

وقال مالك بن أنس (٩٥-١٧٩): سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله -عز وجل- واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى[٢].

(١) الحافظ المؤرخ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٩٢، وتُوفي سنة ٤٦٣هـ [شرف أصحاب الحديث] تحقيق: د. محمد سعيد خطيب أوغلي، دار إحياء السنة النبوية «نشريات كلية الإلهيات- جامعة أنقرة» ط ١٩٦٩م.

(٢) نفس المصدر: صفحات ٧-٤٠-٤٣.

نقد القشيرى لما أحدثه فاسدو الصوفية.

قال القشيرى فى كتابه (الرسالة القشيرية):

«زال الورع وطُوى بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، وعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفّوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا إلى ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالات بتعاطى المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان، وأصحاب السلطان، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، فادّعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجرى عليهم أحكامه وهو محو، ليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا، بل صُرّفوا، وهؤلاء كثيرون فى المنتسبين إلى الصوفية، وعلى مثل ذلك قتل الحلاج»[1].

ويقول الإمام الشاطبى (٧٩٠هـ): «وهناك قوم يغالون فى تعظيم شيوخهم حتى ألحقوهم بما لا يستحقونه، فالمقتصد منهم يزعم أنه لا ولى لله أعظم من فلان، وربما أغلقوا باب الولاية دون سائر الأمة، إلا هذا المذكور، وهو باطل محض، وبدعة فاحشة؛ لأنه لا يمكن أن يبلغ المتأخرون أبداً مبالغ المتقدّمين، فخير القرون الذين رأوا

---

(١) ابن تيمية (الاستقامة) جـ١، ص١١٣/ ١١٤ تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

إن شهادة القشيرى تتضمن الرد الحاسم على د. أبو العلا عفيفى، الذى وصف التصوف بأنه الثورة الروحية التى تشبع العاطفة وتغذى القلب، وأن التصوف كان انقلاباً عارماً على الأوضاع والمفاهيم الإسلامية التى حددها الفقهاء والمتكلمون والفلاسفة!

رسول الله ﷺ وآمنوا به ثم الذين يلونهم، وهذا يكون الأمر أبدًا إلى قيام الساعة، فأقوى ما كان أهل الإسلام في دينهم وأعمالهم ويقينهم وأحوالهم في أول الإسلام، ثم لا زال ينقص شيئًا فشيئًا إلى آخر الدنيا، لكن لا يذهب الحق جملة، بل لا بد من طائفة تقوم به وتعتقده وتعمل بمقتضاه على حسبهم في إيمانهم، إلا ما كان عليه الأولون من وجه؛ لأنه لو أنفق من المتأخرين وزن أحد ذهبًا، ما بلغ مُدّ أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا نصيفه، وإذا كان ذلك في المال فكذلك في سائر شُعب الإيمان، بشهادة التجربة العادية»[1].

ويقول الإمام الشوكاني (١٢٥٠هـ) تحت عنوان (مفاسد بعض أدعياء التصوف):

«وهو ما صار عليه هذه الطائفة المدعوّة بالمتصوفة، فقد كان أول هذا الأمر يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ، ومشى على هدى الشريعة المطهرة، وأعرض من الدنيا، وصدّ عن زينتها ولم يغتر ببهجتها.

ثم جاء قوم جعلوا هذا الأمر طريقًا إلى الدنيا، ومدرجًا إلى التلاعب بأحكام الشرع، ومسلكًا إلى أبواب اللهو والخلاعة. ثم جعلوا لهم شيخًا يعلمهم كيفية السلوك، فمنهم من يكون مقصده صالحًا وطريقته حسنة، فيلقّن أتباعه كلمات تباعدهم عن الدنيا، وتقرّبهم من الآخرة، وينقلهم من رتبة إلى رتبة على أعراف يتعافونها، ولكنه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع، وخروج عن كثير من آدابه.

والخير كل الخير في الكتاب والسنّة، فما خرج عن ذلك، فلا خير فيه، وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة وأتقاهم لله تعالى، وأخشاهم له في الظاهر، فإنه لا زهد لمن لم يحسن على الهدى النبوى، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم»[2].

---

(١) الشاطبي (الاعتصام) جـ١، ص٢٥٨ تحقيق محمد رشيد رضا -دار المعرفة بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٢) الإمام محمد بن علي الشوكاني (أدب الطلب ومنتهى الأرب) ص٢١٨/ ٢١٩ دراسة وتحقيق د. محمد عثمان الخشت -مكتبة القرآن- القاهرة سنة ١٩٨٨م.

التفرقة بين تصوف أهل السنة وتصوف ابن عربي الفلسفي:

يقول الدكتور عبد الفتاح فؤاد: «فرّق ابن تيمية بين صوفية أهل السنة وصوفية الفلاسفة. فأما الفريق الأخير فقد تصدّى لهاجمتهم بعنف؛ لأنهم أقحموا على الفكر الإسلامي الخالص أفكاراً أجنبية غريبة كالحلول والاتحاد... أما صوفية أهل السنة والجماعة فقد اعترف الشيخ السلفي بفضلهم ومدحهم؛ لأن أقوالهم انبثقت من الكتاب والسنة»[1].

وذكر ابن تيمية أن القول بالحلول والاتحاد بين الخالق والمخلوق قول محدث، بل بدعة تخرج صاحبها من ملّة الإسلام، وقد أدخلت إلى الإسلام من دين النصارى واليهود، ولا يقبل العقل أبداً أن يحل الإله العظيم في المخلوق الضعيف، فكيف لو قيل بالاتحاد معه؟! بل الرب جل جلاله مستو على عرشه، بائن من خلقه، ولا يمكن أن يقع بينه وبين المخلوق ماسة أو اختلاط أو اتحاد»[2].

ويقول المستشرق هنري لاووست: «أما وحدة الوجود عند ابن عربي فإنها تذيب - أو تهدم- عقيدة السمو الإلهي وتجعل من كل كائن مظهراً فردياً من مظاهر الماهية الإلهية. وبذلك تصبح إرادة الله الخلاقة ومشيئته شيئاً واحداً، ومثل هذا التفكير يؤدي بالضرورة إلى تذويب الفوارق بين العقائد»[3].

وحدة الوجود (عرض ونقد)[4]:

ناقش ابن تيمية تلك الفكرة الوافدة من الهند في رأي البعض وتخالف عقيدة التوحيد الإسلامية، ويرى إنْ قيل إن الوجود واحد، بمعنى أن الموجودات اشتركت في مسمى الوجود، فهذا صحيح لكن الموجودات المشتركات في مسمى الواحد لا يكون

(١) د. عبد الفتاح فؤاد (ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفي) ص٢٧٥ -الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية سنة ١٩٨٠.

(٢) د. محمد بن عبد الرحمن العريفي (موقف ابن تيمية من الصوفية) ص٥٢٤، جـ١ مكتبة دار المنهاج - الرياض سنة ١٤٣٠هـ.

(٣) هنري لاووست (النشأة العلمية عند ابن تيمية) ص٢٦. ترجمة محمد عبد العظيم -ط ١ الدعوة- إسكندرية.

(٤) عرفت (دائرة المعارف البريطانية) وحدة الوجود بأنها تعني النظرية التي تقول: إن الله هو كل شيء وكل شيء هو الله، فالكون ليس خلقاً متميزاً عن الله. فالله هو الكون والكون هو الله، ص٢٥٨ من كتاب (التصوف والفلسفة) تأليف ولتر ستيس، وترجمة د. إمام عبد الفتاح، ط مكتبة مدبولي سنة ١٩٩٩م.

وجودها هذا (منها) عن وجود هنا، بل هذا اشترك في الاسم العام الكلي كالاشتراك في الأسماء التي يسميها النحاة اسم الجنس، ويقسّمها المنطقيون إلى جنس ونوع وفصل وخاصة وعرض عام، فالاشتراك في هذه الأسماء هو مستلزم لتباين الأعيان وكون أحد المشتركين ليس هو الآخر، وهذا مما به يُعلم أن وجود الخالق مباين للمخلوقات أعظم من مباينة هذا الموجود لهذا الموجود، فإن كان وجود الفلك مبايناً لوجود الذرة والبعوضة، فوجود الخالق أعظم مباينة لوجود كل مخلوق من مباينة وجود ذلك المخلوق لوجود مخلوق آخر.

وهذا وغيره مما يتبيّن بطلان قول ذلك الشيخ -أي ابن عربي- حيث قال: لا يعرف التوحيد إلا الواحد، ولا تصح العبارة عن التوحيد، وذلك لا يعبر عنه إلا بغير، ومن أثبت غيراً فلا توحيد له.

وهذا مخالف بإجماع المسلمين للتوحيد الذي عبّر عنه الله تعالى ورسوله ﷺ، والقرآن مملوء من ذكر التوحيد، بل إنما أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب بالتوحيد، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .. وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال النبي ﷺ: **«أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»، وقال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**[1].

هذا، ولما سُئل الجنيد عن التوحيد قال: «إفراد الحدوث عن القدم»، فبيّن أنه لا بد من تمييز المحدث عن القديم.

ولهذا اتفق أئمة المسلمين على أن الخالق بائن عن مخلوقاته ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، بل الرب رب والعبد عبد: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي

(١) رسالة بعنوان (إبطال وحدة الوجود والرد على القائلين بها) لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١١٠/١١١ باختصار (مجموعة الرسائل والمسائل)، بإشراف رشيد رضا - مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٦هـ.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥][1].

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى: «ويمكننا أن نقول: إن جوهر النسق التوحيدى الإسلامى هو مفهوم المسافة، الذى يؤكد علاقة الانفصال والاتصال بين الخالق والمخلوق، فالله سبحانه ليس كمثله شىء، فهو غياب إمبريقى كامل، ولا يمكن أن يدرك بالحواس، ولكنه فى الوقت نفسه أقرب إلينا من حبل الوريد، دون أن يلتحم ويجرى فى دمائنا، ويصبح بذلك جزءاً من عالم الصيرورة»[2].

ويزيد الإمام أحمد بن حنبل القضية إيضاحًا بتفسيره لبعض آيات القرآن عن المعيَّة تحت عنوان (باب: بيان ما ذكر الله فى القرآن «وهو معكم»).

وهذا على وجوه: قول الله تعالى لموسى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، يقول فى الدفع عنكما.

وقال: ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، يقول: فى الدفع عنا.

وقال: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، يقول: فى النصر لهم على عدوهم.

وقوله: ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ.. ﴾ [محمد: ٣٥]، يقول: في النصر لكم عن عدوكم.

وقال: ﴿ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٨]. يقول: بعلمه فيهم.

---

(١) نفسه ص١٠٣.

(٢) د. عبد الوهاب المسيرى (اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود) ص١٣٤ دار الشروق ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

يقول: في العون على فرعون[1].

ويذكر الدكتور المسيرى أن المسافة تظل بين الخالق والمخلوق قائمة، لا يمكن اختزالها مهما كانت درجة الاقتراب من المؤمن الإله. ومن هنا لا يمكن فى الإطار التوحيدى أن «يصل» المتصوف إلى الالتصاق بالإله أو الاتحاد به أو الفناء فيه، فثمة مسافة جوهرية ثابتة[2].

القواعد المنهجية الإسلامية للمعرفة عند علماء والسنة:

وهى تتلخص فيما يلى، ويتضح أنها مخالفة لطريق المعرفة عند الصوفية:

- **أولاً:** إن أصول الدين التى تعبد الله به رسوله ﷺ قد بينها القرآن أحسن بيان، وبين دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب بصفاته، وبين دلائل نبوة أنبيائه وبين المعاد: بين إمكانه وقدرته عليه فى غير موضع وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية، فكان فى بيان الله أصول الدين الحق، وهو دين الله، وهى أصول ثابتة صحيحة، معلومة، فتضمن بيان العلم النافع، والعمل الصالح، الهدى ودين الحق. وطريقة القرآن فيها الهدى والنور والشفاء.
- **ثانياً:** إن التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن، أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهى تنزيل من حكيم حميد.. والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعانى ما لا تنقضى عجائبه... والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع.
- **ثالثاً:** خالف أهل البدع من المتكلمين ذلك؛ حيث ابتدعوا أصول دين وليس فيما ابتدعوه، لا هدى، ولا دين حق، فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات

(١) أحمد بن حنبل (الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله) ص٣٠٧/٣٠٨ تحقيق: دغش العجمى، ضمة غراس - الكويت ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(٢) د. المسيرى المصدر السابق ص٢٢٦ (اللغة المجاز بين التوحيد ووحدة الوجود).

الصانع، وصدق الرسول ﷺ، وإمكان المعاد أو وقوعه، وخالفوا الشرع والعقل، فإن الذى بعث الله به رسوله ﷺ وغيره من الأنبياء، هو حق وصدق، وتدل عليه الأدلة العقلية، فهو ثابت بالسمع وبالعقل.

وابتدع الصوفية بما سموه الذوقيات أو التصفية التى من سلكها ضل ضلالاً بعيداً (١).

يقول طاش كبرى زاده: «إن أهل النظر أنكروا طريق الصوفية؛ لأن طريق التصفية صعب الوصول؛ لأن محو العلائق إلى حد يؤدى إلى انكشاف المعارف متعذر بل قريب من الممتنع، وإن أفضى إلى المقصد فثباته أبعد منه؛ إذ أدنى وسواس وخاطر يمحو ما حصل ويقطع ما وصل، ثم يفسّر نتائج التصوف تفسيراً مَرَضياً بحتًا (وهو رأى يذهب إليه كثير من علماء النفس المحدثين).

فيقولون: «إنه يفسد المزاج ويختلط العقل فى أثناء المجاهدات الصعبة والرياضيات الشاقة»(٢).

ولا يغيب عن البال أن أتباع ابن عربى خاصة الذين غالوا فى الولاية، رفعوا أنفسهم فوق كل نقد وملامة.. وأقدموا على ارتكاب المعاصى على ملأ من الناس، والتقصير فى القيام بتكاليف الدين.. بل تمادوا فى شططهم فى وجوه الشبه بين الولى والنبى ﷺ، واستغلوا مذهبهم فى التأويل والقدرة على معرفة باطن الشريعة فى ابتكار آراء ليس للكثير منها أصل فى الدين. وذلك تحت زعمهم أخذ العلم من الله تعالى رأساً من غير وساطة، وشتان من يستقى العلم من ميت عن ميت، ومن يستقيه من الحى الذى لا يموت (٣).

وبلغ الأمر ذروته بمخالفة أتباع وحدة الوجود منهج علماء المسلمين -أهل السنة والجماعة فى المعرفة- فتجرأ أحدهم وهو التلمسانى (ت: سنة ٦٩٠هـ) بمخالفة ما هو

---

(١) ابن تيمية (كتاب النبوات) ص١٦١-٢٦٤-٢٦٩) ط، دار ابن حزم- بيروت ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

(٢) د. على سامى النشار (مناهج البحث عند مفكرى الإسلام) ص٣١٣.

(٣) د. توفيق الطويل (التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى) مكتبة الآداب بالجماميز، يوليو سنة ١٩٤٦، ص١٩٢-١٩٥.

معروف في الدين بالضرورة، حتى أنه خرج إلى الإباحة والفجور، وكان لا يحرم الفواحش ولا الكفر ولا الفسوق والعصيان.

يقول ابن تيمية: «وحدثني الثقة الذي رجع عنهم (أي عن أصحاب وحدة الوجود) لما انكشف له أسرارهم، وأنه قرأ عليه (أي التلمساني الذي كان من غلاة القائلين بوحدة الوجود)، فصوص الحكم لابن عربي. قال: فقلت له: هذا كلام يخالف القرآن، فقال: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا، قال: فقلت له: فإذا كان الكل واحداً فلماذا تحرم عليّ ابنتي وتحل لي زوجتي؟ فقال: لا فرق عندنا بين الزوجة والبنت والجميع حلال، لكن المحجوبون قالوا: حرام فقلنا: حرام عليكم»[1].

ويعلن ابن تيمية إلحاد الصوفية أصحاب وحدة الوجود في أصول الإيمان جميعاً، ومعلوم أن أصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، ورسله، واليوم الآخر، وهم ألحدوا في الأصول الثلاثة:

١- أما الإيمان بالله فجعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق، وهذا غاية التعطيل.

٢- وأما الإيمان باليوم الآخر، فادّعى ابن عربي أن أصحاب النار يتنعمون في النار، كما يتنعم أهل الجنة، وأنه يُسمّى عذابًا من عذوبة طعمه، وأنشد في كتاب «الفصوص»:

فإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين[1]

٣- وأما الإيمان بالرسل، فقد ادّعوا أن خاتم الأولياء أعلم بالله من خاتم الأنبياء، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن على الحكيم الترمذي، وقد غلط في هذا الرأي، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء.

---

(١) د. عبد الفتاح فؤاد (ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفي) تحقيق: د. رشاد سالم ومن مصادره: الصفدية لابن تيمية، تحقيق د. رشاد سالم وأبو العلا عفيفي من مقدمته لكتاب (فصوص الحكم).

فكرة الظاهر والباطن عن ابن عربي:

يقول ابن عربي:

فاصرف الخاطر عن ظاهرها   واطلب الباطن حتى تعلما

يقول الدكتور عبد اللطيف العبد: «هنا إشارة إلى فكرة الظاهر والباطن، وهي مرفوضة شرعاً بالنسبة لأمور الكون وأحكام الشرع، فمن قال: إن للقرآن -مثلاً- ظاهراً وباطناً، وأن ظاهره يخالف باطنه فهو كافر، كما قرر ابن تيمية. ونقل عن الإمام الشاطبي أن من قال: إن أمور الشرع أمثلة ورموز لباطن، فهو من الباطنية الملاحدة»[1].

وكان الإمام الشاطبي قد عدّد الأمثلة على تحريف الأدلة عن مواضعها، فذكر أن طائفة من الصوفية تذهب إلى تأويلات لا تعقل، بدعوى فيها أنها هي المقصود والمراد.. وهم في الحقيقة أرادوا إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً، وإلقاء ذلك فيما بين الناس لينحل الدين في أيديهم، فلم يمكنهم إلقاء ذلك صراحاً، فيرد ذلك في وجوههم، وتمتد إليهم يد الحكام، فصرفوا أعناقهم إلى التحيُّل على ما قصدوا بأنواع من الحيل، من جملتها صرف الهم عن الظواهر إحالة على أن لها بواطن هي المقصودة. وأن الظواهر غير مرادة، فقالوا: كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر، والأمور الإلهية فهي أمثلة ورموز إلى بواطن.. ولهم من هذا الإفك كثير في الأمور الإلهية، وأمور التكليف وأمور الآخرة، وكله حوم على إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً[2].

هذا، وقد قام الدكتور محمود قاسم بعقد مقارنة بين فلسفة ابن عربي في وحدة الوجود، والفيلسوف الألماني ليبنتز؛ إذ اتضح منها أنه بسبب غرق ابن عربي في الفلسفة على حساب التصوف، جعلت منه رائداً لليبنتز، وقد أثبت الدكتور محمود قاسم أن المذهب الميتافيزيقي لهذا الفيلسوف أقرب إلى تصوف ابن عربي الفلسفي منه

(١) د. عبد اللطيف العبد (أصول محبة الله -عز وجل- مع الرد على كتاب: السر الأعظم للدكتور مصطفى محمود) ص٤٥، ومن مصادره: (بيان تلبيس الجهمية) لابن تيمية، (والاعتصام) للإمام الشاطبي، ط دار الثقافة العربية ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(٢) الشاطبي (الاعتصام) -جـ١، ص٢٥٢/ ٢٥٣ ط دار المعرفة بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

إلى أي مذهب آخر، فإن الأعيان الثابتة في العدم عند ابن عربي تشابه المونادات عند ليبنتز[1].

وقال: ولا ريب في أن المقارنة بين نصوص كل من ليبنتز وابن عربي الخاصة بسريان الحياة في كل شيء تكشف لنا عن تماثل عميق من اتجاه هذين الرجلين، كما توضّح لنا أن تفاصيل الفكرة عندهما واحدة، وإن كانت أكثر ثراءً وتنوعًا وترابطًا عند ابن عربي، فإذا نحن انتقلنا من هذا الأساس المشترك الذي بنى عليه كل منهما مذهبه، فجأنا أن نرى أن فلسفة ليبنتز الخاصة بالله والعالم والإنسان ليست سوى صدى للمذهب الصوفي عند ابن عربي[2].

ونحن بدورنا نعلّق على ذلك فنرى أن سبب انجذاب ليبنتز لابن عربي أنه لم يعثر في مؤلفاته ومذهبه الفلسفي في وحدة الوجود، لم يعثر على فكر إسلامي أصيل يصدّه عنه، فقد كان ليبنتز عدواً للإسلام والمسلمين، ولو عثر عليه (أو أي لمحة من الفكر الإسلامي الأصيل) لنفر منه ومنعه من النقل عنه وتقليده في فلسفته، فقد كان معروفًا بعدائه للمسلمين؛ ذلك لأن المتابع لحياته يتّضح له أنه لم ينصرف حتى قبيل وفاته عن تحقيق حلمه السياسي تمهيداً لحروب صليبية جديدة، ولم يكن إخفاقه أثناء إقامته في باريس، في تحريضه للويس الرابع عشر على غزو مصر والتنكيل بالمسلمين في تركيا وغيرها، لم يمنعه هذا الإخفاق من أن يعيد الكرّة كلما سنحت له فرصة مواتية.

لقد اتجه أولاً نحو شارل الثاني عشر يزيّن له هذه الحرب الدينية، لكن عندما هُزم هذا الأخير في موقعه بولتافا، اتجه ليبنتز فيما بعد صوب بطرس الأكبر قيصر روسيا عام ١٧١١م، وعرض عليه خطة تفصيلية لتنظيم روسيا داخليًا تمهيداً للزحف على بلاد المسلمين في الشرق![3].

---

(١) د. محمود قاسم (محيي الدين بن عربي وليبنتز) ص١٨٧، مكتبة القاهرة المدنية سنة ١٩٧٢.

(٢) نفسه ص٤٥.

(٣) نفسه ص٢٩، ٣٠، وقد علق الدكتور قاسم على ذلك بقوله: «ولئن كانت هناك نقط التقاء عديدة بين ليبنتز وابن عربي على المستوى الميتافيزيقي، فإن إصرار الفيلسوف الألماني على كراهية المسلمين ليس له ما يقابله عن التصوف الإسلامي، الذي كان لا يفرق في المعاملة بين المسلم والذمي، وبين المؤمن وغير المؤمن» ص٣٠!

الأدوار التى مر بها التصوف،

قسّم أستاذنا الدكتور محمد على أبو ريان تاريخ التصوف إلى أدوار ثلاثة :

فالدور الأول كان التصوف فى نشأته يحض على هجر زخرف الدنيا ويدفع المسلمين إلى التعمق فى المفاهيم الدينية . . أى أن الحركة الصوفية بدأت إسلامية[1] .

وفى الدور الثانى: استعمل الصوفية عبارات جديدة، وظهرت لديهم مصطلحات كثيرة، وتناولوا بالبحث مشكلات نظرية فلسفية، فأكثروا الكلام فى الوجد والقرب والبعد والفيض والبسط والسكر والمحو والجذب والمكاشفة، كما أشاروا إلى التوحيد وإلى معنى وحدة الشهود[2] .

أما فى الدور الثالث فقد تكلم فيه الصوفية فى الكشف وفيما وراء الحس، ثم توغلوا فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة . . أمثال ابن عربي وابن سبعين والتلمسانى وابن الفارض . . . وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الرائين أيضًا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبًا لم يُعرف لأولهم . . واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم[3] .

وفى هذا الدور ظهر تأثير التصوف الهندى أو المسيحى أو الأفكار الفارسية أو اليونانية . . وغير ذلك من التيارات الأجنبية على الحركة الصوفية الإسلامية، وتناول الصوفية مظلات نظرية فلسفية . . . وظهرت المعرفة الصوفية والكشف الصوفى والتمييز بين العارف والعابد، وبين الشريعة والطريقة والحقيقة .

وظهر كذلك تيار خطير وهو الذى رأى فيه الصوفية القدرة على التصرف فى

---

(1) د. محمد على أبو ريان (تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام) جـ١، ص٢٧٥، دار النهضة العربية - بيروت سنة ١٩٧٠م.

(2) نفسه ص٣٠٦ .

(3) نفسه ص٣٦٨ .

الكون، وكيف أن الصوفى حينما يصل إلى مقام كُنْ أو المطاع يتسنى له بالهمة الإنسانية أن يحدث شيئًا، أى أن يسخر موجودات العالم، وخصوصًا موجودات العالم السفلى[1].

ويذكر الدكتور محمد على أبو ريان الموقف المذهبى عند الحلاج الذى يعد أول أنواع التصوف الفلسفى الواضحة المعالم. . وتتدرج شطحاته فى إطار مذهبى واحد وتتدرج تحت نظرية فلسفية محكمة الربط، كنسق من أنساق التصوف المفلسف الذى تميز به الدور الثالث. . بحيث يتضح أن أفكار الحلاج تتردّد فى هذا الدور وتظهر عند الجيلى والتلمسانى؛ إذ يتدرج بهذه الأفكار من الحلول إلى الاتحاد ثم إلى الوحدة المطلقة[2].

وكان الحلاج يتعلق بعبارات شطحية تكشف عن مذهب باطنى بعيد عن جوهر العقيدة الإسلامية، والدليل على أن مذهب الحلاج الصوفى يحمل فى طياته عوامل المروق من الدين، أن تلامذته -وهم على دراية بحقيقة المذهب وخوافيه- قالوا بإسقاط التكاليف الشرعية، واستبدلوا أعمالاً أخرى بالفرائض الخمس، تتفق مع أساليب الطريق، وتمسكوا بعقيدة الحلول المسيحية.

ويعلق الدكتور «محمد على أبو ريان» على ذلك بقوله: «فمن عجب أن يرى بعض معاصرينا -ويقصد الماركسيين!- فى الحلاج الباطنى القرمطى داعية للإسلام الصحيح ومقاومًا للرجعية، ومناديًا بالإصلاح الاجتماعى، ورافعًا راية الثورة ضد المستغلين فى عصر لم تكن قد ظهرت تلك المفاهيم الاجتماعية. . فلم يكن الحلاج ثائرًا إلا على العقيدة السنيّة يبغى هدمها»[3].

ولقد تتبع الإمام الشاطبى ظاهرة الشغالى فى تعظيم الحلاج وغيره من شيوخهم. .

---

(1) د. محمد على أبو ريان (تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام) جـ1، ص307، ط دار النهضة العربية- بيروت سنة 1970م.

(2) نفسه ص 319، 320.

(3) نفسه ص335، 336. ومن مصادر الدكتور أبو ريان رسالة الدكتوراه للسيدة مارجريت سميث، عالجت فيها التصوف الإسلامى باعتباره فرعًا للتصوف المسيحى، أو بمعنى آخر باعتباره متأثرًا بحركة التصوف المسيحى فى الشرق الأوسط، ص386.

فالمقتصد منهم يزعم أنه لا ولى لله أعظم من فلان، وربما أغلقوا باب الولاية دون سائر الأمة إلا هذا المذكور، وهو باطل محض وبدعة فاحشة.. والمتوسط يزعم أنه مساو للنبى ﷺ إلا أنه لا يأتيه الوحى.. ثم قال: «بلغنى هذا من طائفة من الغالين فى شيخهم، الحاملين لطريقتهم فى زعمهم، نظير ما ادعاه بعض تلامذة الحلاج فى شيخهم على الاقتصاد منهم، والغالى يزعم فيه أشنع من هذا، كما ادعى أصحاب الحلاج فى الحلاج».

ثم روى واقعة غاية فى الغلو؛ إذ قال: «وقد حدثنى بعض الشيوخ أهل العدالة والصدق فى النقل أنه قال: أقمت زمانًا فى بعض قرى البادية، وفيها من هذه الطائفة المشار إليها كثير.. قال: فخرجت يومًا من منزلى لبعض شأنى، فرأيت رجلين منهم قاعدين فاتهمت أنهما يتحدثان فى بعض فروع طريقتهم، فقربت منهم استخفاءً لأسمع كلامهم؛ إذْ شأنهم الاستخفاء بأسرارهم فتحدثا فى شيخهم، وعظم منزلته، وأنه لا أحد فى الدنيا مثله، وطربا لهذه المقابلة طربًا عظيمًا، ثم قال أحدهما للآخر: أتحب الحق؟ هو النبى قال: نعم، هذا هو الحق، قال المخبر: فقمت من ذلك المكان فارًّا أن يصيبنى معهم قارعة»[1].

وكان الحلاج يميز بين الروح الإلهى والروح الإنسانى؛ ولهذا فإنه ليس ثمة عوائق أمام حلول الروح الإلهى فى روح الإنسان، ويتضح ذلك فى مثل قوله:

مزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال[2]

وقد أثار السخط والمعارضة من علماء أهل السنة فى تفسير آية الإسراء، فقال: إن معنى النبى ﷺ (كان قاب قوسين أو أدنى)، أنه لم يدرك الحقيقة كاملة، وسيكون على الأولياء وأئمة التصوف من أمثاله -أى الحلاج- والسهروردى وابن عربى إدراكها كاملة![3].

---

(١) الإمام الشاطبى (الاعتصام) جـ١، ص٢٥٩، دار المعرفة -بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٢) نفسه ص٣٢٥.

(٣) نفسه ص٣٣١.

وتعليقًا على ذلك يقول الدكتور محمد على أبو ريان: «ولهذا فابن تيمية كان على حق حينما هاجم الصوفية قائلاً: إنهم يفضّلون الولى على النبى ﷺ».

هذا، وقد استخدمت نظرية الحلاج فى الحلول المسيحية، استخدمها تلامذته والنصيرية فى سوريا، والدروز فى لبنان[1].

ثم اختفت نظرية الحلاج فى حلول اللاهوت فى الناسوت بعد ذلك مدة قرنين ولكن، عادت إلى الظهور فى القرن السابع الهجرى عند ابن الفارض وابن عربى، ولكنها اتخذت معنًى جديداً يتحول به الحلول إلى اتحاد مطلق فيصبح اللاهوت والناسوت مظهرين لحقيقة واحدة مطلقة[2].

ويتضح من ذلك كله أن التصوف فى مرحلته الثالثة -حسب تقسيم الدكتور أبو ريان- يعبّر عن حركة هدمية لعقيدة أهل السنة والجماعة، بل للإسلام نفسه. ويقول أستاذنا الدكتور على سامى النشار: «إن الصوفية فى جوهرها حركة من الحركات الهدمية التى انتشرت فى العالم الإسلامى لهدم الإسلام ذاته، ولا يقبل المسلمون عقائد الصوفية ولا طريق المعرفة لديهم. وهذا ما يفسر لنا النزاع الذى حدث منذ القرن الثانى الهجرى بين الصوفية والفقهاء، والصوفية والمتكلمين، والذى اشتد فى بعض العصور اشتداداً كبيراً»[3].

وكان للمذاهب الهندية بعض التأثير الذى يبدو فى نظرية وحدة الوجود الصوفية.. وكذلك فكرة تطابق العالم الصغير بالعالم الكبير. وهو الذى يقول عنه المريدون من الصوفية: إنه كشف السر؛ إذ به يتحقق الفرد أنه أصبح هو الذات الإلهية.

---

(١) نفسه ص٣٢٧.

(٢) نفسه ص٣٢٧.

(٣) د. على سامى النشار (مناهج البحث عن مفكرى الإسلام ونقد المسلمين للمنطق الأرسطاليسى) ص٢٤١، ط دار الفكر العربى بالقاهرة ١٣٦٧هـ-١٩٤٧م. أى أنه لا كما يصفه الدكتور أبو العلا عفيفى بأنه الثورة الروحية فى الإسلام. (وله كتاب بهذا العنوان).

يقول ابن عربي[1]:

هذا الوجود الصغير سر الوجود الكبير

لولاه ما قال إني أنا العلي القدير

وكان يرى أن الأديان كلها واحدة؛ لأن العالم واحد هو الله.. وفي هذا المعنى يقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان[2]

ومن أشد أقواله غلواً، زعمه أن أهل النار يتنعمون في النار، كما يتنعم أهل الجنة في الجنة[3] وهو بذلك يكذب بما ورد بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

كذلك أخذ التصوف الفلسفي في مرحلته الأخيرة طريقًا باعد بينه وبين عقيدة أهل السنة.. وأخذ المريدون والشيوخ يتناسون التعاليم الأساسية للتصوف.. وتكتلوا في جماعات، وبذلك نشأت طرق الدراويش المعروفة.. وبعض هذه الطرق ينطوي على تعاليم خارجة عن الإسلام، وبخاصة دراويش فارس وتركيا قد خرج معظمهم عن الإسلام ورفعوا التكاليف الشرعية[4].

وكان الدراويش يسعون في الغيبة عن الشعور بواسطة أو بغير واسطة، ومن

(١) نفسه ص٧٩.

(٢) نفسه ص٣٤٢، ٣٤٣.

(٣) فصوص الحكم نقلاً عن د. عبد الفتاح فؤاد (ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفي) ص٢٥٢.

(٤) نفسه ص٣٥٥.

الوسائط التصفيق والصياح والرقص مع الذكر والإنشاد. . ويستعمل بعضهم النقر على الدفوف. . ولبعضهم أعياد خاصة يأكلون فيها الأفاعي والعقارب الحية، ويبتلعون قطع الزجاج، وينخزون أجسامهم بقضبان الحديد المحماة، ويضعون الشروك تحت أجسادهم. . [1].

ويستخدم بعض الطرق الحشيش والأفيون للوصول إلى الغيبة عن الشعور. . هذا، وقد خرج بعض أتباعهم على تعاليم الإسلام فأصبحوا سُبَّة في جبين العالم الإسلامي [2].

الإشراق والفيض عند ابن عربي وأتباعه:

سار أتباع ابن عربي وراءه مغمضي العينين، وبسبب الغلو في شخصه أطلقوا عليه اسم (الشيخ الأكبر). . مستغرقين في قراءة كتابيه (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية)، ويعظمونه ويرفعون من شأنه بما لا يستحقه، وربما استندوا في ذلك أيضًا إلى واقعة مقابلته لابن رشد الفيلسوف، وكان صديقًا لأبيه.

قال ابن عربي: «دخلت عليه، قام من مكانه إليّ محبة وإعظامًا فعانقني وقال لي: نعم! قلت له: نعم، فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم استشعرت بما أفرحه فقلت: لا، فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده، وقال لي: كيف وجدت الأمر في الكشف والفيض الإلهي؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت: نعم ولا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها! فاصفر لونه» [3].

وهذه القصة إنْ صحّت لا تخرج عن دهشة ابن رشد من أقوال ابن عربي وهو في السن الصغيرة؛ إذ وصف نفسه حينذاك بقوله: (لم يبت لي شارب أو لحية». . وذلك كما يندهش أي امرئ من بعض أقوال أحد أحفاده التي تميّزه عن أقرانه، وليس معناه أنه يفضله على نفسه»!

---

(١) نفسه ص٣٥٥.

(٢) نفسه ص٣٥٦.

(٣) د. يوسف زيدان (في مقام الشيخ الأكبر) ص٣٢، مجلة (الهلال)، أغسطس سنة ٢٠٠٣م.

أما أتباع ابن عربي مع هذه الواقعة فلهم شأن آخر ناجم عن الغلو والشطط؛ إذ يضفون عليها هالة من رفع مكانة ابن عربي وتفضيله على ابن رشد، وهم بهذا التفسير والتعليل يعكسون انطباعهم النفسي الذي يؤيد طريقة ابن عربي فيما زعمه بغير دليل على تجلي الحقائق بالكشف الصوفي، وإدراكها بنوع من الإشراق والفيض، وتابعوه في تأويلاته.

بل بلغ بهم الأمر في التجرؤ على الله تعالى بتأويل آيات القرآن تأويلاً يخرج عن مدلولاتها الصحيحة، والأمثلة كثيرة نذكر منها أنهم يعظمون فرعون، ويدعون أنه مات مؤمنًا وأن تغريقه كان بمنزلة غسل الكافر إذا أسلم، ويقولون: ليس في القرآن ما يدل على كفره، ويحتجون على إيمانه بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

بينما تمام القصة تبين ضلالهم فإنه قال سبحانه: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وهذا استفهام إنكار «ذم» ولو كان إيمانه صحيحًا مقبولاً لما قيل ذلك.

ثم إنه -سبحانه وتعالى- قال بعد قوله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢]، فجعله الله تعالى عبرة لمن يكون بعده من الأمم لينظروا عاقبة كفرهم بالله تعالى؛ ولهذا ذكر الله تعالى الاعتبار بقصة فرعون وقومه في غير موضع[1].

وما دام اتجاه الصوفية المتفلسفة وغيرهم لا يقرون بأحاديث الرسول ﷺ كمصدر للمعرفة -أي دليل السمع أو النقل- وتفضيلهم طريقة ابن عربي دون دليل العقل كما عند ابن رشد كنموذج.. أصبح طريق المعرفة الوحيد عندهم هو التجلّي والكشف، وعندئذ يصبح المجال مفتوحًا لكل جاهل أو مضطرب العقل للتجرؤ بالقول على الله وشريعته بغير دليل، كما تبين من تأويل الآيات الآنفة.

ولا يشك أحد في أن قيام هؤلاء بنشر بدعهم وترويجها بين المسلمين بزعم الإشراق قد أسهم إسهامًا فعالاً في هدم حضارة الإسلام!

(١) ابن تيمية (جامع الرسائل) جـ١، ص٢٠٧، ٢٠٨، تحقيق: د. محمد رشاد سالم ط١، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م، مطبعة المدني بالقاهرة.

بدع الصوفية في الاعتقاد والسلوك:

وقد توسع مشايخ الطرق فى خداع العامة ونسبوا للإسلام ما ليس منه، وأتوا ببدع من العمل ومنكر من القول وزور.

وفى مصر كمثال تصدى لهم علماء أهل السنة أمثال مصطفى لطفى المنفلوطى وكان من خريجى الأزهر، فأخذ يكشف زيفهم ويظهر ألاعيبهم، ويبين أن ظاهرهم خداع ونفاق، وباطنهم جهل وشره، وأن أدواتهم من لحية ومسبحة ومرقعة ولعاب يسيل وانتساب إلى ولىّ، إنما هى أحابيل يصنعونها فى سبيل من يريدون إضلاله وشَرَك ينصبونه لمن يبتغون استغلاله[1]. والمنفلوطى محق تمامًا فى فضح أباطيل الصوفية وحيلهم الخادعة الممتدة منذ قرون، فقد أورد الجبرتى فى تاريخه نموذجًا مطابقًا له ظل باقيًا فى مصر، قال: [فى عشرينه- أى ربيع الثانى ١٢١٤هـ= ٢سبتمبر ١٧٩٩م- نودى لعمل مولد السيد على البكرى المدفون بجامع الشرابى بالأزبكية بالقرب من الرويعى، وأمروا الناس بوقود قناديل بالأزقة فى تلك الجهات، وأذنوا لهم بالذهاب والمجىء ليلاً ونهاراً، ولا حرج عليهم فى ذلك. والسيد على البكرى كان رجلاً من البُلْه، وكان يمشى فى الأسواق عريانًا مكشوف الرأس والسوأتين غالبًا، وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به (أى لا يتفق معه)، واستمر على ذلك مدة سنتين، ثم بدا لأخيه أمر فيه؛ لما رأى ميل الناس لأخيه ومحبتهم له، واعتقادهم فيه، كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله، فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثيابًا، وأظهر للناس أنه أذن له بذلك، وأنه تولّى القبطانية، ونحو ذلك، فأقبلت النساء والرجال على زيارته والتبرك به وسماع ألفاظه. وأخذ أخوه المذكور يُرغبهم فى ذلك ويحكى لهم عن كراماته، وأنه يطلع على المغيبات وينطق بما فى النفوس، ويعلم خطرات القلوب فانهمكوا على التردد عليه وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور . . . ولما مات دفنه أخوه فى هذا المسجد، وعمل فيه مقصوراً ومقاماً وواظب عنده بالمقرئين وأرباب الأشاير والمنشدين والمدّاح بذكر كراماته ومكاشفاته، ويتواجدون

---

(١) عباس بيومى عجلان (المنفلوطى وأثره فى الأدب الحديث فكراً وأسلوبًا) ص٨٦ ط، دار لوران للطباعة والنشر - الإسكندرية سنة ١٩٧٧م، ومصدره المنفلوطى فى (النظرات). . .

ويتعارضون ويمرغون وجوههم على شبابيكه وأعتابه! هذا، ولم يفت الجبرتى ذلك بأنه خروج عن الشرائع واتباع الشهوات واجتماع الفساد والتلاهى وفعل المحرّمات. الجبرتى (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) ص١٢٨ تحقيق أحمد عبده على، ط مكتبة الآداب بمصر ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

وكان يعلن على الملأ أن من أراد أن يقف على حقيقة القوم فيه فليرجع إلى السلف الصالح، يستقرئ ما عملوا ويعرف ما كانوا حتى يتبيّن أى الفريقين خيراً مقامًا وأكثر رشداً، ويقول المنفلوطى: (هل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصصّون قبرًا، أو يتوسلون بضريح، وهل تعلمون أن واحداً وقف عند قبر أحد من أصحابه وأهل بيته يسأله قضاء حاجة أو تفريج همّ؟.. وهل تعلمون أن الرفاعى والدسوقى والجيلانى والبدوى أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين؟

وكان حريصًا على دعوة الشباب فى عصره الذين تعرضوا لحملات الغزو الثقافى، فخدعهم وحضهم على الانصراف عن الدين لأنه لا يناسب الحياة المعاصرة، كما يزعمون جهلاً[1].

وقد تصدّى المنفلوطى لهذه الفرية، موضحًا أن الدين الإسلامى ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك الإنسان يعيش فى ميدان هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحده إلا مدّ يده إليه وأنار له مواقع أقدامه وأرشده إلى سواء السبيل.

وكان يضيق ذرعًا بثلة من العلماء، ويحار فيهم لعلهم يفيقون ويعودون إلى رشدهم (يا قادة الأمة ورؤساءها، عذرنا العامة فى إشراكها وفساد عقائدها فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله تعالى).. ويذكر أيضًا أنه حرى بهم وقد تصدوا للإفتاء والهداية أن يعرفوا سنن من تقدم وشرائع من سبقهم من السلف الصالح،

(١) نفسه ص٧٥ ومصدره (النظرات) جـ١، ص١٥٨.

والتابعين بإحسان، ولو اطلعوا على تاريخهم لأدركوا أن دينهم غير الدين، وعقيدتهم تباين العقيدة، ونحلهم تتنافى مع نحل السلف وطريقة التابعين[1].

وفي موضع آخر يقارن بين أحوال السلف وواقع المجتمع الإسلامي المعاصر فيقول: «ولذلك فنحن نعيش في جاهلية ربما كانت أشد ضراوة من الجاهلية الأولى، إننا نعيش في جاهلية أطم وأفسد من الجاهلية الأولى»[2].

ويؤكد المنفلوطي أن المسلمين لن يسترجعوا سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة إلا إذا استعادوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد.. وهو يضيق ذرعاً بثلة من العلماء، ويحار فيهم، لعلهم يفيقون من الضلال ويعودون إلى رشدهم: «يا قادة الأمة ورؤساءها، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها، فما عذركم أنتم، وأنتم تتلون كتاب الله: تقرءون صفاته، ونعوته»[3]؟

ولا ريب أن نقد المنفلوطي لعلماء المسلمين ولا سيما مشايخ الطرق امتداد لرأي الشيخ محمد عبده، فلقد كتب الإمام مراراً عن تلك الأباطيل، وحاربها في (الوقائع) سنة ١٨١٠م، وكتب عن (بطلان الدوسة) وعن إبطال البدع، وتابعه النديم في مجلة الأستاذ عدد أبريل سنة ١٨٩٣م، وكذلك هاجمهم الكواكبي وقال: «إن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين»[4].

تعاون بعض الصوفية مع الاستعمار:

وكان بعض الصوفية في العالم العربي والإسلامي أعوانًا للاستعمار على مواطنيهم، ونذكر مثالاً على ذلك ما لاقاه الإمام عبد الحميد بن باديس بالجزائر من الجماعات الصوفية، وكانوا يعوقون جهوده في سبيل تحرير بلاده من الاستعمار

(١) نفسه ص٨٦، ومصدره (النظرات) جـ٢، ص٦٢.

(٢) نفسه ص٧٥، ومصدره (النظرات) جـ٣، ١٢٨.

(٣) نفسه ص٨٥، ٨٦.

(٤) نفسه ص٨٧.

الاستيطاني الفرنسي، وقد كان هو الزعيم الحقيقي لثورة الجزائر. لقد سعت تلك الطرق جاهدة لإيقاف المد الإصلاحي الذي قاده الإمام، وعندما أخفقوا في ذلك ناصبوا جمعية العلماء التي رأسها ابن باديس العداء، واستعانوا عليها بالظلمة، ورموها بالعظائم.. ذلك لأنهم وجدوا كثيراً من الآفات الاجتماعية التي تحاربها الجمعية، هم مصدرها وهي مصدر عيشهم، ووجدوا قسمًا منها مما تُغضب محاربته سادتهم ومواليهم[1].

لم يكن الموقف الحازم الذي وقفته الجمعية تجاه انحرافات الطرقيين وليد نشأتها، بل كان امتداداً للنهج الذي سار عليه ابن باديس والمصلحون من قبل.

ولقد علمت الجمعية بعد التروي والتثبت، ودراسة أحوال الأمة ومناشئ أمراضها «أن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرّق المسلمين.. وأنها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا».

ويوضّح لنا الشيخ الإبراهيمي الدوافع وراء محاربة ضلالات الطرقيين، فيقول: «ونعلم أننا حين نقاومها، نقاوم كل شرّ، وأننا حين نقضي عليها -إن شاء الله- نقضي على كل باطل ومنكر وضلال»[2].

ويُروى أن إحدى الجماعات الصوفية المنحرفة التي ضاقت ذرعًا بمواقف ابن باديس، أوعزت بتنسيق مع سلطات الاحتلال إلى نفر من أتباعها باغتيال الشيخ عبد الحميد، ظنًا منهم أن في اغتياله قضاء على دعوته، غير أن الغادر الذي همَّ بهذه

(١) مصطفى محمد حميداتو (عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية) ص٩٩، كتاب (الأمة) قطر- المحرم سنة ١٤١٨هـ، يونيو سنة ١٩٩٧م.

(٢) نفسه ص١٠٠.

هذا، وفي دراسة للأستاذ مصطفى شفيق علام للفرق الصوفية في مصر، اتضح له أنهم في الانتخابات البرلمانية لمجلس الشعب والشورى عام ٢٠١١م انحازوا إلى تحالف الكتلة المصرية- الذي يتزعمه حزب (المصريين الأحرار) ويضم في تشكيله حزب التجمع اليساري!!!

مقال بعنوان: «تسييس التصوف في مصر الثورة» ص٤٦. مجلة (البيان) العدد ٢٩٧ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ-أبريل ٢٠١٢م.

الجريمة لم يفلح فى تنفيذها، ووقع فى قبضة أعوان الشيخ، وكانوا قادرين على الفتك به، متمثلاً قول النبى ﷺ: «رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»[1].

أما الطامة الكبرى الناجمة عن عقائد وسلوكيات الصوفية المنحرفة فهى دورها البارز فى ضياع الخلافة العثمانية. أجل هناك عوامل أخرى داخلية كانت سببًا فى انهيار تلك الدولة، ولكن أولئك الصوفية قاموا بالدور الأكبر فى سقوطها، سواء بقصد أو بغير قصد؛ لأن طابع عقائدهم وسلوكياتهم المنحرفة تؤدى حتمًا إلى ضياع أى مجتمع أو دولة وحضارة.

ويذكر الدكتور على الصّلابى أن أعظم انحراف وقع فى تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة فى المجتمع الإسلامى، تحمل عقائد وأفكارًا وعبادات بعيدة عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وقد قوى عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها فى أواخر العصر العثمانى[2].

وبالمقارنة بالصوفية التى انتشرت فى المجتمع العباسى، يتضح أنها كانت ركنًا منعزلاً عن المجتمع، أما فى الدولة العثمانية، وفى تركيا بالذات، فقد صارت هى المجتمع وصارت هى الدين، وانتشرت فى القرنين الأخيرين بصفة خاصة تلك المقولة العجيبة: «من لا شيخ له فشيخه الشيطان»، وأصبحت بالنسبة للعامة بصورة عامة هى مدخلهم إلى الدين وهى مجال ممارستها للدين.

لقد كان ذلك العصر عصر الصوفية، التى أطبقت على العالم الإسلامى من أدناه إلى أقصاه، ولم تبق مدينة ولا قرية إلا دخلتها إلا إذا استثنينا نجد وملحقاتها..

ولقد حفلت الصوفية ببحر زاخر من العقائد المنحرفة والضالة، ولعل آخر العقائد

---

(1) نفسه ص ١٢٦/ ١٢٧.

ويُنظر كتاب د. محمود قاسم بعنوان (الإمام عبد الحميد بن باديس، الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية)، ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م.

(2) د. على محمد الصلابى (الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط) ص ٥٥٠-٥٥٢، دار المعرفة - بيروت ط٥، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

من آمن بها كثير من المتصوفة المنحرفين، كعقيدة وحدة الوجود والحلول، لقد احتضن المتصوفة المنحرفون هذه العقائد وعملوا على نشرها، وألفوا مؤلفات من أجلها واعتبروها الحقيقة التى كشفت لهم سرها وستر عن الآخرين، وكان تدريس كتابى (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) لـ (ابن عربى) وغيرهما من كتب المتصوفة التى تطفح بعقيدتى وحدة الوجود والحلول، وهو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم، وهو المنزلة العلمية التى لا يتبوأها إلا الخاصة منهم والمستوى العلمى الذى لا يرقى إليه إلا فحول العلماء[1].

مسئولية الصوفية عن السلبية والتخلف

يقول على بيجوفيتش، الرئيس الأسبق للبوسنة والهرسك: «لقد انشطرت وحدة الإسلام على يد أناس قصروا الإسلام على جانبه الدينى المجرد، فأهدروا وحدته وهى خاصيته التى ينفرد بها عن سائر الأديان. لقد اختزلوا الإسلام إلى دين مجرد أو إلى صوفية، (فتدهورت أحوال المسلمين)؛ ذلك لأن المسلمين عندما يضعف نشاطهم وعندما يهملون دورهم فى هذا العالم، ويتوقفون عن التفاعل معه، تصبح الدولة الإسلامية كأى دولة أخرى، ويصبح تأثير الجانب الدينى فى الإسلام كتأثير أى دين آخر، وتصبح الدولة قوة عريانة لا تخدم إلا نفسها. فى حين يبدأ الدين (الخامل) يجرّ المجتمع نحو السلبية والتخلف، ويشكل الملوك والأمراء والعلماء الملحدون، ورجال الكهنوت وفرق الدراويش والصوفية، والشعراء السكارى.. يشكلون جميعاً الوجه الخارجى للانشطار الداخلى (الذى أصاب الإسلام). وهنا نعود إلى المعادلة المسيحية: «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (كما ورد فى إنجيل متَّى). إن الفلسفة الصوفية والمذاهب الباطنية تمثل -على وجه اليقين- نمطًا من أكثر الأنماط انحرافًا؛ ولذلك يمكن

(١) ويُنظر أيضًا كتاب (لماذا سقطت الخلافة العثمانية، قراءة فى عوامل ضعف الأمة) للدكتور غازى التوبة. المكتب الإسلامى-بيروت، عمان ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م ص٥٥٦.
وقد خلص إلى إثبات أن انتشار التصوف هو أحد العوامل الداخلية التى أدت إلى سقوط الخلافة العثمانية.

أن نطلق عليها «نصرنة» الإسلام، إنها انتكاس بالإسلام من رسالة محمد ﷺ إلى عيسى -عليه السلام-[1].

ومَردّ هذا النقد يرجع إلى تمييز الرئيس بيجوفيتش بين تعريفه (للدين المجرّد) و(الإسلام)..

فالدين المجرد هو إجابة عن سؤال: كيف تحيا فى ذاتك وتواجه هذه الذات؟ وليس إجابة عن سؤال: كيف تعيش فى العالم مع الآخرين؟ أما الإسلام فهو طريقة تنظيم هذا العالم.. إنه منهج حياة كامل[2].

وفى تعريف آخر يقول: (إنه معبد، وعلى قمة جبل.. ملاذ) على الإنسان أن يرتقى إليه تاركًا خلفه خواء عالم لا سبيل إلى إصلاحه.. عالم يهيمن عليه الشيطان وحده. هذا هو الدين المجرد[3].

وفى (البيان الإسلامى) الذى يتضمن نهج على بيجوفيتش فى إقامة الدولة الإسلامية الموحدة، يخاطب المسلمين قاطبة قائلاً: «قد يبدو الهدف الذى نصبو إليه بعيد المنال لكنه واقعى وحقيقة؛ لأنه بحد ذاته يقع ضمن البعد الممكن التحقيق، على النقيض من الأفكار المماثلة غير الإسلامية التى هى طوباوية وخيالية، ورغم ذلك فإنه يجرى العمل لتحقيقها»[4].

ويستند فى تأكيد صحة ما ذهب إليه من خلال اعتماده على القرآن الكريم الذى هو -إضافة إلى كتاب دينى- هو منهج لمجالات الحياة المختلفة التى يقتضى أن يترجمها

---

(١) على عزت بيجوفيتش رئيس البوسنة والهرسك (الإسلام بين الشرق والغرب) ص٢٨٧، ٢٨٨، ترجمة: محمد يوسف عدس.
الناشران: مجلة النور الكويتية: مؤسسة بافاريا للنشر -ألمانيا رجب ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(٢) نفسه ص٢٧٥ و٢٩٣.

(٣) نفسه ص٢٧٥.

(٤) د. محمد حرب (البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة) ص٨٨، المركز المصرى للدراسات العثمانية بالقاهرة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

المسلمون إلى حيز الواقع؛ لأن المسلم يعتبر فقيراً روحيًا دون التربية الإسلامية التي جاء بها القرآن الذي هو أساس الحضارة التي لا يمكن أن تزول.

ويوعز التأخر الحالي لبعض الدول الإسلامية التي كانت ذات شأن في السابق إلى ابتعادها عن الإسلام.. ومثال ذلك: تركيا (أيام أتاتورك) الساعية لمجاراة الغرب على حساب التراث الإسلامي، ويقول: «إن الذي جلبه أتاتورك لتركيا كان غريبًا عن التراث والحضارة التي وفرت ما شهده الأتراك من قوة وعظمة لقرون عديدة»[1].

هذا، ويتضح لنا عندما نُلقي نظرة فاحصة على هذا البيان -الذي يقع في نحو خمس عشرة صفحة- يتضح أن نكبة بلده أمام حرب الإبادة لشعبه لم تشغله عن هموم أمته الإسلامية برمتها، ووصف بيانه بأنه ينبغي أن يكون مصدراً للإلهام وخطة للعمل، وبدأ بمقدمة تتناول الضرورة الحتمية لوحدة المسلمين كي يتميزوا عن غيرهم ويضمنوا انتصارهم في وجه التحديات،، وحدد خطته وفق العبارات التالية:

- منهج واحد للإيمان الإسلامي والشعب المسلم.
- هدفنا عودة المسلمين إلى إسلامهم.
- شعارنا: الإيمان والجهاد.

وبالنسبة للمسلمين المؤمنين، فإنه سيكون مرشداً لتعميق فهمهم للإسلام وإيمانهم به[2].

●●●

(١) نفسه.

(٢) نفسه ص٨٦/ ٨٧ وكانت المحكمة العليا في بلغراد قد حكمت عليه بالسجن بسبب هذا البيان في ١٤/ ٣/ ١٩٨٤ لمدة ٩ سنوات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة على نبينا محمد وآله وصحبه . .

«الغُربة» فى اصطلاح الدكتور جلال أمين

دأب الباحثون فى عرضهم لقضايا التغريب إيجاد الصلة بينه وبين الغزو الثقافى الذى صاحب الغزو القسرى المسلح للبلاد العربية والإسلامية .

وربّما كان العالم العراقى محمد الصواف من أوائل من عالج هذا الغزو بكتابه الشهير (المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام)، وحصر تلك المخططات فى البدء بهدم الخلافة الإسلامية، وإثارة النعرات القومية، وإحياء الحضارة القديمة لطمس حضارة الإسلام، وإلغاء المحاكم الشرعية وفرض القوانين المستوردة بدلاً من الشريعة الإسلامية. فضلاً عن تشويه حقائق الإسلام والطعن بالرسول ﷺ، وتشويه سيرته وإثارة النعرات الطائفية، وغيرها[1] .

ومن الأساليب الذى ذكرها الشيخ الصواف حرص الاستعمار على تعليم النساء التعليم المنحرف، وكان الغرض العمل على إفسادهن، وهو المؤدى إلى إسفار المرأة سفوراً خليعًا، واختلاطها اختلاطًا بشعًا، وتبرّجها التبرّج الجاهلى الأوربى الحديث[2] .

ولكن الأستاذ أنور الجندى عنى بالتحذير من التعليم الذى وضع خطته الاستعمار بوجه عام، ووصفه بأنه الخنجر الذى غُرس فى جسم الأمة الإسلامية، مكونًا للأجيال التى أرادها الإسلام، وقد حدده جلادستون عندما وقف فى مجلس العموم البريطانى، ومعه المصحف الشريف، وقال: إننا لا نستطيع أن نحكم المسلمين ما دام هذا الكتاب باقيًا فى الأرض، ثم جاء كرومر وقال: جئت لأمحو ثلاثًا: القرآن والكعبة والأزهر[3] .

أما مصطلح (الغُربة) عند الدكتور جلال أمين فله معنى خاص، فهو لا يعنى هنا

---

(١) محمد محمود الصواف (المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام) ص١٦٩، وما بعدها، ط دار الثقافة للطباعة -مكة المكرمة ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.

(٢) نفسه ص ٢٩٩ .

(٣) الجندى (الخنجر المسموم الذى طعن به المسلمون) ص ٢٨، ٢٩- دار الاعتصام- ١٩٧٦ .

الشعور الذى يكتنف المرء عندما يكون فى بلد غريب لا يعرف فيه أحدا، ولكنه يعنى الإحساس بالغربة وهو باقٍ فى وطنه لا يتركه . . .

ثم يعلل بدء الشعور بالغُربة أو الاغتراب التى طرأت على حياة المصريين السياسية والاجتماعية والثقافية إلى بداية عهد الثورة فى ١٩٥٢ . . وإن كان الاغتراب طوال تلك السنين قد اختلف سببه وتفاوتت حدته، واختلفت أيضًا الشرائح الاجتماعية الأكثر معاناة بين مرحلة وأخرى منذ ذلك الوقت[١]، وبخاصة اعتبار أن ما حدث ليس مرحلة جديدة من مراحل تاريخ المصرى الحديث، بل على أنه انقطاع شبه تام عما سبق وبداية لتاريخ جديد، ويرى أن شخصية السادات كانت تلائم تمامًا الاتجاه المفاجئ نحو «تغريب مصر»، كان منذ نعومة أظفاره شخصًا مفتونًا بالسلع الاستهلاكية الغربية، وبالسينما الأمريكية، وبكل ما يبدعه الغرب من تكنولوجيا حديثة[٢] .

هذا، وقد اشتدت حركة الاقتباس من الغرب فى عهده، وأسهم فى تقوية الشعور بالاغتراب الناتج عن دخول أنماط غير مألوفة من الاستهلاك والعلاقات الاجتماعية؛ بسبب الانفتاح وفيما أصبح يذيعه التلفزيون من برامج وإعلانات لم تكن مألوفة فى الستينيات[٣] .

ولم تنجح حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فى انتشال المصريين من حالة الإحباط إلا لفترة قصيرة للغاية؛ إذ سرعان ما يتبين العجز من استثمار الإنجاز العسكرى فى تحقيق مكاسب سياسية، وسرعان ما أعقب هذا الإنجاز تنازلات متواصلة لصالح إسرائيل والولايات المتحدة على حساب مصالح مصر والفلسطينيين[٤] .

ويعلل الاغتراب الذى عم الجميع بوقوع هزيمة سنة ١٩٦٧، فلم يعد مقصوراً على شريحة من المثقفين، بل شمل الشعب المصرى كله: المثقفين وغير المثقفين، الأجيال الكبيرة والشابة، الرجال والنساء، المسيَّسين وغير المسيسين، وصحا المصريون كلهم فجأة على أسئلة ملحة على أذهانهم: كيف كان (بناء الجيش)؟ وأين الصاروخان المسميان (القاهر) و(الظافر)؟ وما معنى (تحرير فلسطين)؟

(١) د. جلال أمين (مصر والمصريون فى عهد مبارك) ص ٢٠١، ط دار الشروق سنة ٢٠١١ .

(٢) نفسه ص ٢١١ .

(٣) نفسه ص ٢١٢ .

(٤) نفسه ص ٢٦٥ .

ثم ظهرت شعارات جديدة تتكرر على الأسماع بشكل شديد الوطأة.. هذه الشعارات زادت من الشعور بالاغتراب[1].

ويعلل الدكتور جلال أمين فشل نظام السادات الذريع فى القضاء على اغتراب المصريين، هو فى الأساس التناقض الواضح بين الإنجاز العسكرى الذى تم فى أكتوبر سنة ١٩٧٣م والاستسلام السياسى الذى حدث بعده مباشرة[2].

وتشارك الكاتبة الصحفية عايدة الشريف الدكتور جلال الشعور بالصدمة بسبب هزيمة ٦٧ فتقول تحت عنوان: «أطول يوم فى التاريخ»: كنت أردِّد التعبير الذى أسمعه عن أطول يوم فى التاريخ، ولكن لم أدرك معناه. وقد فهمت كنهه وأبعاده يوم معاناتى النفسية.. وكان يوم الخامس من يونيو من عام ١٩٦٧.

ووصفت حالة الانهيار للزملاء من حولها.. قال أحدهم: انتهى سلاح الطيران المصرى.. وتوقفت الحرب قبل أن تبدأ! وتساءل آخر: ألا تلاحظ أننا لم نسمع فى البيانات العسكرية المتتالية شيئًا دقيقًا على أعمال سلاح الطيران المصرى؟ أين سلاح الطيران المصرى؟!

وحاول إدخال الطمأنينة إلى النفوس فقال: إن سلاح الطيران المصرى موجود فى يوغوسلافيا.. وسيظهر فى الوقت المناسب!

ومن تعليقات عايدة الشريف على كل ما حدث بقولها: «وكنت غاية فى الانفعال الهستيرى حتى تصورت العائلة أننى جننت، أو أن فى بيتهم جاسوسة، وذلك لعدم إدراكهم للواقع الأليم الذى حل بالوطن العزيز مصر».. ووصفت حالتها وهى واقفة فى شرفة الدور التاسع بأن رأسها كاد ينفجر.. وكادت ترمى نفسها من علٍ.

ثم استطردت تصور الأيام الثقال إذ كأن مصر صارت جثة هامدة، وأحست بكابوس ثقيل يجثم على صدرها.. وتصورت أنه لن تقام أية أفراح فى بيوت مصر، وأن عملية الزواج والإنجاب قد انتهت.

وزاد إحساسها بشعور الأسى التى لم تعد تعرف أحدًا تتكلم معه أو تستمع منه،

(١) نفسه ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) نفسه ص ٢٠٩.

فقد كان الدكتور محمد مندور، قد غاب عنها وقبع في منزله سجين جدرانه وفاجعته[1]!

فضلاً عن قيامه بقطع صلاته بكل أصدقائه، ورغم صداقته الوطيدة والبعيدة بالمؤلفة، فقد رفض قراءة كتابها الأخير (الإنسان الطائر) بدعوى أنها وقعت في براثن الميتافيزيقا والغيبيات[2]!

أما الأستاذ فهمي هويدي فقد عبر عن أثر هزيمة يونيو سنة ٦٧ بقوله: «يظل شهر يونيو (حزيران) بالنسبة لي هو شهر الاكتئاب العظيم، الذي ينتابني فيه شعور دائم بالحزن والانكسار. وأحسب أنني لست حالة فريدة في ذلك، فالعرب الذين يعيشون همّ أمتهم، والذين ذاقوا مرارة ومهانة الهزيمة في عام ١٩٦٧، يتملكهم الشعور ذاته على الأقل، فذلك هو انطباعي عمن أعرفهم منهم»[3].

ثم يذكرنا بمقال للدكتور إدوارد سعيد تحدث فيه بدوره عن الهزيمة، مبدياً دهشته بسبب أن الأوضاع العربية التي أدت إلى الهزيمة ما زالت باقية كما هي برغم الهزات الكبرى المتتالية، سواء ما تعلق منها بحرب ١٩٧٣، أو الحرب الأهلية اللبنانية، أو غزو إسرائيل للبنان، أو الثورة الإيرانية، مروراً بانهيار الاتحاد السوفيتي وعقد اتفاقيات السلام الملوث بالمنطقة.

وعلّق في النهاية بقوله: «لا نريد أن نصل إلى درجة اليأس من التغيير، وأحسب أن هناك من يريد أن يوصلنا إلى تلك النقطة، غير أننا ونحن نتشوق إلى واقع ومستقبل أفضل، لا بد أن نتذكر دائماً ذلك القانون الإلهي الذي يقرر أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» [4].

---

(١) عايدة الشريف (شاهدة ربع قرن) ص١٣٥، ١٣٦. وكانت تصف الدكتور محمد مندور بأنه المعلم الأب ص٥٩، وقد عرضت لمادة عنوان (أطول يوم في التاريخ) باختصار شديد؛ إذ استغرق في الكتاب نحو عشر صفحات. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة سنة ٢٠١٣.

(٢) نفسه ص١٤٠.

(٣) فهمي هويدي (المقالات المحظورة) ص٢٩٢، ط ، دار الشروق ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

(٤) نفسه ص٢٩٧، ٢٩٨.

وقريبًا من هذا الرأى قال به د. حسان حتحوت؛ إذ كانت الهزيمة خطبًا جليلاً وأقوى من القدرة على الاحتمال:

وصف أولاً الهزيمة بقوله (وربما كانت هزيمة ١٩٦٧ ذات أثر كبير فى فرار الأمة إلى ربّها بعد أن اتبعت السبل فتفرّقت بها، وبعد أن أفاقت على الواقع الأليم، فبعد أن كانت تتصور أنها أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط، تصنع الإبرة والصاروخ، وتسيطر على البر والبحر والجو، وتتنمر لإسرائيل، وتستأسد فى وجه أمريكا. . . رأت الأمة أن تلك القوة الضاربة أصبحت مضروبة خلال ساعات ومهزومة خلال أيام (ص١٣٣). . واستطرد بعد ذلك قائلاً: وأصابت الأمة صدمة أنكى من الصدمة الكهربائية، وبين تلاطم اليأس واللوعة والغضب، راحت الأمة بضميرها تبحث عن مخرج مأمول وطريق مفتوح، فلم تجد إلا الطريق إلى الله تعالى (ص١٣٥) كتابه (رسالة إلى العقل العربى المسلم) ط دار المعارف بمصر ١٩٩٨م.

●●●

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة على نبينا محمد وآله وصحبه . .

كيف نصون الهوية الثقافية الإسلامية فى عصر «العولمة»؟(*)

شغلت (العولمة) -وهى الطور الأخير للنظام العالمى الجديد المنبثق من حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م- جمهرة الباحثين وعلماء السياسة والاقتصاد والمحللين ورجال الصحافة، وعقدت لها الندوات والمؤتمرات لبحث طبيعتها وأهدافها. والكل مجمعون على وصلها بفلسفة (فوكوياما) بكتابه الشهير (نهاية التاريخ).

وعندما تنازل عن أفكاره بكتابه الجديد «الانفراط العظيم»[1]، تلقف الفكرة كاتب آخر يدعى (فريدمان)، أكثر حماسًا من سلفه، وزاد عليه بطوافه بالعالم للترويج للعولمة، والحث على الالتحاق بقطار صار مخدرًا من أعراض التخلف عن ركب التقدم لمن فاته القطار! ولعل أصدق المواقف إزاء هذه الهجمة الجديدة التى تتعرض لها أمة الإسلام، ألا نغلق المنافذ تمامًا الذات الثقافية والحضارية، بل ينبغى أن تعمل على تحقيق الذات واستثمار الذخائر الإيمانية المستكنة فى الصدور.

ونرى أن أول ما توصى به هو الحرص على ألا يدفعنا الواقع الأليم لأمتنا العربية والإسلامية إلى حافة التشاؤم أو اليأس. فهو واقع مؤقت قياسًا على ما مر بها من نكبات فى حياتها الممتدة طيلة أربعة عشر قرنًا منذ الحروب الصليبية والغزو التتارى والاستعمار الغربى الحديث، وتلعب بواعث الأمل فى مستقبل أفضل بالحث على استثمار عوامل المقاومة والتصدى، وهى ذاتها المتمثلة فى المحافظة على هوية الأمة أيضًا، وقد دأبت عند مقابلة الأخطار -طيلة تاريخها- استخراج مكنون الذخائر الإيمانية من القلوب بواسطة علمائها؛ لتدبر أسباب الهزائم فى ضوء السنن الإلهية

(*) سبق نشره ضمن كتاب (المؤتمر الدولى الرابع للفلسفة الإسلامية) بكلية دار العلوم بالقاهرة ٣/ ٤ مايو سنة ١٩٩٩م. ويطلق عليها أيضًا اسم (الأمركة).

بالكتاب الكريم، ولتسترشد بتعاليم الرسول ﷺ؛ لأن أحد أسباب الهزائم هو مخالفة تعاليمه والتفريط في اتباع سنته، وكان الدرس الأول ما حدث في موقعة أحد، والأخير هزيمة ١٩٦٧م (ثم تحقق بعض النصر بارتفاع هتافات جند مصر في معركة أكتوبر ١٩٧٣م بشعار «الله أكبر»).

إن هذه اللمحة هي نقطة البدء في معرفة العلاقة الثابتة بين الإيمان والنصر في موقعه (بدر) وما تلاها، وأسباب الهزائم في النكوص على الأعقاب. فالإيمان هو الذي حرك الأمة منذ فجر تاريخها ولا زال قادراً -لو أحسن استثماره- على صد الغزوات، بل تحول الأمة لمكان الصدارة من جديد.

يقول الدكتور جمال حمدان مبدياً حيرته لهذا التحول الفريد لنوعه: «لا شك أن مما يدعو إلى الحيرة والتساؤل حقاً أن تستطيع قوى الصحراء الطاردة قاعدة أرضية شبه خاوية، وموارد طبيعية شحيحة وإنتاج اقتصادي متواضع وكثافة سكانية هزيلة -أن تقهر وتخضع قوى البر والبحر التقليدية العنيدة فارس شرقاً وروما غرباً وفي مدى زمني يحسب بالسنين أكثر مما يحسب بالعقود معادلة صعبة»[٢].

وسنمضي في خطوات البحث، فنتعرف أولاً بالعولمة وموقفنا منها -والعراقيل التي تبطئ من سيرها، ثم بيان بعض مقومات المحافظة على الهوية، وأخيراً نعرض بعض التوصيات:

التعريف بالعولمة وموقفنا منها:

تفاوتت الآراء بين التهوين من شأنها أو الغلو في وصف سطوتها، وكأنها وحش كاسر يستحيل مواجهته، وربما كانت الدراسة الموضوعية التي تسعى للتعرف بها وبأهدافها قد أصابت وصفها بأنها (قطبية في العلاقات الدولية، وضد الهويات الثقافية أو الدينية لكل الحضارات الأخرى)[٣]، ولتحقيق هذه الغاية، توظف التقنية الإعلامية -خاصة التلفزيون والإلكترونيات والإعلام السريع؛ لتؤدي الدور الحاسم في تكوين الرأي العام، وتصدير الثقافة الجاهزة التي تغزو العالم كله، مدمرة ثقافاته الخاصة وتنفيذ (العولمة) من أبواب الاقتصاد والثقافة والقيم؛ مما يستدعي ضرورة المقاومة في شتى هذه الأبواب للمحافظة على الهوية

الخاصة للمجتمعات؛ لذلك أصبح الواجب الملقى على كاهل الأمة الإسلامية بجميع فئاتها أخذ الأمور مأخذ الجد.

وعلى أية حال، فإن الضجة الإعلامية المثارة حول العولمة، لا تزحزحنا قيد أنملة عن الاعتزاز بالهوية الإسلامية؛ لأننا نعرف أنها -أى العولمة التى حددها فريدمان بالأمركة- فارغة المضمون كفلسفة عملية، ولا تقوى على الصمود أمام النقد الفلسفى، ويظهر عجزها الشديد عن إقامة حضارة تتوافق مع المتطلبات الإنسانية بشتى نوازعها واحتياجاتها الجسدية والروحية وفق قيم ثابتة، كما لا تملك من الخبرة التاريخية ما تقدمه من حلول للمشكلات الإنسانية المتفاقمة، يقول مؤلف كتاب (اليابان لم تقل لا): ونظراً لأن التاريخ الأمريكى قصير المدى ولا يتعدى قرونًا قليلة، لم يخض الأمريكيون قط تجربة التحول من مرحلة تاريخية رئيسة إلى أخرى[٤].

تجليات العولمة:

وللعولمة تجليات كثيرة[٥]، ولكن أكثرها خطورة هى ممارسة مفهوم (العنف الثقافى) التى تمارسه إحدى القوى الكبرى على سائر الثقافات الأخرى، بالآليات الخارجية والمال والاستثمارات.. وبالتحالف مع البنية الداخلية المسيطرة (باحتواء الطبقات الداخلة المستفيدة مما يخلق نوعًا من التحالف بين الطبقات الحاكمة والطبقات والفئات الأقل منها مثل رجال الأعمال والمثقفين والعديد من الكوادر من التكنوقراط»[٦].

ويتضح مفهوم (العنف الثقافى) بتعريفه بأنه (فعل اغتصاب ثقافى وعدوان رمزى على سائر الثقافات).

والعولمة وفق هذا الدور المخرّب ليست جديدة أو طارئة على الدول النامية، بل هى التتويج التاريخى لتجربة مديدة من السيطرة بدأت منذ انطلاق عمليات الغزو الاستعمارى منذ قرون، وحققت نجاحات كبيرة فى إلحاق التصفية والمسخ بثقافات نوعية عديدة وبخاصة فى إفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية[٧].

وفى ضوء ذلك كله فإن عالم المستقبل سيصبح فى ظل العولمة لو نجحت فى مسارها

محكومًا، لا من الأطر الوطنية، بل من خلال المؤسسات الدولية، بل إن القادة والسياسيين- في رأي د. بطرس غالي- لم يعودوا يمتلكون الكثير من مجالات السيادة الفعلية التي تمكنهم من اتخاذ القرار(٨).

ويخشى تحول (العولمة) إلى ما هو أكثر تدميراً للمجتمعات بتحولها إلى (عولمات) عديدة (أي في مجال المعلومات والمخدرات والأوبئة والبيئة... ثم تأخذ في التعاظم في المجالات المختلفة بسرعة متباينة، بما في ذلك عولمة الجريمة أي الجرائم العابرة للحدود)(٩).

العولمة وأبواق الحرب النفسية:

ونوصي بالاحتراس من الاستجابة للحرب النفسية التي تصور العولمة وكأنها (ديانة جديدة) كما يريدها (توماس فريدمان)، الذي يخير العالم -كما بينّا آنفًا- بين الإحساس بالانتماء، وبين السعي نحو التقدم في ظل العولمة (فالانخراط في مسارات العولمة والسوق العالمية، بأي ثمن هو الطريق الوحيد للتقدم والازدهار، بينما الاحتفاظ بالهوية -أو الانتماء للجذور الوطنية والدينية - هو طريق التخلف والاندثار)(١٠).

ويحاول فريدمان توظيف فكرته السياسية في أرض الواقع، فيصور إسرائيل (الملتحقة بالعولمة المنطلقة القوية رغم صغر حجمها -أن تتغلب وتنتصر انتصاراً نهائيًا في ظل التسوية على العرب جميعًا، وتحديداً على مصر «شجرة الزيتون» المترددة حيال مخاطر العولمة)(١١).

وتبدو هذه المحاولة كإحدى وسائل الحرب النفسية التي يراد بها تسليم الخصم قبل النزال بتحطيم روحه المعنوية وبث اليأس في نفسه.

وقد اعتمدت حملتها الإعلامية بإشاعة فكرتها على عاملين:

أحدهما: (تجنيد مفكرين وكتاب في مختلف البلاد ينظّرون ويروّجون لأفكار العولمة والكونية، ويؤكدون أن الشعور بالولاء لأمة أو وطن أصبح من مخلفات الماضي)(١٢).

الثاني: هشاشة التكوين الديني والثقافي الإسلامي لدى بعض المثقفين بسبب روح التغريب السارية في ثقافتهم، ولكن مما يبعث على الاطمئنان أمام هذا الغزو الجديد لثقافتنا أن (عامة المسلمين فيهم حصانة روحية وإيمان قوى يجعلهم يميّزون الخبيث من الطيّب. . . فلا خطر عليهم، وإنما الخطر على الذين لا يؤمنون إيماناً صادقاً، وفي نفوسهم اضطراب واتجاه إلى تقليد الغربيين في كل شيء، وتقديس ما عندهم، سواء أكان صحيحاً أم باطلاً)[١٣].

أضف إلى ذلك أن هناك عراقيل أو معوقات تبطئ سيرها:

عراقيل أمام العولمة:

لم ترضخ شعوب وحكومات العالم الثالث بعدُ لنظام (العولمة)، وأخذت تقاومه بالتجمعات الاقتصادية لتصد عنها غيلان الشركات العالمية ذات الجنسيات المتعددة[١٤].

يقول الدكتور محمد محمود ربيع أستاذ العلوم السياسية: «يجتاح العالم عنف مكتوم من ممارسات قوى عولمة القطب الواحد انفجر مؤخراً في سياتل بالولايات المتحدة (ديسمبر ١٩٩٩م)، ثم دافوس بسويسرا (فبراير ٢٠٠٠م)، وتنتظر ثلاثة آلاف منظمة شعبية على مستوى العالم مناسبات قادمة لإعلان تضامنها مع انتفاضة سياتل، وفتح جبهات صراع جديدة مع مفاهيم وسياسات العولمة[١٥].

ومن رأيه أيضاً أن ما حدث لم يكن أول إدانة دولية للعولمة، فقد سبق أن اتهمها مؤتمر الدول ١٠ بالقاهرة (مايو ١٩٩٨م) بالجشع وعدم العدالة، وتناسياً بالاختلالات الحتمية التي ستنجم من احتكار الأقلية الرأسمالية للمزايا الاقتصادية والسياسية على المستوى الكوكبي أ. هـ[*].

كما أخذت (العولمة) تصطدم في المجال السياسي بخصوصيات، ومثال ذلك في رأي الأستاذ محمد سيد أحمد -خصوصية العلاقة بين العرب وإسرائيل، وهي في جوهرها

(*) يقول الدكتور جلال أمين: «في بداية عهد حسني مبارك عام ١٩٨١، حدث الانفتاح الاقتصادي، وأصبحت مصر في حكم (المستعمرة الأمريكية)، ووقعت اتفاقية سلام مع إسرائيل» كتابه: (مصر والمصريون في عهد مبارك) ص٤١، ط٢ الشروق ٢٠١١م.

قضية وجود لا قضية حدود؛ ومن ثم أصبح من الصعب إزالة خصوصية الشرق الأوسط ليصبح جزءاً من حركة (العولمة) ما دام النزاع قائماً، وهو صورة مكررة (لما كانت عليه الحروب الصليبية فى القرون الوسطى.. مع فارق واحد هو أن الغزاة فى المرة الأولى قد أتوا بصفتهم مسيحيين يتطلعون إلى استرداد أورشليم.. وفى المرة الثانية، وبصفتهم يهوداً. وفى المرتين، نشب صدام بين الإسلام والغرب -ولم تحل قضية الحروب الصليبية إلا بفشل هذه الغزوات فى النهاية واستعادة أرضهم بالكامل[١٦].

مقومات المحافظة على الهوية والتصدى للعولمة:

إنها فى مجموعها تكون طرق الصمود للتغلب على أية تحدّيات تجمعها كرؤوس مسائل قابلة للتوظيف الفعال، وهى: عقيدة التوحيد -التطبيق العملى بواسطة الرسول ﷺ، وهو أسوة الأمة برمتها- العناية بتحقيق وحدة الأمة وعناصرها الثابتة، لا سيما اللغة العربية.

كذلك لا ننسى أن هذه المقوّمات جربت من قبل وأنقذتنا من الضياع، فقد تعرضت الأمة الإسلامية لغزوات مشابهة ومحن متفاوتة الشدة، وأقساها فى القرن الأخير، ومنذ نكبة إلغاء الخلافة: من احتلال عسكرى مدعم بأفتك الأسلحة، إلى اجتياح إلحادى ماركسى سحق التفرد والهويات الثقافية للشعوب الخاضعة له، وبالذات سكان الجمهوريات الإسلامية إلى تبشير صليبى، إلى فرض اللغة والثقافات على المستعمرات كما فعلت إنجلترا وفرنسا.. وقد ارتدت هذه الموجات أمام المواقف الشجاعة لحركات المقاومة باستنادها إلى نفس المقومات.

وقبل العمل بالخطط التفصيلية للمحافظة على الهوية إزاء (العولمة)، نرى إحداث وعى إسلامى عام بواسطة تعاون أجهزة الإعلام بجميع الدول الإسلامية بأن مسئولية المحافظة على الهوية عنها مشتركة بين الأفراد والمجتمعات والدول بواسطة طريقين:

الأول: التغيير من الواقع المتردّى إلى المستوى الأفضل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الثاني: يشمل التغيير المطلوب جميع المسلمين، أى الأفراد والمجتمع والدولة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠](١٧).

ذلك بأن الإسلام -بإجماع أهل السنة والجماعة- قول وعمل، ويعلو بهذا الازدواج على فكرة (الثقافة) النظرية المجردة، فقد ورد فى صحيحى البخارى ومسلم، من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: **«الإيمان بضع وستون -أو بضع وسبعون- شعبة أعلاها -أو أرفعها أو أفضلها- على اختلاف الروايات -قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**.

تمتد شُعب الإيمان فى شرايين المسلم -أو هكذا ينبغى أن تكون، وإذا عمل بها أصبحت كالسد المنيع الذى يستحيل اختراقه مهما فعلت جيوش العولمة، والخبرات التاريخية -بل التجارب المعاصرة- خير شاهد؛ إذ بعد انفراط عقد وحدة الأمة -أى الخلافة- لجأ المسلمون بفطرتهم إلى غريزة الدفاع عن النفس إلى شُعَب إيمانهم يلوذون بها، وها هو المشهد الماثل أمامنا فى التضحيات المتواصلة للأقليات الإسلامية فى العالم أمام محاولات الاستئصال، فى الهند وبلاد البلقان فى أوربا (ومنها البوسنة والهرسك)، كذلك قاوم المسلمون فى الاتحاد السوفيتى الغزو الروسى الملحد وتركستان الشرقية فى بلاد الصين، وما المعارك الضارية الدائرة الآن ببسالة منقطعة النظير إلا دروس وعبر لسائر مسلمى العالم، فإن أهل البوسنة والهرسك محاصرون بالأعداء من كل جانب.

وإذا شئنا التخصيص بأهم الروابط وأقواها فإننا نذكر منها:

أولاً: التوحيد:

وهو جوهر الإسلام ولبه، وهو المعلم الأكبر لهوية الشخصية الإسلامية، وقد أفاض علماؤنا بتحليل أنواعه الثلاثة، ووثقوه برباط محكم لكى يبقى التميز قائماً فلا تختلط العقائد، فإن توحيد الألوهية يعنى إفراد الله تعالى بالعبادة، رجاءً وخوفاً ومحبةً -وهى من أعمال القلوب- والصلاة والزكاة والحج والجهاد ونحو ذلك- وهى

أعمال الجوارح - ولا يصح للإنسان أن يتوجه لغير الله تعالى بهذه الأعمال التى يقصد بها التقرب إلى الله تعالى استسلامًا وإذعانًا وخضوعًا له وحده.

ويُفهم توحيد الربوبية فى ضوء التيقن بأن الله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء ومليكه، وهو تعالى وحده الخالق الرازق المحيى المميت المدبّر لجميع الأمور بتشريعه العادل.

أما توحيد الأسماء والصفات فيميز الشخصية الإسلامية عن غيرها؛ لأن المسلم يتقيد بمعرفة صفات الله تعالى بما أثبته لنفسه من أسماء وصفات أو بصفة أثبتها له رسوله ﷺ.

وبعقيدة التوحيد تظهر أصالة أمة الإسلام وهويتها الخاصة التى لا تشاركها فيها أمة غيرها.

ثانيًا: رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة فى كل العصور(*):

إن المسلمين جميعًا مطالبون بالتأسى بالرسول ﷺ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [الممتحنة: ٦]، على مدى العصور كلها حتى قيام الساعة، وهو وحده الأسوة الحسنة حيًا وميتًا، فلم تنقص سنته بموته؛ لأنهم مأمورون بطاعته طاعة مطلقة غير مقيدة بمكان أو زمان ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢] ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: ١٣]، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

ولا يتعارض ذلك مع تغيّر الأزمنة والعصور؛ لأن الاقتداء به ﷺ يتصل بعقائد الإنسان المسلم وعباداته وسلوكياته كإنسان يحتاج إلى أسوة فى طريق اجتيازه للحياة الدنيا (فالحوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحضارة الإنسانية، فالغرائز التى هى محور عمل الإنسان لم تزل باقية كما كانت. بالرغم من أن مجال النشاط الإنسانى قد اتسع وصفات الإيثار والشرف والصدق والشجاعة المستحبة تنال من الاحترام اليوم ما كانت تناله منذ القدم)(١٨).

(*) وللقيمة الكبرى للسنة، وصفها الأستاذ محمد أسد بأنها: الهيكل الحديدى للإسلام.

وهو وحده ﷺ الذى ضرب المثل الأعلى فى السلوك الإنسانى فى دروبه كلها، وقدّم الحلول الحاسمة لجميع ما يتعرضنا من أزمات كأفراد ومجتمعات وأمة، وفى شتى العلاقات وجميع المواقف، كذلك فإن اتخاذه ﷺ الأسوة يعصم أمة المسلمين من الافتتان بكل ناعق كغيرهم من الشعوب التى يُراد لها اتباع رجال مصنوعين ومروّج لهم بأجهزة الإعلام لتلقى بشعوبها إلى حتفها.

ومما يسترعى الانتباه أيضًا أن السّمت الظاهر، الذى لم نعد نلقى له بالاً مع موجة التقليد العصرية له دوره أيضًا فى المحافظة على الهوية.

وللقارئ نص الكلمة التى قالها بسمارك لغليوم الثانى لما كان ولى عهد الإمبراطورية الألمانية، حينما أرسله إلى روسيا ليمثل ألمانيا فى إحدى المناسبات، قال بسمارك: «إنك ذاهب إلى بلاد شرقية، فإذا رأيت الشرقى المتمسك بزيّه الأصيل فاعلم أنه لا يزال على ميراث من فطرة الشرق وأصالته، وإذا رأيت الشرقى الذى لبس البنطلون تقليداً للغرب، فاعلم أنه فقد مواريثه فى الفضائل، ولم يكتسب أخلاق الغرب وفضائله»[١٩].

ولمعرفة قيمة هذا السمت، ودوره المهم حرص (بطرس الأكبر) على محوه؛ إذ أكره المسلمين على حلق اللحى، وحرّم عليهم ارتداء القفاطين، وفى ظروف مماثلة فى العداء للمسلمين مع مخالفة للطريقة التى اتبعها بطرس، أصدر أتاتورك قانونًا عام ١٩٢٥م فرض به على جميع المواطنين الأتراك ارتداء القبعة ذات الحافة[٢٠].

ثالثًا: اللغة العربية:

وهى إحدى مفردات الهوية الإسلامية فضلاً عن أنها لغة القرآن، وقد وحّدت الأمة طيلة تاريخها. بين ابن خلدون مكانة اللغة العربية فى الإسلام وصلتها الوثيقة بالملّة الإسلامية وأهلها بقوله: «ثم النظر فى القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها، فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب.. وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها»[٢١].

وقد تفشت ظواهر إهمال اللغة العربية فى السنوات الأخيرة بشكل ينذر بالخطر على

شخصيتنا وتراثنا، ويسهل دور العولمة فى ابتلاع أجيالنا الجديدة التى تتخطفها اللغات الأجنبية -لا سيما الإنجليزية- ولا علاج لهذه النكسة المؤسفة إلا بوضع اللغة العربية فى المكانة الأولى فى ثقافتنا كما كان عهدها قبل عصر الاستعمار، فإنها (الرابط الموحد بيننا والمكوّن لبنية تفكيرنا والصلة بين أجيالنا)(٢٢).

ويقرر الشيخ عبد الجليل عيسى بقاء (ذكر الأمة عاليًا ما بقيت لغتها حية قوية).. مستدلاً على ذلك بالآيتين:

الأولى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ إذ قال ابن عباس: (فيه ذكركم) أى الصيت والشرف.

والثانية: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ثم يستطرد قائلاً: «ولهذا كان أقوى سلاح بخصوص الإسلام والعرب هو إيقاظ اللغة العاميّة فى كل أمة حتى تحتل مكان الفصحى، فيندثر ذكر العرب، وتنقطع صلة المسلمين جميعًا بكتابهم»(٢٣).

ولا صحة للرأى القائل بضرورة متابعة المستجدات فى مجالات العلوم والتكنولوجيا بالحرص على إتقان اللغات الأجنبية، وآية ذلك -كمثال- استمساك سوريا بتدريس الطب لطلابها باللغة العربية، جنبًا إلى جنب مع المتابعة للمستجدات فى مجال علم الطب بالغرب.

كذلك فإن تاريخ اللغة العربية منذ فجر الإسلام سجل حافل بنجاحها فى استيعاب الدين والثقافة والحضارة والحكم فى آن واحد «واستطاعت بما وهبها الله من خصائص وما تهيأ لها من تاريخ طويل سبق الإسلام أن تعنى بهذه الحاجات الجديدة وأن تنهض بالعبء العظيم فتكون لغة الدولة الجديدة والحضارة الجديدة»(٢٤).

نحن فى عصر الإعلام والقنوات الفضائية التى ألغت الحدود، ووصلت إلى أنحاء الكرة الأرضية كلها بلا حواجز، وهى سلاح فعّال لا ينكر أثره، فعلى المسئولين استنفار أجهزة الإعلام بالدول العربية والإسلامية جميعًا وتوحيد الخطة العامة، وجعل

الهدف: صد تيار العولمة، وذلك من منطلق انتمائنا إلى الثقافة الإسلامية وحضارتها؛ ولأن قيم حضارتنا ومثلها العليا تجعلها فعالة، لا منفعلة؛ مما يستوجب عناية الإعلام بالتركيز على شعاعات نقاط التمايز من حيث تصورنا للحياة وإخفاء المعنى لها، وخلاصتها أن الحياة الدنيوية دار ممر وليست بمستقر، وكما أننا مطالبون بالعمل والإنتاج وتعمير الأرض، فإننا مطالبون أيضاً بجعل الهدف النهائى ابتغاء الفوز بالجزاء فى الأخص، وهكذا يمكن المزج بين المثل العليا والحقيقة الواقعية، وسد النقص المعيب فى الفلسفة النفعية العملية التى تتبناها العولمة.

ومن المفيد الاسترشاد بالمبادئ العامة التى حددها الراغب الأصفهانى وفق بعض الآيات القرآنية؛ إذ للإنسان ثلاثة أفعال تختص به وهى:

- عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]؛ لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره.

- عبادته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أى الامتثال لله سبحانه فى عبادته فى أوامره ونواهيه.

- خلافته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ولا يستحق الإنسان الخلافة إلا بتمرّس مكارم الشريعة وهى الحكمة والقيام بين الناس فى الحكم والإحسان والفضل، والغرض بلوغ جنة المأوى[٢٥].

كما يحسن التأكيد على هذه الميزة الكبرى لعقائدنا وقيمنا التى نقدمها للعالم لإيجاد التوازن الذى يفتقده؛ لأن التقدم الأخلاقى -فى رأى ألبرت أشفيتزر- هو (جوهر الحضارة حقًا. أما التقدم المادى فهو أقل جوهرية، ويمكن أن يكون له أثر طيب أو شيء فى تطور الحضارات)[٢٦]، وهو يشكو الشكوى مما يسميه (انفعالات الأمم وحماقاتها) بسبب البطالة والفقر والجوع، وتفسخ الحياة الإنسانية وتبددها فى كل

اتجاه، ويقترح العلاج في الدعوة إلى التفكير في (معنى الحياة)؛ إذ (حينما يبدأ جمهور الناس التفكير على هذا النحو، ستنشأ القوى التي تستطيع أن تحدث نوعًا من التوازن مع هذا الاضطراب والبؤس.. وأية إجراءات أخرى تتخذ فإن نتائجها يحبط بها الشك ولن تكون مناسبة ولا وافية[٢٧]).

بعض التوصيات:

من ملامح العصر السعي نحو التكتلات السياسية والاقتصادية لامتلاك القوة والنفوذ على الصعيد العالمي، كبعض دول آسيا في شكل منظمات اقتصادية أو دول أوربا التي توحدت اقتصاديًا وعسكريًا.

في هذا المناخ حقّ علينا -للوقوف صفًا واحداً كسد منيع أمام تدفق موجات العولمة- إحياء الوحدة السياسية من جديد بعد تحللها بإلغاء الخلافة.

وقد سبق لأحد أفذاذ فقهائنا السياسيين، وهو الدكتور السنهوري، تقديم عدة اقتراحات بعد معاصرته لمحنة إلغاء الخلافة، وربما تنبأ بتداعياتها المضنية التي نحياها الآن، ومعرفته بتعذر «قيام دولة موحدّة في العصر الحاضر - فتصدى للبحث عن بديل عصري لها- واقترح لذلك إنشاء «منظمة إسلامية دولية»[١].

---

(١) ويقترح أيضًا د. محمد ضياء الدين الريس -أستاذ التاريخ الإسلامي-. منظمة تسمى (منظمة الدول الإسلامية) وقد قدم مشروعه لقادة الرأي وعلماء ورؤساء الأمة.. وإذا نهضنا بذلك فقد أدّوا الواجب الذي يفرضه عليهم الدين.. ويختم مشروعه بقوله (والرؤساء والعلماء هم الذين يتحملون المسئولية الأولى أمام الله تعالى وأمام الأمة والأجيال، وأمام ضمائرهم أيضًا. ومن يبدأ عمل الخير والإصلاح يكن له الثواب الأجزل من الله عز وجل). كتابه (الإسلام والخلافة في العصر الحديث - نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم) ط منشورات العصر الحديث - بيروت ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م. ويستغرق اقتراحه من ٣١٣ إلى ص٣٢٥.

وفق ثلاث مقدمات وهي:

أولها: إن المبادئ التي بنى عليها فقه الخلافة، قام على المبادئ التي توصلت إليها أحدث النظم العصرية والديمقراطية، بل تمتاز عن الفقه العصري؛ لأن تطبيق مبادئها مرتبط بعقيدة دينية وشريعة سماوية خالدة.

المقدمة الثانية: إن الخلافة أنشأت في منطقتنا أعظم أمة وأقامت أعظم حضارة شهدها العالم عندما كانت أوربا في ظلام التخلف والجهل والحروب الدينية ونظام الإقطاع.

المقدمة الثالثة: تحقيق وحدة الأمة الإسلامية بإنشاء عصبة أمم شرقية تتماشى مع الاتجاه العالمي نحو التكتل والتجمع.

ويعلق على ذلك الدكتور توفيق الشاوي قائلاً: «إننا نرجو ممن يؤمنون بأن الوحدة هي طريق القوة والتقدم والنهضة الحضارية أن يتدبّروا آراء السنهوري واجتهاداته بكل تقدير واحترام».

(لمزيد من الفائدة يرجى الاطلاع على هذه الدراسة المتميزة وينظر مقدمة كتاب أصول الحكم في الإسلام. بقلم د. توفيق الشاوي «مكتبة الأسرة ١٩٩٨م»).

وإذا لجأنا إلى لغة الأرقام كأدق لغة علمية، لتبين لنا مدى قوة العالم الإسلامي وإمكاناته الهائلة فلا ينقصه إلا الالتئام في إطار موحد ليواجه الأخطار المحدقة بها. وقد قام بهذا الجهد المشكور المهندس الدكتور مصطفى مؤمن مقدماً إحصائية دقيقة عن العالم الإسلامي عام ١٩٧٤م، وخلص إلى الآتي بقوله:

الآن، ما ظنّنا بدولة شامخة تحتل رقعة من الأرض مساحتها ٣٠١٢٧٦٠٩ كيلومترات مربعة، وتعدادها ٧٧٠٥٩٥٠٠٠ نسمة، وقوتها الضاربة البرية قوامها ٢٩٥٧٤٠٠ جندي وأسطولها البحري يضم ٨٨١ قطعة، وسلاحها الجوي يتألف من ٣٨٤٦ طائرة مقاتلة وقاذفة وناقلة، ودخلها السنوي يزيد على ٦٣٥٧٧ مليون دولار أمريكي.

وقبل هذا وبعده دولة دينها الحق والحق واحد، وقبلتها واحدة ودستورها الدائم واحد هو الكتاب المكنون.

أظن أن هذه غاية ما يرجو كل مسلم على الأرض، ويقيني أنه لو قامت هذه الدولة الشامخة يومًا لنافست بل ناجزت الدولتين المتعاليتين (الولايات المتحدة) و(الاتحاد السوفيتي) على السواء.

فهل يمكن أن يتحقق ذاك الحلم الجميل الذي يداعبنا في غمرة من اليقظة أو في نوبة من الرقاد، إنه ليس حلمًا، لقد كان حقيقة بالأمس وأراه اليوم غير بعيد المنال.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١].

هذا بالإضافة إلى خطوات أخرى ضرورية لزيادة المناعة لقدرات الأمة اقتصاديًا وثقافيًا وعسكريًا:

فعلى الصعيد الاقتصادي لا بد من إقامة السوق المشتركة بين الدول الإسلامية على غرار دول أوربا للحماية من غزو (العولمة) الاقتصادي المدمر لاقتصاد الكيانات الصغيرة المفككة.

وعلى صعيد التعليم، لا بد من صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الإسلامية، أي أن يكون الجو العام للثقافة والتعاليم هو جو العقيدة والمفاهيم الإسلامية، مع عقد الموازنات بالنظر للأنظمة الثقافية الأخرى التي غزت العالم الإسلامي؛ لتتضح[٢٨]، أصالة الأمة ومعالم هويتها الخاصة عبر عقيدتها وشريعتها وأخلاقها ولغتها وتاريخها وغاياتها في الحياة، ويصبح التنفيذ العملي سهلاً بالإفادة من وظيفة اتحاد الجامعات الإسلامية للعمل على أسلمة مناهج العلوم الإنسانية وفق التصورات الإسلامية.

واقتراحنا هذا لا يصدر من فراغ؛ إذ كان لأستاذنا الدكتور محمد على أبو ريان -رحمه الله- فضل السّبق بما قدّمه بكتابه عن (أسلمة العلوم الإنسانية ومناهجها)؛ إذ يحث فيه على ضرورة المحافظة على هويتنا أسوةً بما فعل أهل الصين واليابان أمام الغزو الثقافي الغربي، ثم تساءل:

(هل استطاعت قوى الغرب المسيحية أن تضيّع معالم الشخصية الصينية أو اليابانية)؟

ثم يبيّن أن القياس في الفارق بين وثنية أديان الشرق وتوحيد الإسلام، محددًا

الموقف الصحيح إزاء تيارات الثقافة الغربية المضللة المعادية للإسلام بأن يكون الصمود أمامها (موازيًا تمامًا لتمسكنا بحركة التقدم الحضارى التى لن تتم فى شقّها المادى إلا بالأخذ من الغرب فى تخير وحذر وذكاء، كما فعل اليابانيون والصينيون)[٢٩].

وعلى الصعيد العسكرى، يلزم توحيد جيد من الدول الإسلامية، قيادة وتدريبًا وتسليحًا؛ لأن المسئولية مشتركة بينها جميعًا على الدفاع على كيان الأراضى والسكان والأعراض أمام قوى غاشمة ظالمة لا ترعى إلا ولا ذمّة، وما لم تملك دول الإسلام القوة اللازمة، فربما كانت الخطوة التالية للعولمة الإقدام على الغزو العسكرى إذا ما فشلت أدواتها فى تحقيق أهدافها.

ولكن العولمة -بقدر ما يظهر عليها من علائم القوة والسطوة- تحمل معها بذور ضعفها وانهيارها، ومن شأن هذه البذور أن تزداد نموًا كلما اتسعت الدائرة، وتعددت مناطقها ومساربها، وأولى نقاط الضعف أنها نظام مادى صرف يقوم على الجشع والسيطرة والاستغلال، وشهوة الكسب، ويثير أكثر الميول وضاعة فى النفس الإنسانية: ميول التقليد الأعمى، وعشق المظاهر، والتبذير، والاستلام للشهوات، وبتعبير آخر إطلاق الوحش البدائى الذى يقطن فى أعماق الإنسان، وتحطيم تلك الكوابح الأخلاقية التى جاء بها الأنبياء، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وعلى المسلم تحديد موقفه إزاء (العولمة) بأن يعرف أولاً موقف الإسلام -كعقيدة- منها: فمن المفروض أن الإنسان المسلم يبنى مواقفه كلها على أساس الفهم الصحيح للإسلام، والالتزام بتعاليمه ومبادئه، وأول آثار الالتزام أنه يمنح صاحبه مقياسًا ثابتًا يزن به الأمور، ويحدد الجوانب التى تتفق مع نظرة الإسلام الكلية للحياة والناس.. وحدد الإسلام ميزانًا وحيدًا للتفاضل بين البشر، هو ميزان التقوى، وما تنطوى عليه هذه الكلمة الجامعة المانعة من استحضار مخافة الله تعالى فى كل أمر، والحدب على عباده، والحرص على إعمار الكون، وإشاعة الخير والصلاح بين ربوعه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].. مع التذكير دائمًا برابطة النسب الإيمانى، فقد تحدث القرآن الكريم عن الأمة الواحدة

أكثر من مرة. مع الاعتزاز بالإسلام والاقتناع بما فيه من حسنات يحتاجها الإنسان المعاصر؛ وبذلك فهو في حصن منيع يصد عنه شرور العولمة(*).

الخاتمة:

وبعد، إن العولمة هي نوع جديد من أنواع الاستعمار، فيه كل ما في الاستعمار القديم من صفات، وله ما لسلفه من الأهداف والغايات، غير أنه ظن أنه استفاد من دروس الماضي، حين أخفى مخالب الاستعمار القاسية تحت ألفاظ ناعمة، كالتعاون والشراكة، والتعاون المتبادل، وحشد -إلى جوار القوة العسكرية- هيمنة المال والاقتصاد والتقنية الحديثة، ووسائل الثقافة والإعلام، وأسباب التسلية والترفيه.

●●●

(*) كامل الشريف (الشباب المسلم والعولمة) باختصار صفحات ١٩، ٢٢، ٢٣، (مجلة المنار الجديد) ربيع الأول ١٤٢٠هـ-يوليو سنة ١٩٩٩م.

الهوامش

١- ينظر مقال (الانفراط العظيم) بقلم د. جعفر شيخ إدريس بمجلة البيان (تصدر عن المنتدى الإسلامى بلندن -العدد ١٤٢ من جماد الآخر ١٤٢٠هـ أكتوبر ١٩٩٩م)، لعالم الاجتماع الأمريكى فوكوياما، صدر بعد عشر سنوات من كتابة الأول (نهاية التاريخ) وتراجع فيه عن فكرته الأولى، وقدم بالكتاب الجديد ملخصًا للحقائق الإحصائية التى تناولت ازدياد الجرائم وتفكك النظام الاجتماعى ونسبة الأولاد غير الشرعيين إلخ، مما ينبىء بفشل المشروع الذى بشر به من قبل.

٢- جمال حمدان (إستراتيجية الاستعمار والتحرير) ص٣٠ كتاب الهلال -فبراير ١٩٩٩م.

٣- روجية غارودى (الولايات المتحدة طليعة الانحطاط) ص١٦، ترجمة مروان حمدى -دار الكتاب- دمشق ١٩٩٨م.

٤- شيتارو إيشيهارا (اليابان لم تقل لا صراع المستقبل بين الكبار) ص٣٤، ٣٥ ترجمة هالة العورى، ط يان للدراسات والأبحاث بالقاهرة ١٩٩١. وينظر أيضًا كتابنا (الفكر الإسلامى فى مواجهة الغزو الثقافى)، دار الدعوة بالإسكندرية ١٩٩٨م نقد الرحمانية من ص٢٠٦ إلى ٢١٦.

٥- منها (الجات) وهى منظمة التجارة العالمية، وهى بحسب كلمات الرئيس الأمريكى (تعزيز موقع زعامة الولايات المتحدة للاقتصاد العالمى الجديد)، وهى أحدث آليات العولمة لممارسة العنف الثقافى ص٧٢ وص٩ من كتاب (الجات والتبعية الثقافية) للدكتور مصطفى عبد الغنى ط الهيئة العامة المصرية للكتاب (مكتبة الأسرة ١٩٩٩م).

٦- نفسه ص ٧٠، كما يصنيم المؤلف بأنهم عملاء متخصصون في إعادة إنتاج وتوزيع الأيدولوجية الخارجية.

٧- تعريف عبد الإله بلقريز، بحثه المقدم لمؤتمر (العرب والعولمة) في بيروت ١٩٩٧م نقلاً عن المصدر السابق ص ٧٠/ ٧١.

٨- (فخ العولمة) الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية ص ٣٣٠ هانس - بيرماتين وحصار دشومان ترجمة: د. عدنان عباس ومراجعة وتقديم د. رمزي زكي.

٩- نفسه ص ٣٢٨، ٣٢٩، عالم المعرفة بالكويت جمادى الآخرة ١٤١٩هـ-أكتوبر ١٩٩٨م.

١٠- مقال بعنوان (تسويق) و(تزويق العولمة) مراجعة نقدية لكتاب (توماس فريدمان) السيارة ليكاس وشجرة الزيتون بقلم د. محمد عبد الفضيل (مجلة الهلال) فبراير ٢٠٠٠م، وكان عنوان غلافها [العولمة.. ديانة جديدة]!

١١- مقال بعنوان (ترويج العولمة) والدور «التايواني» لمصر بقلم: صلاح الدين حافظ - الأهرام ٢/ ٢/ ٢٠٠٠م.

١٢- ص٨١ من كتاب (الجات والتبعية الثقافية) د. مصطفى عبد الغني.

١٣- أحمد حمزة (لواء الإسلام) رجب ١٣٧٥هـ - فبراير ١٩٥٦م.

١٤- من هذه المنظمات التي انعقدت أخيراً في القاهرة (منظمة الوحدة الإفريقية لتعزيز العلاقات التجارية والتعاون بين دولها (الكوميسا) فبراير ٢٠٠٠م، كذلك مجموعة الدول النامية الأعضاء في مجموعة الـ١٧ التي ستجتمع في كوبا في أبريل ٢٠٠٠م لتقويم انعكاسات العولمة على اقتصادها [الأهرام في ١/ ٢/ ٢٠٠٠].

١٥- مقال للدكتور/ محمد محمود ربيع بالأهرام فى ٣/ ٣/ ٢٠٠٠م.

١٦- مقال بعنوان: (العولمة وخصوصية الشرق الأوسط) بقلم: محمد السيد أحمد الأهرام فى ٩/ ٣/ ٢٠٠٠م، وهو مضمون محاضرة ألقاها فى معهد العالم العربى بباريس قبل هذا التاريخ ببضعة أيام.

١٧- د. عماد الدين خليل (العقل المسلم والرؤية الحضارية) ص٤٤، ٤٣ دار الحرمين للنشر، القاهرة ١٩٨٣م.

١٨- عبد الحميد صديقى (تفسير التاريخ) ص١٤٥ ترجمة د. كاظم الجوارى ط دار العلم بالكويت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٩- محب الدين الخطيب (منهج الثقافة الإسلامية) ص١٩ هدية مع مجلة التوحيد- ذو الحجة ١٤١٩هـ.

٢٠- أرنولد توينبى: موجز تاريخ العالم ج٢، ص٤٠٢.

٢١- مقدمة ابن خلدون ص٤٣٦، ط المكتبة التجارية مصر، بدون تاريخ.

٢٢- محمد المبارك (فقه اللغة وخصائص العربية) ص٢٣٣ ط دار الفكر العربى- بيروت ١٩٧٠.

٢٣- المصحف الميسر للشيخ عبد الجليل عيسى ط دار الشرق ١٣٩١هـ.

٢٤- فقه اللغة ص٢٩٤ مرجع سابق.

٢٥- الراغب الأصفهانى (الذريعة إلى مكارم الشريعة) ص١٨.

٢٦- ألبرت أشفتيسر (فلسفة الحضارة) ص ٣٦ ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ومراجعة د. زكى نجيب محمود، المؤسسة المصرية العامة.

٢٧- فلسفة الحضارة ص ٨٢.

٢٨- ينظر كتاب (قسمات العالم الإسلامي المعاصر) ط دار الفتح بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢٩- محمد المبارك (المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي - واقعها وعلاجها ص١٥ دار الفكر - بيروت.

٣٠- د. محمد على أبو ريان (أسلمة المعرفة - العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية) ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٩٧م.

●●●

• ملحق:

مختصر مقال بعنوان: تأملات فى العولمة ومستقبل الأدب الإسلامى(*)

إنّ العولمة أو الكوكبية أو الكونية، ومعناها تطويع العالم وإخضاعه لمجموعة من النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية لفرض الهيمنة، وبسط النفوذ على سائر أمم العالم وشعوبه لمصلحة القوى المتحكمة فى إمكاناته وأساليبه تحت شعار «خير العالم وتقدمه وازدهاره».

وللوصول إلى هذه الغاية الخبيثة كان لا بد من فرض الهيمنة الفكرية والثقافية والفنية عن طريق الإعلام الغربى والأمريكى بكل ما لديه من وسائل وإمكانات لإبهار أمم العالم وشعوبه بالبهرجة الغربية والأمريكية. وتمرير ما يُراد تمريره من الفكر المنحرف والأباطيل المدسوسة والآراء الفاسدة والمضامين الزائفة، والمتاع الرخيص والمقولات البراقة.

إن ثقافة العولمة هى من صنع شركات احتكارية رأسمالية ليس لها انتماء وطنى أو قومى أو حتى إنسانى؛ ولذلك فهى ثقافة موجهة نحو الإبهار بالجنس والجسد والمرأة والمتاع الرخيص والغرائز المدمرة للقوى الروحية العالية والطاقة المعنوية الفعالة.

وعلى أية حال فإنه مهما تكن درجة الانبهار بالثورة التكنولوجية المعاصرة والنهضة المعلوماتية النشيطة والمتطورة وحصاد ذلك كله على جميع المستويات والأصعدة، فليس من السهل.. لا.. بل من المستحيل إلغاء الواقع التاريخى للأمم والشعوب، فليس بهذه السهولة قولبة الثقافات المحلية أو عولمتها أو تحولها أو تحويلها؛ لأنها مرتبطة بعقيدة الشعوب وإيمانها ومقدساتها وتراثها وأصولها وجذورها..

(*) بقلم د. عبدالله حسين، مصر، مجلة «الأدب الإسلامى» العدد (٤٥) ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م الرياض.

هناك ثوابت فى حياة أمتنا تنطلق من العقيدة والدين والتراث الثقافى والحضارى والعروبة المرتبطة بالإسلام والواقع الذى نعيشه بكل ظروفه وملابساته، هناك وحدة اللغة ووحدة الفكر ووحدة الهدف والمصير، وهذه أمور لها أهميتها البالغة فى مجال التجمع والتوحّد والصمود والتصدى.

ولا بدّ من الدعوة إلى تنمية الشخصية الإسلامية وتكريس الإحساس بذاتيتها، ونشر الثقافة الإسلامية وعولمتها العولمة الإيجابية لخير الإنسانية وصلاح أمرها. مع ضرورة الأخذ بأسباب التلاقى بين الشعوب الإسلامية فكراً وأدباً وثقافة وفناً وإبداعاً، وليس ذلك بعسير على أمة لها ماض عريق وتاريخ مجيد وشواهد عز وفخار.

وبالله التوفيق..

●●●

مختصر فحوى الكتاب واستدلالاته

تنبعث النظرة العالمية للثقافة الإسلامية من التنزيل الإلهي، وليس من تأملات أو احتمالات الفلاسفة والمفكّرين؛ لذلك حقّ وصف حضارة الإسلام بأنها إلهيّة، ومنبع التنوير الحق، قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد: ٢٨]؛ أي يعطيكم علمًا وهدًى ونورًا تمشون به في ظلمات الجهل، كذلك وصف الله تعالى القرآن بالنور فقال: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨]. وقال الرسول ﷺ: «والصلاة نور» من حديث مسلم.

أما ما يُسمّى بالتنوير فى بلادنا الآن فهو تنوير زائف؛ لأنّه مسخٌ لشخصية الأمّة وعبث بتراثها، وهو فى الأساس تغريب هدفه إفقاد شعوب العالم الثالث هويتها حتى يتم كسرها؛ ومن ثمّ فإن تراثنا الإسلامى يلفظه لأنه هو الذى يحافظ على هويتنا.

ويتضمّن الكتاب مجموعة مقالات تناقش قضايا التنوير والتغريب والليبرالية بالبراهين والأدلة، وتكشف فى مجملها عن مدى (رجعية) التغريبين بإصرارهم على الانغلاق داخل الآراء الفلسفية فى القرن الماضى، ولو فتحوا النوافذ لرؤية جديدة لاكتشفوا الآثار المأسويّة للمذاهب الفلسفة وما أدّت إليه من أزمة خانقة بحضارة العصر التى أصبحت جزءًا من بنيته خصوصًا منذ منتصف الستينيات.. مثل تآكل مؤسسة الأسرة وانتشار الإيدز والمخدرات وتراكم أسلحة الدمار الكونى والأزمة البيئية، وتزايد اغتراب الإنسان الغربى عن ذاته وعن بيئة... وهذه الأمور كلها أقرّها كلٌ من شبنجلر وتوينبى وجينو - وقد اتضح لهم أيضًا انحسار موجة العلمانية أمام المدّ الدينى الكونى فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، كما أثبت ذلك كلٌ من عالمة الأديان الإنجليزية أرمستروغ والباحث الفرنسى جيبل وغيرهما ممّن اهتموا بالصحوة الدينية فى العالم.

كذلك لم يفطنوا إلى اقتران عصر التنوير الغربى بجرائم الاستعمار الكبرى ومباركة التنويريين هناك للاستعمار!

وما نجم عن فلسفة هيجل العنصرية العصبيّة المقيتة التى وجدت تعبيراً لها فى كلٍّ من النازية الهتلرية والصهيونية (شعب الله المختار) بالإضافة إلى الفلسفة الإلحادية للفيلسوف (نيتشه)، وقد انتهى أمره إلى الجنون!

وكان التنوير الأوروبى تتويجًا للعلمانية والقطيعة مع النظام الدينى الكنسى؛ أى فى بيئة ثقافية ودينية مخالفة تمامًا لبيئتنا.

هذا وتتضمّن المقالات توجيهًا مخلصًا للتغريبيين بمراجعة أنفسهم كما فعل السابقون عليهم، أمثال: د/ عبد الرحمن بدوى، ود/ ذكى نجيب محمود، ود/ عبد الوهاب المسيرى، ود/ محمد حسين هيكل (فى منزل الوحى)، ود/ محمد عمارة، ود/ مصطفى محمود، ود/ رشدى فكارّ وغيرهم.

كذلك لهم أسوة حسنة فى المهتدين للإسلام من الغربييّن أمثال: محمد أسد، ومراد هوفمان، ودوباسكويه وجارودى ورينيه چينو ومريم جميلة وموريس بوكاى. يُضاف إليهم المستشرقة الألمانية (هونكه)، وقرينتها (أنا مارى شمل).

ونرشح لهم أيضًا الكتاب الفذ للرئيس على بيجوفيتش (الإسلام بين الشرق والغرب) ففيه البيان الكافى الشافى.

كما اتسعت دائرة المقالات لتشمل قضايا أخرى وهى: مآل الاحتلال الصهيونى لأرض فلسطين، والتصوف: تاريخًا ومعاصرة، والعولمة وكيفيّة صدّها.

وبالله التوفيق..

●●●

الختام

آيات من كتاب الله تعالى هي خير ما نختتم به هذا الكتاب:

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

- وقال -عز وجل- في سورة الصف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٧-٩].

- وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

●●●

ملحق الكتاب

الحريات فى الإسلام بين الحق و الضبط

كتب الأستاذ خالد أبو الفتوح تمهيداً لهذه القضية يقول :

بدايةً فإنّه لا يختلف أحد من الليبراليين على أن الفكر الليبرالى لا يقتصر على حقل الفكر السياسى، بل يمتد إلى ما هو أبعد منه؛ ليكوّن فلسفة اجتماعية شاملة ترتبط بتوجّهات محدّدة فى مجالات الأخلاق وفلسفة العلم والقيم الاجتماعية والاقتصاد، إضافة إلى السياسة.

ثم انتقل لشرح المقابل لهذه المنظومة الغربية فى الفكر والقيم، إلى مثيلتها فى الإسلام فقال: نجده فى الإسلام و(المجتمع الإسلامى) منظومة مختلفة تمامًا: مختلفة فى المرجعيّة والمنهجية، وفى الثوابت والمقدسات، وفى الغايات والأهداف، وحتى فى الوسائل والأدوات القانونية والاقتصادية والسياسية لتحقيق هذه الغايات.

فمقابل (العقل المجرّد) و(الحس التجريبى) نجد فى الإسلام أن (الوحى) هو المرجعية الأولى للفكر والقيم، مع عدم إهمال أهمية المرجعية المعرفية للعقل والحس. ولكن وضعهما فى إطارهما واستعمالهما فى مجالاتهما.

وفى مقابل (العلمانية) نجد فى الإسلام أن (الشريعة) وانتظام الدين مع الدنيا هو المنهجية التى يقوم عليها المجتمع، ومقابل (الفردية) نجد فى الإسلام المسؤولية المتبادلة بين الفرد والمجتمع والتآلف بينهما من غير جور أو تعدى أى منهما على الآخر (حقوق شخصية، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر)، وهو ما يؤكّده حديث السفينة التى استهمها ركابها، وهذا المفهوم يرقى بحريتىّ الرأى والتعبير -وفق التصور الإسلامى- من مرتبة (الحق الشخصى) إلى مرتبة (المسئولية الاجتماعية).

ومقابل (الحرية) و(المساواة) نجد في الإسلام أن (العبودية) لله رب العالمين و(العدل) بين البشر (ليس بالضرورة أن يكون العدل هو المساواة كما يفهمها بعض البشر) يتربّعان على قمة الهرم القيمي في المجتمع الإسلامي، فهما أكبر (الثوابت) و(المقدسات) في المجتمع، وتحقيق هاتين القيمتين وعدم المساس بهما له الأولويّة المطلقة التي ينبغي أن تخضع له أو تتقيد به أو تنتظم معه قيم المجتمع الأخرى بما فيها الحقوق والحريات.

وأعني بـ(العبودية) لله -عز وجل- الخضوع والدينونة العامة له (سبحانه) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وفي هذا الإطار نلاحظ أن تحقيق (العبودية) لله -عز وجل- يتناسب طرديًا مع التحرر من المخلوقات، فكلما عظمت حقيقة العبودية لله -تعالى- وارتفعت في نفس المسلم، ازداد تحرّره من المخلوقين. كما نلاحظ أن هذا التحرّر يكون داخليًّا وخارجيًّا، فالعبودية لله -سبحانه- تجعل المسلم يتحرر حتى من سيطرة (الأشياء) والتعلق بها «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض» [أخرجه البخاري].

وتأمّل موقف سلطان العلماء (العز بن عبد السلام) عندما أغلظ في القول جهراً مناصحة للملك الصالح نجم الدين أيوب، لما رأى الأمراء يقبلون الأرض بين يديه.

يقول تلميذه الباجي: «سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان -وقد شاع هذا الخبر- يا سيّدي! كيف الحال؟ فقال: يا بني رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه؛ لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقلت: يا سيّدي! أما خفته؟ فقال: والله يا بنيّ استحضرت هيبة الله -تعالى- فصار السلطان قدامي كالقط».

أمّا (العدل) فإنه من أبرز خصائص هذه الأمّة ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا

اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسط هو العدل -كما جاء في تفسيرها.

وضمن هذا الإطار تنتظم (الحقوق) و(الحريات) الشخصية[١].

•••

(١) خالد أبو الفتوح، مقال بعنوان (الإسلام والليبرالية: حقيقة التوجه الأمريكي وإمكانية الالتقاء الفكري) ص ٦٠/ ٦١ مجلة (البيان) - تصدر عن المنتدى الإسلامي - لندن. ذو القعدة ١٤٢٦هـ - ديسمبر سنة ٢٠٠٥م.

المصادر والمراجع

- الاتجاه التغريبي ومنهجه والنهضة - د. سامي نجيب محمد- كتاب للمؤتمر الدولي السادس للفلسفة الإسلامية- كلية دار العلوم- أبريل ٢٠٠١م- المحرم ١٤٢٢هـ.

- أزمة العالم المعاصر -رينيه جينو- ترجمة: سامي محمد عبد الحميد- دار النهار- شارع الجمهورية- عابدين- ١٩٩٦م.

- الاستشراق في السيرة النبوية - عبد الله محمد الأمين- المعهد العالي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية- ط١ - ١٤١٧ - ١٩٩٧.

- الإسلام دين المستقبل -روجيه جارودي- ترجمة: عبد المجيد بارودي- ط دار الإيمان ١٩٨٣.

- الإسلام على مفترق الطرق -محمد أسد- ترجمة: د. عمر فروخ- دار العلم للملايين- بيروت- ط٨- ١٩٨٤.

- الإسلام الفاتح - د. حسين مؤنس- ط الزهراء للإعلام العربي- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

- الإسلام في الألفية الثالثة، ديانة في صعود- د. مراد هوفمان- ترجمة: عادل المعلم ويس إبراهيم- مكتبة الشروق- ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

- الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة. د. محمد البهي -مكتبة وهبة- القاهرة- ط٣- ١٤٠١هـ- ١٩٨١.

- الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني- أنور الجندي- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة- ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

- الإسلام في مواجهة تيارات الفكر الغربي المعاصر- د. محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية- ١٩٨٥م.

- الإسلام فى النظرية والتطبيق- مريم جميلة- ترجمة: س. حمد- مكتبة الفلاح- الكويت- ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

- الإسلام كبديل- د. مراد هوفمان- ترجمة: عادل المعلم- دار الشروق- ط٢. ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

- الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم- د. هالة مصطفى- ط دار مصر المحروسة- القاهرة- ٢٠٠٢م.

- الإسلام والقرن الواحد والعشرون، شروط نهضة المسلمين- ترجمة: كمال جاد الله- ط دار الجليل للكتب والنشر- ط٢- ١٩٩٧.

- أضواء على السيرة النبوية (مقارنة بين الأديان) -عبد الحميد جودة السحار- مكتبة مصر بالفجالة، ١٩٦٥.

- إظهار الإسلام -روجيه دوباسكويه- مطابع الشروق- ١٩٩٤م.

- الإيمان بالله فى عصر العلم- د. محمد عبد الهادى أبو ريدة -تحقيق: د. فيصل عون- كتاب مجلة الأزهر- رمضان ١٤٣٧هـ- يونيو ٢٠١٦م.

- تجديد التفكير الدينى فى الإسلام- محمد إقبال- لجنة التأليف والترجمة والنشر- مصر- ط٢- ١٩٦٨م.

- تجديد الفكر العربى- زكى نجيب محمود- دار الشروق- ١٩٨٢م.

- تفسير المنار- محمد رشيد رضا- مكتبة القاهرة- ميدان الأزهر بمصر.

- التنوير الزائف- د. جلال أمين- سلسلة اقرأ- دار المعارف بمصر- ١٩٩٩م.

- تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان- الشيخ عبد الرحمن السعدى، مكتبة الصفا بالأزهر- ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

- ثورة يوليو الأمريكية (علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية) -محمد جلال كشك- ط٢- الزهراء للإعلام العربى- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

- جان جاك روسو : حياته وكتبه- د. محمد حسين هيكل- دار المعارف بمصر- ١٩٩٠م.

- حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم- دار عمر بن الخطاب- الإسكندرية، بدون تاريخ.

- حضارة الإسلام- د. سعيد عبد الفتاح عاشور- معهد الدراسات الإسلامية- ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

- الحضارة الإسلامية- د. على حسن الخربوطلى- سلسلة كتابك -العدد ٢٧- دار المعارف- مصر- ١٩٧٧م.

- الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية : دراسة مقارنة- د. توفيق الطويل- مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة- ١٩٩٠م.

- حقائق الإيمان- سعيد النورسى- ترجمة : إحسان الصالحى- ط٤- شركة سوزلر للنشر بالقاهرة- ٢٠٠٨م.

- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى- محمد الغزالى- دار الكتب الحديثة- مصر- ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

- حياة الروح فى ضوء العلم: أدموند و. سينوت- ترجمة وتقديم: إسماعيل مظهر- مكتبة الأنجلو المصرية- ١٩٦٠م.

- دراسات معرفية فى الحداثة الغربية، د. عبد الوهاب المسيرى- مكتبة الشروق الدولية- القاهرة- ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

- دور العمائم فى تاريخ مصر الحديث -فتحى رضوان- ط الزهراء للإعلام العربى- ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

- دولة الفكرة التى أقامها رسول الإسلام ﷺ عقب الهجرة- فتحى عثمان- مكتبة وهبة- القاهرة- بدون تاريخ.

- الذريعة إلى مكارم الشريعة- الراغب الأصفهاني- تحقيق: د. أبو اليزيد العجمي- دار الصحوة- ط٣- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

- رؤية إسلامية -د. زكي نجيب محمود- مكتبة الأسرة- مصر- ١٩٩٥م.

- رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر- د. عبد الوهاب المسيري- ضمن كتاب بعنوان: (ثلاثون كتاباً في كتاب) بقلم: بدر محمد بدر- إصدار سطور الجديدة بالقاهرة- ٢٠٠٩م.

- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا- محمود محمد شاكر- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط٢- ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

- سر إسلام رواد الفكر الحر في أوربا- محمد عبد العظيم علي -دار المنار -المنصورة- ٢٠٠٢م.

- سنوات وذكريات، سيرة ذاتية -د. أحمد هيكل- الهيئة المصرية للكتاب- ١٩٩٧م.

- شاهدة ربع قرن- عايدة الشريف- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠١٣م.

- مختصر شرائع الإسلام في منهج ابن تيمية- هنري لاوست، ترجمة: محمد عبدالعظيم، تعليق: د. مصطفى حلمي دار الدعوة- الإسكندرية ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

- شمس العرب تسطع على الغرب- زيغريد هونكة، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، برلين ٢٠١٤م.

- صراع القيم -د. حسين غانم- دار المنار الحديثة- شبرا مصر- ١٩٩٤م.

- العالم من منظور غربي- د. عبد الوهاب المسيري- ط دار الشروق- ٢٠١٧م.

- عالمية الإسلام- شوقي ضيف- مكتبة الإسراء- ١٩٩٩م.

- عبد الرحمن عزام (الإسلام- العروبة- الوطنية)- عصام الغريب- دار الكتب والوثائق القومية- مصر- ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

- عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، شوقي خليل- دار الفكر- دمشق- ١٣٩٩ ط- ١٩٧٩م.

- العولمة- د. جلال أمين- دار الشروق- ط ٣- ٢٠٠١.

- عولمة القهر- د. جلال أمين، دار الشروق- ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٠م.

- الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة. د. عبد العظيم رمضان- دار المعارف- مصر- ١٩٨٥م.

- فقه الاستغراب: الغرب في عيون أعدائه- إين بوروما وأفيتشاي مارغاليت- ترجمة: أحمد أبو الليل- طبعة سطور الجديدة- ٢٠١٦م.

- في فلسفة التاريخ- د. أحمد صبحي- ط٣- مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٩٠م.

- في فلسفة الحضارة [اليونانية- الإسلامية- الغربية]- د. أحمد صبحي ود. صفاء جعفر- دار الوفاء بالإسكندرية ٢٠٠٦م.

- في مرآة الغرب: كيف يرانا الغرب؟ وكيف يرى نفسه؟ د. حامد طاهر- دار الهاني- القاهرة- ٢٠١٢م.

- قبل الكارثة، نذير ونفير- د. عبد العزيز مصطفى كامل- كتاب المنتدى الإسلامي- لندن- ط٢- ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

- قراءة في فكر علماء الإستراتيجية- د. حامد ربيع- دار الوفاء بالمنصورة- ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

- القوى الدينية في إسرائيل- د. رشاد الشامي- سلسلة عالم المعرفة بالكويت- ذو الحجة ١٤١٤هـ- يونيو ١٩٩٤م.

- لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ شكيب أرسلان- منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت- ١٩٧٥م.

- لماذا يكرهونه؟! الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ د. باسم خفاجي- كتاب البيان- مجلة البيان- الرياض- ط١- ١٤٢٧- ٢٠٠٦م.

- مائة سؤال عن الإسلام- محمد الغزالى- هدية مجلة الأزهر- جمادى الأولى ١٤٣٩هـ.

- محاضرات فى العقيدة الإسلامية- د. أحمد قوشتى عبد الرحيم- دار الهانى- شعبان ١٤٢٤هـ- أكتوبر ٢٠٠٣م.

- محاضرات فى مجلة الطليعة- روجيه جارودى- القاهرة- ١٩٧٠م.

- محمد ﷺ نبى لزماننا- كارين أرمسترونج- ترجمة: فاتن الزلبانى- مكتبة الشروق الدولية- مصر- ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

- المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين فى القرن الواحد والعشرين- د. حامد عمار، وصفاء أحمد- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠١٥.

- المصحف الميسر- الشيخ عبد الجليل عيسى- دار الشروق- ط٥- ١٣١٩هـ.

- مصر بين الخلافة العثمانية والاحتلال الإنجليزى منذ عهد محمد على وحتى عهد محمد توفيق- د. جمال الدين عبد الهادى- دار التوزيع والنشر الإسلامية- ١٩٩٥م.

- الملكات النفسية فى القرآن الكريم- سيد محمد أبو المجد- (ملحق كتاب الشيخ محمد المدنى: النفس الإنسانية فى ضوء القرآن والسنة)- ط دار القلم بالكويت- ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

- من روائع حضارتنا- د. مصطفى السباعى- المكتب الإسلامى- بيروت- ١٣٩٧- ١٩٧٧م.

- النظريات السياسية الإسلامية -محمد ضياء الدين الريس- ط٣- دار الأنجلو المصرية- ١٩٦٠م.

- النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين- د. محمد رجب البيومى- دار القلم- دمشق- الدار الشامية- بيروت- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ﷺ- محمد الخضرى بك- ط ٢٤- المكتبة التجارية الكبرى- ١٩٧٨م.

- هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى- د. عماد الدين خليل- مكتبة النور- مصر الجديدة- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

- هويتنا الإسلامية فى مفترق الطرق- د. محمد الجليند- المكتبة الأزهرية دار التراث- ٢٠١٢م.

- الوابل الصيب من الكلام الطيب- ابن القيّم- دار الريان للتراث- القاهرة- ط ١- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

- اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمارية منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى- ط دار الاعتصام- بدون تاريخ أنور الجندى.

- يوم الإسلام- أحمد أمين- دار الكتاب العلمى- بيروت- ١٩٥٢م.

- يوميات ألمانى مسلم- د. مراد هوفمان- ترجمة: د. عباس العمارى- مركز الأهرام للترجمة والنشر- ٤/ ٤/ ١٩٩٣م.

المجلات:

• الأهرام العربى:

- مقال بعنوان (اتجاهات فكرية جديدة ترسم ملامح العالم)- عفاف الشناوى- ٩ نوفمبر ٢٠١٦- ٥ صفر١٤٣٨م.

- مقال بعنوان (الأقصى... المعركة الأخيرة) -مقالة افتتاحية- ٣ مارس ٢٠١٢م.

- مقال بعنوان (التجديد الدينى«٢») د. عبد العاطى محمد، ربيع ثان- مارس ٢٠١٢م.

* البيان:

- مقال بعنوان (تسويق التبعية)- أحمد عبد الرحمن الصويان- المحرم ١٤٢٥هـ- مارس ٢٠٠٤م.

* العربي:

- مقال بعنوان (التحول من الإسلام إلى العروبة)- د. فهمي الشناوي- جمادى الأخرة ١٤١٨هـ- أكتوبر ١٩٩٧م.

- مقال بعنوان (مجد أمة: في الطريق: سيرة عقل يبحث عن ذاته)- محمد يوسف عدس- العدد ٣٠٠- شعبان ١٤٢٨- أغسطس ٢٠٠٧م.

- مقال بعنوان (الناصرية وثنية سياسية)- د. فهمي الشناوي- المحرم ١٤٢٢هـ- أبريل- ٢٠٠١م.

* المسلمون:

- مقال بعنوان (أصول حضارة الإسلام)- محمد أسد- العدد الثاني- ٤٣- السنة الأولى.

* المنار الجديد:

- مقال بعنوان (التجديد الإسلامي بين قرن مضى وقرن يجيء)- طارق البشري- يناير ١٩٩٨- رمضان ١٤١٨م.

- مقال بعنوان (تصغير الكبراء)- د. جلال أمين- أبريل ١٩٩٨م. ذو الحجة ١٤١٨م.

* الهلال:

- مقال بعنوان (الحملة الفرنسية على مصر- رؤية يابانية)- سبتمبر ٢٠١٠م.

* الوعي الإسلامي:

الكويت- العدد ٤١٨- أغسطس/ سبتمبر ٢٠٠٠م.

الفهرس

التعريف بالكتاب

نبعت النظرة العالمية للثقافة الإسلامية من التنزيل الإلهى، وليس من تأمّلات أو اجتهادات الفلاسفة والمفكرين؛ لذلك حقّ وصف حضارة الإسلام بأنها إلهية، وهى منبع التنوير الحق. قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد: ٢٨]: أى يعطيكم علمًا وهدى ونورًا تمشون به فى ظلمات الجهل، كذلك وصف الله تعالى القرآن بالنور، فقال: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨]، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «والصلاة نور» من حديث رواه مسلم.

أما ما يُسمّى (بالتنوير) فى بلادنا الآن فهو تنوير زائف؛ لأنه مسخ لشخصية الأمة وعبث بتراثها، وهو فى الأساس «تغريب» هدفه إفقاد شعوب العالم الثالث هويّتها حتى يتم كسرها، ومن ثَمّ فإن تراثنا الإسلامى يلفظه؛ لأنه هو الذى يحافظ على هويّتنا.

ويتضمّن الكتاب مجموعة مقالات تناقش قضايا التنوير والتغريب والليبرالية بالبراهين والأدلة، وتكشف فى محلها عن مدى (رجعية) التغريبيين بإصرارهم على الانغلاق داخل الآراء الفلسفية فى القرن الماضى، ولو فتحوا النوافذ لرؤية جديدة لاكتشفوا الآثار المأسوية لمذاهب الفلسفة وما أدت إليه من أزمة خانقة لحضارة الغرب التى أصبحت جزءًا من بنيته، خصوصًا فى منتصف الستينيات، مثل تآكل مؤسسة الأسرة وانتشار الإيدز والمخدرات، وتراكم أسلحة الدمار الكونى، والأزمة البيئية، وتزايد اغتراب الإنسان الغربى عن ذاته وعن بيئته.

والله ولى التوفيق..

الناشر